زهير الجزائري

الخائف والمخيف

رواية

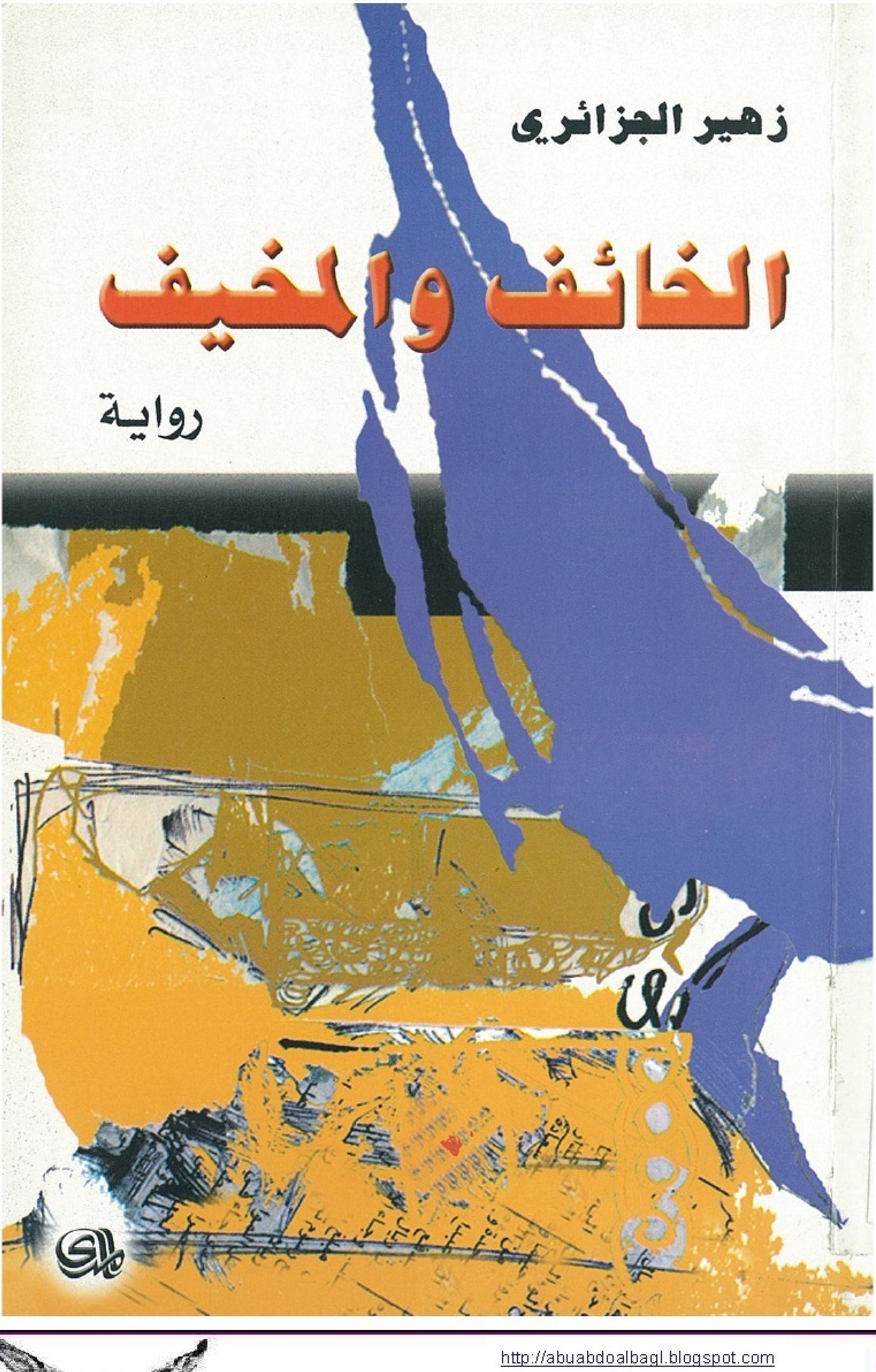

http://abuabdoalbagl.blogspot.com

أبو عبدو البغل

زهير الجزائري

الخائف والمخيف

Author :Zuhair Al-Jezairy
Title :The Scared and The Scary
Al- Mada P.C.
First Edition :year 2003
Copyright © Al- Mada

اسم المؤلف : زهير الجزائري
عنوان الكتاب : الخائف والمخيف
الناشر : المدى
الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٣
الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289
E-mail:al-madahouse@net.sy

بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧
E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

الجزء الأول

صرخة!! صرخة امرأة، طويـــلة وحادة كسرت زجاج الليل البارد، ومعها انطفأت أضواء المدينة لدقائق... ثم عاد الضوء والصمت فبدت وجوه الجميع شاحبة ممصوصة وقد تأكدوا من أن المحذور قد وقع. للحظات حدقوا في بعضهم في استفهام لا ينتظر الجواب دون أن يروا أو يقولوا شيئاً ... مرت دقائق أخرى من الصمت والرعشة ثم دبت الحركات الأولى التي تبارك عودة الحياة واليقين بأن ما حدث كان بعيداً ولم يمسهم أذاه، فعاودت الأم تقشير الباذنجان لطعام الغد والزوجة كي قميص زوجها ونتف الزوج شعرة من شاربه وسرى إلى الغرفة خيط من بخار الشاي الذي بدأ يغلي تَوّاً وأفلتت قطة البيت من حجر الصبية سائرة بهدوء وقأقأت الدجاجات في أقنانها وعكست المرآة في غرفة الجلوس الدماء التي عادت لوجوه مصها الخوف فسأل الوالد ابنه الكبير عن الوقت وهو يفرغ تواً من تمتمة شكره للرب:

- ظننتها التاسعة، لا أدري لماذا؟

-لا يا والدي، إنها كما قلت لك التاسعة والنصف إلا خمس دقائق، وإذا أردت الدقة فهي التاسعة والنصف إلا أربع دقائق.. هل الأطفال نيام.

- أنا صاعدة لأنام...

- للمرة الرابعة تقولين ذلك ولم تصعدي بعد!

- أشم رائحة شيء يحترق؟

- المكواة.

.. أحاديث بلا معنى يريد المتحدثون من خلالها أن يهربوا من صدى ما يزال يترجع في داخلهم: صرخة حادة وطويلة ومعها صوت ارتطام حديد بحديد وزجاج يتكسر، صرخة نابعة من ألم شديد، وما تلا هو صوت الموت نفسه...

***

فزت العمة صبيحة من نومتها القصيرة، فقد انشق جدار اللحم مع الصرخة وانبثق رشاش من دم. دون أن تدري وقبل أن تفتح عينيها كانت تنش بيديها المحملتين بالأساور الذهبية شيئا علق بجسدها يشبه لحم جنين السفاح. دارت بعينيها في الصالة الخافتة الإضاءة حيث أخذتها الغفوة قبل سهرة المساء. أمامها انتصب قبل كل شيء ابنها المعتوه الذي ترك المكواة تحرق الثوب الذي كان يكويه وهرع بجسمه المتورم ليحتمي بأمه غارزا إصبعيه في فمه. شغلت صبيحة بالربت على رأسه مهدئة المعتوه وهي تهدئ نفسها، فقد كانت الصرخة قريبة منها لدرجة أنها أرادت أن تعود لنومتها هربا من فاجعة أخرى، وما أكثر الفواجع هذه الأيام. بين يوم وآخر تدخل واحدة من بناتها مطعونة بخنجر أو يدخل واحد من الضباط ممسكا مسدسه ومهددا بقتل واحدة...وقد تكاثرت التهديدات حولها من كل جانب.. من جنود في الجبهات يتهمونها بغواية زوجاتهم خلال غيابهم الطويل في الجبهات، من اتباع السيد الحائري الذي هددها بالويل من منبره، من كبار المسؤولين لأنها تفضل أحدهم على الآخر ببناتها، ومن السفاح نفسه وقد قيل إنه وفرها هي وبناتها للنهاية...

لقد بنت صبيحة شبكتها العريضة وحياتها الباذخة بجهد صبور: هاربات من الأرياف من زواج بالغصب، طالبات من المحافظات كبسن

هاربات من أقسامهن الداخلية إلى بيوت الطلاب، موظفات صغيرات قتلهن الملل و شحة الراتب، تائهات بين الحب الخائب ومتع الليل.. ستكون (العمة صبيحة) بانتظارهن عارفة بلحظة الضعف النموذجية التي تكون فيها المرأة المنكوبة في عز إحساسها بالوحدة والحاجة إلى يد دافئة.

تبدأ صبيحة بالحديث عن غدر الرجال وقسوة قلوبهم:

-اسأليني عنهم؟

ولديها قصص لا تعد عن رجال حملوها الضيم بعد أن وعدوها بالنعيم. واحد فقير صعلوك صرفت عليه من كد يدها وماء عينيها كخياطة ليكمل دراسته، وحين حصل على البعثة لم يذكرها ولا حتى برسالة، وآخر حملها سفاحا وترك لها ابناً نغلا تكبر متاعبه كلما كبر، وثالث وعدها بالزواج ثم أخذ منها حفنة نقود وغاب مثل فص الملح.

في نهاية القصص تصل صبيحة إلى الحكمة الختامية لقصص الحب الخائبة:

- لا يفيد المرأة إلا المال الذي يجذب الرجال زاحفين على ركبهم!

ومن أجل سلطة المال هذه تبدأ القادمات الجدد مغامرتهن الأولى بليلة واحدة، ليلة واحدة فقط، لا تكلفهن شيئا في شقق الضباط الكبار، ومع ذلك تكفي لشراء الفستان المعلق بانتظارهن في محلات (فردي)، ثم ليلة أخرى لشراء القمصان الحريرية من محلات (الأميرة).. وتتكرر الليالي كلما ظهرت في الفاترينات موديلات جديدة... ثم يستسهلن الليلة الرابعة والخامسة على منغصاتها المهينة حتى تغلظ أصواتهن من كثرة التدخين والكحول، ويتعودن الصراخ الفضائحي ويدخلن الكهولة في الثلاثين فيصبحن قوادات ثانويات على حديثات العهد.

تحبهن العمة صبيحة مثل بناتها وتبدي صبراً عجيباً مع الجديدات البكاءات الحرونات. لن تضغط كثيرا إذا أبدين الضيق من المهنة:

- أنت مازلت جديدة على المهنة، وأمامك مجال للعودة. غداً إذا صار فرجك مبولة لن تستطيعي التراجع. قرري من الآن!

أحيانا تلبس الصبية عباءتها وتغادر وكثيرا ما تعود بعد يوم أو يومين فتأخذها صبيحة إلى غرفة الزينة وتضع المكياج على وجهها وترسل معتمدتها في المهنة (بهيجة) معها:

- احرسيها كما تحرسين أختك الصغيرة وكوني مكاني!

ومنذ أن بدأ السفاح جرائمه، بدأت صبيحة إجراءات وقاية مضاعفة: تستأجر سُوّاقاً موثوقين ينقلون بناتها إلى الزبائن ويبقون بانتظارهن عند الباب، ووظفت حلاقا خاصا يأتيها كل يوم بعد الغروب ليصفف شعر البنات ويزينهن بدلاً من ذهابهن لحلاق في المدينة، وانشغل ابنها المعتوه البدين بِكَيٍّ ملابس (عماته) والتفرج عليهن وهن يبدلن أمامه فيطرق خجلا وقد غرس إصبعين في فمه الذي يسيل منه اللعاب بلا توقف. لن يطمئن قلبها إلا حين تتأكد بالتلفون من وصولهن، كل واحدة مع حارستها.

ومع ذلك تتبعت صبيحة، وهي تهدئ هذا المعتوه المرتجف النائم على صدرها، كل واحدة منهن وهي تخوض هذا الليل الذي تزدحم زواياه بالخناجر المسنونة.

في منزل (السيد الحائري) هاج الجن وراح يوصوص وأخذ الأبالسة الصغار، بلحمهم البارد المحرشف المكسو بالزغب، يتزاحمون بين ساقي (الحاجة خديجه) فأوشكت على السقوط مع فانوسها، و استندت بيدها الطليقة إلى الجدار وهي لا تتوقف عن الترديد :

- أعوذ بالله من الخبث والخبائث، أعوذ بالله من الخبث والخبائث، أعوذ ...

لم تتردد، حين شجت الصرخة يافوخها، ولم تتأن لتعرف مصدرها، فبعد وفاة السيد وغياب أدعيته أصبح الحوش الخلفي مكشوفاً للأبالسة الصغار والكبار، ولذلك هرعت فوراً إلى غرفة الحريم ولديها يقين بأن شيئاً حدث لابنتها الصغيرة. فبدون لمسات السيد المباركة غلبت الشياطين الصغار عقل الصبية وراحت توسوس وتنوس من خلالها بأخيلة مخيفة فلا تكف عن الصراخ طوال الليل. ولذلك لازمت الأم الصبية صباح مساء، لا تفارقها إلا في لحظات الضرورة غير عابئة بتحذيرات بنتها الكبيرة:

- ستعديك بجنونها!

وفعلا تسلل هذيان الصبية إلى أحلام الأم التي يضيق تنفسها من ثقل الأبالسة الذين يتكدسون على صدرها خلال النوم فتنهض مختنقة وتطردهم من سريرها بأن تنفض اللحاف بكل ما لديها من قوة وتهب للصبية لتتملاها وتمسح وجهها بماء البئر الذي جلب من مقام الهادي...

تستذكر الحاجة خديجه كيف إن الحمى وهزال الجسد رافقا هذه المنكودة منذ صغرها، ومعها حساسية مرضية. كانت تفاجئ الجميع بأسئلة تجعلهم يستغفرون ربهم (هل الله رجل أم امرأة؟ ما الذي يمسك السماء الكبيرة فوقنا، وما الذي يمنعها من أن تهوى علينا) ؟ تمنت الموت وهي صغيرة لأن السيد قال إن الأطفال يدخلون الجنة دون حساب فتشوقت لملائكة بيضاً يخدمونها وجنات تجري من تحتها أنهار من عسل. وحتى عمر متأخر كانت تتبول في فراشها لأن ملائكة بيضاً

يجيئون إليها في الحلم ويضعون بين ساقيها دورقاً من البورسلان على شكل بطه ثم يدغدغون عانتها بريشهم ويهمسون في أذنها (بولي،بولي، بولي!) فتضعف أمام نعومتهم وتبول في فراشها. ذات يوم انقطع خيط العمر المعلق في رقبتها فجاءت مولولة هلعة من يوم القيامة القريب حيث ستهب العواصف وتنقلب البحار ويخرج يأجوج و مأجوج ليقضوا على ما تبقى...وقد توسلت الأم السيد بأن لا يتحدث أمامها عن أشياء تفوق عقلها.. بين أحاديث الوالد عن الآخرة ويوم الحساب والقيامة، وبين قسوة الابن الصغير عليها هزل عقل الصغيرة فوجدت الأبالسة فيها فريسة سهلة.

بعد الصرخة برز محجراها من وجه أبيض مزرق فأخذت الأبالسة وجهها وصار صوتها، وهي تهر، مثل أصواتهم. دخل الشيطان في صورة خيال جميل يمص روحها من شفتيها ببطء قطرة قطرة حتى شهقت من وهن جسدها، ثم أشار بإصبعه نحو أخيها: (سيذبحك و يقطعك مثل هذه التي صرخت وأنت مربوطة بسلاسلك هذه).

هاجت الصبية وهي تسمع خطوات القادمين و ظلالهم على السلالم وصارت تعض اليد التي تقترب منها، لذلك لم تجرؤ الأم على الاقتراب، إنما مدت يدها الطليقة بحذر متتبعة طريقة السيد الذي اعتاد أن يقرفص أمامها ماسكا مسبحته بيد، وباليد الأخرى يلمس رأسها ماداً صوته الهامس الواضح في أذنها مخاطبا الروح التي دخلتها:

- اخرجي أيتها الروح فجسد الصبية البكر محرم عليك.

تجيبها الروح همسا في أذنيها:

- أحبها.

- لا تحبك.

- سأحج معها ماشية!

- لن تحج معك .

-...

- ارحمي ضعف بدنها وعقلها!

- سأتركها كرامة لك .

- قولي طاعة لله ورسوله!

- سأتركها طاعة لله ورسوله!

تغص الصبية بصوتها وتستفرغ سائلاً أخضر ثم تهدأ ويعود الضوء لوجهها المزرق وتنام على كف والدتها.

صراخ العليلة اخترق الأبواب المتتالية التي تفصل غرفة الحريم عن ديوان البيت الخلفي حيث كان الابن الأصغر (جواد) جالسا على دكة عالية تفصله عن مريديه:

- في يوم تعداده ألف عام، تنشق السماء وتنتشر الكواكب وتتبعثر القبور وينزل يأجوج و مأجوج من الجبال في حرب عمرها سبعمائة عام غصت خلالها القبور بالجثث وانسدت مجاري الأنهار حتى فاضت دما...

مريدوه الكبار يديرون رؤوسهم ويهمسون برمين:

- سمعنا هذه القصص من المرحوم والده...

الشبان الأقل صبرا يقاطعونه وسط الحديث:

- قيامتنا الآن يا سيدنا. عليك أن تنزل إلى الأرض وتقول كلمتك فيها!

آخر جملة قالها لمريديه الذين استمعوا إليه بصمت متحفز:

- ينبغي أن يكون للفضيلة أسنان!

قالها ليختم فصلا طويلا من الانتظار. فقد بقي طويلا يصلي وهو يرنو ببصره إلى السجادة التي بقيت في مكانها بانتظار الوالد.. إنه المثال الذي تتجه إليه كل عواطفه وأشواق نفسه.. هذا الفراغ الحرك الذي تركه الوالد كان مصدر قلقه وشكوكه فيسال بغضب (أين عدالة السماء؟). ترك عباءة والده ملطخة بالدم بانتظار أن يثأر الرب لوالده بمعجزة دموية .. مع مريديه ترقبوا خطوات السفاح باعتباره مرسلا لقطع دابر الفساد والطغيان.. فوتوا الضحية الأولى ثم الثانية... لكنه لم يفعلها... وحين بدأ الناس يتساقطون في الشوارع مع حيواناتهم بفعل الحنطة المسمومة حسبوها عقابا ربانيا لأمة خذلت سادتها. في فصل الجفاف الثاني قالوا إن المعجزة حدثت: سائل أسود كثيف يتدفق من المكان الذي أدى فيه السيد صلاة الاستسقاء، لم يلمسه أحد منهم، ولكن كل من أصغى لشخيب السائل وهسيسه وبقبقته سمع كلاما غامضا بين البسملة والوعيد.. إنه دم السيد الذي سيغمر المدن التي خذلته بفسادها وضعف حميتها.... في النهاية تعبوا من الانتظار ومن توقع معجزة لم تحدث، وتعب جواد من ذل روحه أمام أتباع انتظروا مثله. يتذمر من الرب نفسه دون أن يتزعزع إيمانه.، ومع ذلك ضاق صدره من صلاة يؤديها في أوقاتها دون روح، تبددها صور الوالد الذي انطوى بين يديه وسط بركة الدم وتكبيرات الناس، صور عن أخته العليلة التي مصت الأبالسة دمها وعصارة روحها.. صور خاطفة وحادة تجعل قلبه يرتجف من الشكوك وصدره يغلي بالغضب.

طويلا علله شقيقه الكبير بانتظار المهدي المخلص الذي سيظهر

للناس عن قريب وينشر العدل وينصف المظلومين، لكنه لم يكتف بإحساسه الغامض بأن الله سيجازيه على عذابه في الآخرة، فجنته الحقيقية هي أن ينتقم الرب له الآن.. لتكن الزلازل والبراكين، ولتحدث القيامة الآن قبل أن تجف جراحه. وحين تباطأ عقاب ربه أخذ يغذي حقده من الحقد نفسه مقررا أن يأخذ ثأره بيديه... ويتوافق هذا الغضب مع نفاد صبر مريديه من الطلبة الصغار والفقراء الذين مضهم الجوع والعسكريون الذين اقتحموا ديوانه دون أن يخلعوا بساطيرهم:

- لن تغيروا الأمور يا سيدنا بالمسبحة والدعاء، لدينا في المعسكر القريب دبابات جاهزة للتحرك وخطة لاقتحام القصر ووزارة الدفاع، ولا نريد غير كلمة منكم: توكلوا على الله!

- نريدكم أنتم بدلا من دباباتكم...

فقد قر قراره على تتبع رحلة والده إلى تلك الشعاب التي تقربه من الله ومن ناس بعيدين عن المدن، بلا عقد أو شكوك سيأتونه بنية أصفى من الحليب وماء الينابيع، سيسعون معهم إلى صفاء التعاليم الأولى لعهد النبوة والخلفاء الراشدين.. ومن هناك سيبنون جيشا لمحاربة الترف والطغيان في المدن ... كانت الفكرة تختمر بسرعة ويزداد عدد مريديها المتجمعين حوله في ديوان البيت الخلفي:

- نريد في أيدينا بنادق مع هذه المسابح.

كان على وشك أن يقول كلمة الجهاد ، لكن الصرخة قطعت حديثه. بقي للحظات صامتا شاحب الوجه محرجا من عدم امتلاك جواب على غموض ما يحدث، وهالته فكرة أنها آتية من غرفة الحريم في بيته، فترك مريديه على ذهولهم وفتح الباب المطل على باحة البيت الداخلية فرأى

زوجته الشاحبة تهز رأسها هلعا مما يحدث وينعكس داخل البيت. ترك السيد جواد مريديه في الذهول ودخل باحة البيت ممسكا بعكازة الوالد ضاربا الأرض بقدميه وقد هزت خطواته أبواب الممر القديمة و أحمر وجهه من فورة الدم واقترب من الصبية المكبلة مزيحا أمه بقوة وفي باله الشيخ (ابن تيميه) وهو يخاطب الروح في المصروع الذي حل إبليس في جسده:

- اخرجي أيتها الروح الخبيثة فجسد الصبية البكر لا يحل لك!

- ...

كانت الصرخة قد بلغت أذن الصبية وهيجتها فأخذت تهر وهي تدور حول نفسها فيصل الحديد من ضغطها وهي تحاول الإفلات منه إلى مصدر الصرخة.

-أخرجي، قلت أخرجي!

رفع العكاز دافعا أمه جانبا وضرب تلك الروح التي تلبست أخته على عروق رقبتها فقفزت من الأرض حتى آخر امتداد السلاسل، ورفست رفستين ثم غابت على البساط الذي نامت أفاعيه وببغاواته وتساقطت أوراقه بصمت في ضوء فاتر.

بانتظار التغيرات الكبيرة سلم العقيد مجيد العادلي نفسه للحياة السهلة في شقته العالية في حي الضباط. خلال إجازته هذه خصته العمة صبيحة بـ(الغزالات) قبل نزولهن للسوق. يأتين بعد قيلولته ويقفن قليلا في إطار الباب.

لم تكن الغزالة الجديدة عنيدة، كما سابقتها التي بكت وصرخت ثم دخلت سريره ملتمة مرتجفة . فعلى صغر سنها:

- ثمانية عشر.

- أقل بعام.
- ما اسم الأميرة؟
-عسل.

تجيب مرافقتها
-عسل؟
-إن لم تصدق ذقه!

أجابت مرافقتها وهي تدفعها إليه.

استغرب مجيد السهولة التي تم بها كل شيء: لم يستدعها ولم يقل لها كلمة التهديد التي خبأها للحظات الأخيرة، بل اكتفى بإشارة من حاجبيه لباب غرفته. ومن عجبه دخلت الغرفة قبله قاطعة خيط التردد الطويل . حين وجدت نفسها وحيدة معه توترت وهي تتحاشى النظر إلى هذا الممدد بانتظارها في الفراش.. عدلت شعرها أمام المرآة وواصلت الحديث مع زميلتها في الخارج:

- انتظريني، سنذهب للسوق سويا، هل تسمعين...

وحين تعطل الجواب كسرت الصمت الحرج مترنمة:

- شال الهوى شاشي وانت ما تدراشي...

خلعت معطفها ببطء كما أمرها هذا الكسول الممدد في الفراش متكئة على وجودها الكثيف قبل أن يلغي الآخر وجودها، وانجرت إلى السرير خائفة من رجل لا تعرفه. ومع ذلك ستتلوى وتتأوه بصرخات ناعمة متسارعة لتعطيه الوهم، كما علمتها العمة صبيحة، بأنه ربان ماهر يجيد إثارة امرأة. نزعت ثوبها قبل أن يخلع ثيابه الداخلية. كانت ترتجف وقد تمددت بجانبه بانتظار أن يفعل شيئا ،مختنقة بأنفاسه الحارة

الجارحة، وهو يقترب منها ويمد يده إلى شعر عانتها، وعيونها مثبتة في سقف الغرفة، ومع ذلك فقد تمددت له ويداها متصلبتان إلى جانبي جسمها.

_ترررن، ترررن، ترررن

دق التلفون فأغلق مجيد السماعة شاتما كـ... أم المزعج في هذه اللحظة الحرجة. لن تنقلب الدنيا، فكر مجيد وهو يرفع الصبية فوقه، وحتى لو انقلبت، لن يتغير شيء سوى أن الصبية ستنقلب تحته. وكان شعوره بالهيمنة يفوق حرارة اللذة التي سرت تحت بطنه. ساخنة كانت الصبية كأنها محمومة وكل عضلة فيها ترتجف وقد تطلبت قوته لتفتح ساقيها، تئن من ألم الإيلاج كاتمة صرختها بصعوبة. أسكتها بإصبعه حين بدأت تتأوه تحته من ألم ولذة غامضة. ولذلك بقيت يده مطبقة على فمها وهما يسيران معا إلى تلك النقطة الغريبة ... حتى قطعت الصرخة كل شيء...

توقف مجيد عن دك الصبية وانتظر لحظات أن يدق التلفون (تعال فورا) وهو يعرف المهمة التي ستوكل إليه...

لم يدق التلفون ولكن الصبية قفزت من تحته مع الصرخة. وبقيت خلال الصمت الذي تلا مقرفصة على حافة السرير وقد ضمت يديها بين ركبتيها تتحسس عظامها تصطك من برد غامض ومن تخيل مرتعش لما حدث.. كان شعر فرجها مبتلا حين انفجرت الصرخة قبل أن تبلغ الذروة. خلفها بقي مجيد ممددا على السرير وعلى شفتيه ابتسامة سخرية من هذا الخوف الذي شمل الجميع لمجرد أنهم سمعوا صرخة، صرخة واحدة فقط. بطرف إصبعه كان يتابع قطرة عرق تنزل من أسفل العنق حتى ظهرها

البارد مبتسما بظفر لأنه في النهاية نال هذا الجسد الذي استعصى عليه. جرها إليه في السرير:

- تعالي يا خوافة! كيف يصل إلى هنا وحولنا كل هذه الحراسات؟!

فأسوأ ما في الأمر أن شيئاً سيئا حدث في مكان آخر ولأناس آخرين، لذلك لن يسمح لمخيلته أن تذهب أبعد من حدود هذه الشقة المحصنة لتتخيل شيئا لم يره بعينيه ولم يمسه شخصيا، ولن ينغص لحظته الراهنة التي قد لا تعوض. لكن عبثا حاول إعادتها إلى فراش اللذة، فقد بقيت هكذا.. ترتجف من عرق ظهرها البارد وقد تجمد خيالها على صورة مبهمة لشيء فظيع حدث لتلك المرأة التي أطلقت تلك الصرخة ثم غارت في الصمت.

* * *

الوحيد الذي لم تفاجئه الصرخة كان مقرفصا على سريره، تلون الظلال وجهه وهو ينظر في ساعته حاسبا اللحظات:

- واحد أثنين ثلاث...

كل شيء كان واضحا في مخيلة وليد دون أن يراه: لحظات السهو التي سبقت الصرخة، ردود فعل الشخصيات حين تمزق الصرخة زجاج الليل البارد.. مع ذلك ارتعشت يده حين أحس وجع الطعنة في كتفه. التفت حوله إلى النوافذ المجاورة، لكن الظلمة أطبقت على الجميع وعلى ذاكرته أيضا فيما يشبه الغيبوبة التي لن تعود الحياة بعدها كما كانت سابقا. آخر جملة كتبها (لليوم الثالث...) مخربشا سكيتشات للرواية التي تستعصي عليه. توقف عن الكتابة حين تركت الصرخة على ورقته

خطأ يشبه الجناح المقطوع. بحذر وبطء دور جسده على السرير ومد قدميه وقد توترت الأصابع كما يمدها إلى هاوية سحيقة وتلمس خطواته وقد فقد الاتجاهات.. للحظات بقي قلبه يدق بقوة وهو يحدق في ظلمة المدينة غير مقدم على أن يقول شيئا. ومرة أخرى لام نفسه على العودة لبلد يعيش على حافة القيامة.

- حمار!

قالها بصوت عال، لأنه صدق رسالة وصلته إلى منفاه (أحداث كبيرة ستحصل في هذا البلد ولا يصح أن تبقى بعيدا عنها)... تتالت الأحداث وهو يراقبها وحيدا في شقته العالية خائفا من هاجس الكتابة الذي سيقتله ... وحين اشتعلت أضواء المدينة باغتته أولاً يده الممسكة بالقلم والنائمة على الورق الأبيض.. عليه أن يفعل شيئا! أطل من النافذة على شارع طويل ترتجف فوقه أضواء المصابيح الكهربائية الشاحبة والنوافذ التي دلته، حتى دون أن يرى، على عيون متلصصة مثله، أرادت أن تعرف خلسة تفاصيل ما حدث، وردها فراغ الشارع إلى ذاتها. صراخ أولاد جيرانه وصراخ الأم وهي تحاول أن تهدئهم يعادله صراخ في داخله، يشبه صراخ العاجز في نومه.. ثمة جريمة شنيعة هناك، وهو هنا، غير قادر على أن يغادر غرفته.. برد في معدته ووجع في كتفه لشدة ما ضغط قبضة يده... عاد إلى طاولته وهو يتنفس بصعوبة، فباغته عري الورقة الأبيض الذي ينتظر. وقد جاءته فكرته كالصرخة: (بها سأبدأ الرواية: صرخة غامضة مزقت الليل وأيقظت هواجس الناس المخبأة ثم انطفأت...) لم يكن سعيداً بامتلاك جملة الاستهلال، إنما ارتجف من وطأة الإنفعال بالبداية التي ستأخذه إلى زخم الكتابة الذي

فارقه منذ زمن، وربما ارتجف من إحساسه بالهول لكونه الوحيد الذي يعرف الحدث قبل وقوعه؟ تقلص جسده على السرير وقد امتلكه الحدث والإيهام الروائي معا. (صرخة! صرخة امرأة. كسرت زجاج الليل البارد ثم...)؟ بدأ وليد الكتابة كمن يعيد تصنيع الجريمة بيديه.. يكتب ثم يتوقف متسائلا: أيبدأ بضمير المتكلم؟ (كنت واقفا في إطار النافذة أبحث في سكون الليل عن مصدر الصرخة) فيتدخل هذا الرجل الآخر الواقف خلفه وقد وضع يداً على كتفه: (بهذا ستفضح نفسك). غير مجرى الكتابة في صيغة الغائب (ارتعش الموسى بيده فشج ذقنه حين باغتته الصرخة وهو في الحمام) وتذكر أن هذا الرجل المرعوب المقرفص في سريره باحثا عن مصدر الصرخة في ظلمة الليل سيكون هو في النهاية، ولذلك غادر الورق باحثا عن مكان وزمان آخرين تجري فيهما وقائع روايته.

* * *

لم يكن القاتل عجولا في كشف ما يريده : فلم يأخذ شيئا من بيوت المقتولين. على العكس كان يخلع أساور ضحاياه والنقود التي في جيوبهم قبل أن يقطعهم، ويضعها في أماكن آمنة، وربما لهذا السبب خيب آمال الفقراء الذين توقعوا في بادئ الأمر أنه جاء ليأخذ أموال الأغنياء ويوزعها عليهم، ولم تكن بين ضحاياه واحدة من فتيات العمة صبيحة كما توقع المتدينون الذين تصوروه مرسلا لقطع دابر الفساد بالدم، ولم تشمل الجرائم أحدا من رجال الحكم كما قدر المعارضون المنزوون في أوكارهم السرية... كانت اختياراته عشوائية تماما: عائلة وكيل عقارات كان خارج البيت حين بدأت الجريمة في بيته ومع ذلك

انتظره القاتل حتى عاد من سهرته لتكتمل الأسرة به، موظف في وزارة الري يعيش في البيت مع اثنين من أحفاده، كلهم بلا استثناء، مولدة مأذونة أفلت من المذبحة واحد من ولديها كان على سفر فاستعاض عنه باثنين من زبائنها، زوج وزوجته الحامل في شهرها السابع قادهما حظهما إلى البيت ساعة المذبحة، عسكري متقاعد عاجلته ضربة الطبر قبل أن يصل إلى مسدسه القديم ومعه الزوجة والجد والأبناء.... عوائل مختلفة وفي أماكن مختلفة لا يجمعها جامع، ولذلك أصبح الجميع مستهدفين بلا تمييز. وقد ترك القاتل لمخيلة الناس أن تأخذ مداها كاملا:

- الغريب أنه أرسل للشرطة إنذارا مسبقا حدد فيه عنوان ضحيته وموعد القتل. لكن بنفخة ريح باردة ورائحة تشبه بخورا غريبا حل على دورية الحرس نوم ثقيل يشبه الإغماء.. وهكذا نفذ من طوق الشرطة والأسيجة المكهربة الأبواب المغلقة دون أن يكسر مفاتيحها... بل إن الكلاب البوليسية المدربة لم تلتقط خياله ولا رائحته .

- تصوروا! ضحاياه ناموا على خلاف عاداتهم قبيل دخوله بساعة، تاركين الأبواب مشرعة له، كاشفين رقابهم لضربة الطبر ...

- أكيد، فقد وزع منشورا يحمل توقيعه يقول فيه (لسكان المحلة الأفاضل)، بأن لا يقلقوا من الانتظار، فسيكرس لهم يومين كاملين، تصوروا !

.. لم تنفع سبل الوقاية أبدا، فقد دخل البيوت مثل خيط دخان ونزل من السماء مثل ومضة برق وتسلل إلى تحفز الحذرين مثل همسة: (ما من فائدة.. أنا آت بالتأكيد)! لذلك أخذ الناس يتجمعون مثل طيور مرعوبة في سهرات مفتوحة حتى الصباح رافعين أصواتهم خلال

الأحاديث وقد تملكهم هوس رواية الجرائم بتفاصيلها الدقيقة، وتحركت المخيلة بفعل مشاهد السينما التي رأوها والقصص التي سمعوها.. كل الجرائم الخائفة الموجودة في داخلهم والتي تنتظر التنفيذ خرجت إلى العراء لتحال إلى السفاح.

ضجرا من هذا الخوف الذي يكبس الحياة بدأ الابن المراهق بنكته:

-يقال أن خلف جرائمه هذه نكسة عاطفية، لماذا لا تتطوع واحدة من أخواتي بالزواج منه؟

- إبتهاج هي الأجمل.

- أنت الآن في الثلاثين وهو وقت الزواج.

- الأمر متروك له، هو الآن يسمعنا، وله أن يختار.

بالتنكيت أراد الأبناء أن يحققوا تضامن الخارج ضد الداخل الخائف، ولكن الأب قطع الهرج بصرخة حادة:

- ليس هذا موضوع مزاح، فللرجل حكمته من وراء هذا الدم.

* * *

بعد شهرين تلمس الناس بحسهم المرهف أن إيقاع الدولة قد تغير وأن رجلا شديد الحزم بدأ يملأ الفراغ.. من علاماته السرعة الخاطفة لسيارات النجدة التي تقطع سكون الليل بزعيق متواتر يشبه آلات فضائية غريبة تدور في المدينة ليل نهار وخلف زجاجها الرمادي رجال متحفزون أيديهم على أزندة بنادقهم، وحواجز يقيمها مغاوير ببدلات سوداء على أكتافهم نسور يتدفق من فمها الشرر.. يحدقون في وجوه العابرين ليعرفوا المجرم من ارتباك خطواته فيوقفوه للتحقيق في هويته ومكان قدومه ومقصده، يفتشون الحقائب وجيوب العابرين بعد أن ينثروا

محتوياتها على طاولات طويلة عند حواجز التفتيش سائلين عن كل شيء، بما في ذلك جمل مبتورة في دفاتر الجيب، ويتلمسون الجسد من تحت الأبطين إلى ما بين الخصيتين بأصابع سريعة قاسية. حذرون لا يقتنعون بإدعاء طبيب خرج لفحص مريض يعاني من أزمة قلبية حادة، ولا أب خرج ليبحث عن حليب لطفله في صيدلية خافرة أو شحاذ عجوز متهالك قد يخفي تحت أسماله ذلك القاتل المفزع... ومع ذلك لم يتذمر الناس، (فالمزيد من الحذر مطلوب). كانوا يستقبلونهم بالزغاريد حين يغيرون فجأة على البيوت والمحلات و يتوسلونهم، مقدمين لهم أفخر ما لديهم من طعام، لإغرائهم بالبقاء أطول فترة ممكنة، بل إن هناك من أخذ زوجته وأطفاله إلى ثكناتهم طالبا منهم أي مكان ينام فيه، حتى ولو في الممرات لأنه ما عاد يأمن بيته بعد أن تهدده الشبح شخصيا بالتلفون...

لم تكف الحراسات والحواجز والغارات (فالأمن - كما قال البيان الموقع باسم القيادة العامة - أشمل وأوسع وعلى الجميع أن يشاركوا فيه).

في البداية خاف الناس من تقديم ما لديهم من أسرار عن التحركات المشبوهة التي قد توصل للسفاح خوفا من انتقامه، لكن البيان الحكومي حذرهم من أن القاتل قد يكون في بيت جيرانهم، بل في بيتهم، و (إذا لم يكن كل مواطن شرطيا على نفسه وعلى الآخرين فسنحتاج إلى شرطي لحماية كل مواطن).. وهكذا بدأ الناس يتصلون بالرقم التلفوني الذي يكرره التلفزيون كل ساعة ويقدمون للأجهزة المختصة همسا عن تحركات مريبة لرجل بملابس عادية يتسلل (لذاك البيت المغلق الستائر والمطفأ الأضواء)، وعن صرخات مخنوقة طوال الليل في بيت السيد الحائري، بل إن إحدى الطالبات الجامعيات قدمت معلومات مثيرة عن

أستاذ علم النفس الذي يكره النساء في الصف والذي يبرر للشبح أفعاله المرضية بأنه جزء من العنف السائد في البلد، كما قدم البعض معلومات عن مروجي إشاعات تقول إن الشبح من صنع الأجهزة التي تحمينا منه.

* * *

في القاعة الخامسة تكور المساجين نياما، يحركون في أحلامهم وبسرعة مجهدة أجنحة من هواء. لم يكن نوما إنما هروب إلى ظلمة مطبقة من نهار بدأ بزخات الرصاص ومعها حقيقة أن ثلاثة رفاق لن يعودوا أبدا دليلاً بدأ بصرخات تعذيب ترددت في الأقبية . الصرخة التي اخترقت جدران السجن وسقف القاعة جرت المساجين من ذاك الطيران العسير إلى أرض السجن و هذه القاعة التي غصت برائحة البطانيات العطنة والأجساد العرقانة والرياح الفاسدة.

- للمرة الثالثة خلال أسبوع!

كان السيناريو جاهزا في ذهن رجل يحيل كل شيء إلى مجاله الأوسع: بين هذه الجرائم وحرائق الهند وانفجارات إندونيسيا وحرب القبائل في أفريقيا خيط واحد.. الاستعمار يريد عالما من الكوارث تنفذ من خلاله شركات السلاح والنفط إلى المنطقة، لذلك يحث خليل رفاقه على المزيد من الحذر ومراقبة ما يجري بعين لا تنام.

- الجرائم سياسية.

قالها بصوت خافت وهو يبلع ريقه ثم التفت حوله ليراقب الحركة البطيئة التي عادت إلى قاعة السجن بعد الجمود الذي أحدثته الصرخة التي مست القلب قبل أن تبلغ الآذان. وبعد صمت قصير سادت غمغمة قلقة تكشف هذا القلق الذي يأكل الأرواح وقد كبت بكبرياء متضخمة

صنعتها تقاليد السجناء أمام سجانيهم والتي تفترض أن تكون أعصاب الجميع أرسخ من الحديد البارد.

- هذه صرختها، أنا أعرف صوتها.

- مجنون؟ أنت تتوهم.

- لن يجدوا ضحية أفضل من زوجة سجين وحيدة في بيت في الضاحية.

- زوجتي مثلها وحيدة وقد...

في زاوية القاعة الأخرى عض قادر شفته حين سمع الصرخة (خ...) قال بصوت مسموع. حظ سيئ يجلب الكوارث كلما أصبحت فكرة النفق قريبة وواضحة. لا يتصل الأمر بهمته إنما بالرفاق حوله الذين يؤجلون الفكرة كلما استجدت أحداث لم تكن في الحسبان. لو كان الأمر بيده وحده لأعتبر هذه المستجدات أمرا طارئا، فما يهمه هو النفق.. يقيس بخطوات ثابتة المسافة بين جدار المرآب والسياج الخارجي للسجن وموقع برج المراقبة ويجس صلابة الأرض وهو يدوسها خلال جولاته في الساحة، وحين يعود إلى القاعة يتفحص مكان الفتحة الداخلية في المرآب الذي يعدون فيه الشاي والأكياس التي سيخفون بينها تراب الحفر والوسائل التي سيستخدمونها لإخفاء صوت الحفر ورائحة التراب. وعندما يستلقي داخل القاعة يرسم في ذهنه المخطط الفرضي الذي يوصل الفتحتين الداخلية والخارجية. الفكرة وتفاصيلها كانت شاغله عن حملة التعذيب التي تبدأ بعد زخات الرصاص وعن الاعترافات التي تنشر في الصحف والتلفزيون .. فهذه الأمور تبدو له حصيلة حاصل لظلم وجوده هنا. ولكثرة ما فكر بالهروب وجربه ونجح وأخفق، فقد روح المغامرة وهو يفكر

فيه وأصبح من بداهات تفكيره هنا.. يتطلع من شباك القاعة ويقول لنفسه (لو حملت هذا السلم المركون على الجدار هناك وغادرت البوابة الأمامية كأي مصلح عادي مع تحية لحرس الباب)... وخلال تجواله في باحة السجن يراقب الحارس النحيل عند الباب.. لا يتطلب الأمر سوى قليل من الإقدام والمباغتة لكي يقفز على هذا الحارس ويأخذ منه سلاحه ويقوده إلى خارج الباب الخلفية ثم يخلي سراحه في البساتين... يفكر ويخطط ثم يوقف دفق مخيلته بالسؤال المحبط : وماذا بعد ذلك؟

لقد نحى فكرة الهروب الفردي تماما من مخيلته وكرس كل وقته للنفق الذي يدخله كل ليلة في الحلم ويفز مختنقا حين يجد نهايته الأخرى مغلقة وقد قطعت سبل الرجعة.

* * *

على صوت الصرخة صحا يعقوب وهو في بداية نومة ثقيلة بعد يوم عمل متعب ونصف قنينة عرق. تلقائيا امتدت يده إلى المسدس المركون تحت وسادته وما زال عالقا بذاك الكابوس المكرر في نفق تاه عليه مخرجه. مختنقا مكروبا فتح عينيه على ممر وسط جدارين عاليين من الملفات.

لم يفكر في مصدر الصرخة ولا في تفاصيل ما يحدث حوله، إنما داهمه غم لا شكل ولا سبب له، غيمة ثقيلة كانت تنتظر يقظته. بعد فنجان قهوة مرة فتح الملفات ليقرأ تقارير المخبرين متتبعا الخطوط الحمراء تحت التقارير التي يرسلها المخبرون باحثا عن خيط يوصل ما يجري بالأحاديث المتذمرة للجنرالات الذين أحيلوا على التقاعد (أصبحت الانقلابات لعبة من هب ودب).. لن يكتفوا بلعب الورق في

جمعية المحاربين القدماء، فتحت القماشة الخضراء خارطة، سترسم غدا إذا لم تكن قد رسمت الآن، ووراء الهزائم الأخيرة في حرب الجبل من يريد أن يثبت بأن الخطر يأتي من هناك، وربما لتمرير شيء خفي هنا بالذات.. (في الجلسات الهامسة التي يعقدها السيد جواد الحائري يكرر دائما: (ينبغي أن تكون للفضيلة أسنان)! هل لذلك علاقة بالفلاحين الذين هاجموا مركزا للشرطة وأخذوا ما فيه من سلاح باتفاق مع الحرس؟ لم الافتراض بأنها عملية سلب عادية؟...

شكوكه والأحداث سارت بتواتر وحمية مع الفزع الذي عم المدينة في الأيام الأخيرة بحيث لم تترك له مجالا للتوجع، ولا حتى فراغا يذكره بأولاده. ما من طريقة يهرب بها من نفسه إلا بالتوغل في سير الآخرين التي تأخذه دائما نحو شكوك واحتمالات أخطر تطارد لحظات نومه.

الوقت يمر بسرعة ولا بد للأحداث من بطل ومن خاتمة. فكرة وليد صحيحة: قد يكون السفاح أبعد الناس عن الشكوك. كأن هذا المجنون يعرف الحدث قبل وقوعه ويأخذ نفسه إلى هلاكه وهو يكتبه:

- لم أنت مشغول بموضوع كهذا وأمامك كل قصص الحب التي لا نهاية لها؟

- ليس لي خيار في ذلك، فقد فرض الموضوع نفسه علي.

ينغمر يعقوب في التقارير والاعترافات ويسبق في خياله الوقائع باحثا وراء التذمر عن نية، عن جلسات هامسة تفح فيها الأصوات وتجحظ العيون وهي تدبر شيئا ما: ما هو يا، ما هو، ما هو؟

حين استعصت عليه الحلول ووصل تلك النقطة التي تتشابك فيها أفكاره ضده... نزل إلى سراديب التحقيق وقد تركت الكوابيس

والأفكار المقلقة في فمه طعماً مُرّاً وفي روحه سُخطاً يصك أسنانه.

(ليكتب ما يريد!) فكر يعقوب وهو يطرد وليد من ذاكرته. لو يعرف هذا المتبطر المشغول بالكلمات والورق عذاب مهنتي؟ تف! لقد أخطأ المداهمون المكان وجلبوا له صاحب الدكان الأبله وابنه:

-سألتك عن اسمك في الشجرة.

- بلبل يا سيدي، بلبل.

- أسألك عن شجرة التنظيم يا حمار.

- لا أعرف يا سيدي عم تتكلم. فأنا حمار فعلا في أمور كهذه.

- كان يظن أن كل شيء انتهى حين اعترف القائد الشيوعي بين يديه على تنظيمه. ولذلك استبشر يعقوب بأن وقت استراحته في بلغاريا قد بدأ، ولكن فجأة جلبوا هذا البيان الذي وزع في الجامعة: (... هذه الجرائم سياسية قبل كل شيء وليست من فعل سفاح سادي، فوراء كل ذلك أجهزة الدولة المدربة على العنف).

- الفرق بيننا يا وليد هو أنك تكتب عن الحدث بعد وقوعه، أما أنا فأكتبه قبل. أضع الواقعة ثم أدخل الشخصية فيها.

- بالإكراه طبعا؟

- دعك من الوسيلة، تتبع كيف أجعل رجلا يتلبس واقعة خطوة خطوة، حتى يصدق ما قاله.

- إذا كنت لا تفهم عم أتحدث فاستمع إلي جيدا وكرر ما أقوله بالضبط: أنا سرقت الرونيو من دائرتي...

- لكن؟

- بلا لكن، أنا...

- سرقت الرونيو من دائرتي

- وطبعت البيان...

- وكان هذا جزءاً من خطة أوسع .

-...

* * *

الصحف نشرت تفاصيل كاملة للجريمة مع الصور.. البيت الفاره المنزوي في حي السفارات والجثث الست الموزعة في أنحاء البيت.. الجذوع واقفة معلقة والأيدي مصفوفة على مائدة الطعام والرؤوس عند نافذة البيت الأمامية بانتظار القادمين... ولكن ما أذهل وليد هو التفاصيل الدقيقة للجريمة: الطريقة التي تسلل بها القاتل ومساعدوه إلى مرآب السيارة و بضربة فأس قتل صاحب البيت حين أطفأ محرك سيارته وأخذ المفاتيح ودخل بهدوء على وقع خطوات الأب تماما. مساعدوه باغتوا بقية العائلة من البابين الخلفي والأمامي وقتلوا كل واحد على انفراد أمام أنظار الآخرين الذين شاهدوا الجريمة وهم مكبلون وأفواههم مكممة بالبلاستر قبل أن يقتلوا لاحقا بنفس الطريقة.. التفاصيل التي نشرت تشمل ردود فعل الضحايا بمن فيهم الأخت الكبيرة التي استطاعت أن تفلت من يد قاتلها إلى سطح البيت حيث أطلقت تلك الصرخة الطويلة التي شقت ستار الليل قبل أن تنالها ضربة الطبر أسفل رقبتها... دقة التفاصيل هي التي أوحت لوليد بصورة القاتل الذي يصف جرائمه في صحف اليوم الثاني باعتبارها فصولا من رواية يعرف مقدما نهايتها... ولذلك ترك الضحايا في روايته وتابع القاتل. فقد شغلته تماما الرسالة التي اعتاد أن يتركها في مكان المقتلة: (لم أقتل من أجل القتل، ولست متعطشا للدم وليست هناك

ضغائن شخصية على المقتولين، إنما أردت أن أبلغ الآخرين من خلالهم رسالة ستظهر فيما بعد...) وتحت الرسالة المطبوعة بخط عريض توقيع القاتل على شكل علامة استفهام نقطتها دم.. أراد وليد أن يراه بعيون ضحاياه فبدا له شخصا سويا تماما، يمارس مهنته الأخرى في النهار مثل موظف رصين يرتدي بدلة رمادية ونظارة طبية مضببة، يتابع ملفات ضحاياه وسيرهم الشخصية بتفاصيلها وهو ينقر بأصابعه على الطاولة بجذل .. وفي المساء يجمع عدته بعد أن يمسح كل قطعة منها بمنديل أبيض ويرتبها في حقيبة جلدية ترتيبا متقنا وبحب فائق، ثم يغادر بيته بخطوات هميمة.. لم يكن كريها مشوها، ولا مجرما بالفطرة، كما أعتقد الناس، بل له حكمته من وراء الدم! من سريره يتابع وليد خطوات هذا الموظف المرتدي بدلة رسمية وهو يحمل حقيبته بقبضته بإحكام كأنه ممسك بالبلطة اللماعة المستقرة فيها ويتابع ظله الطويل. رجل هادئ ودقيق يدق قلبه بتسارع منضبط، عارف قيمة الوقت المتاح له. سيؤدي مهمته بصمت ويغادر دون أن يترك أثرا يدل عليه. يلتفت بحذر قبل أن يدخل باب العمارة عارفا طريقه رغم الظلمة كأي رجل احترف الليل. أين الجدار الذي سيقطع بصيرته؟ (خ...! أحاسيس! أين الأحاسيس؟ قال وليد وقد تذكر راسكولينكوف وتلك اللفتات الفالتة، بل حالة الغيبوبة التي أخذته قبل أن يرفع بلطته كأنه مقدم على جريمة حدثت أصلا. لم يصخب الدم في مخيلته حتى الآن فقد ركز كل ذهنه على الخطوات العملية لرجل يعرف أدق تفاصيل حرفته. تجنب الباب الأمامي دائرا حول العمارة من الطريق الخلفي الضيق الذي وجدت فيه قبل أيام جثة شحاذ ميت، وحين غمرته ظلمة المساء في سلم الحريق الطويل الخافت الإنارة تذكر إنه سيقتل ضحية جديدة

في الساعة الثامنة والنصف مع نشرة الأخبار المسائية. كيف استطاع أن يخدع العجوز الفضولية بالابتسامة الودودة ويتحاشى سؤالها بخطوتين واسعتين (هذا رجل الحكومة بالتأكيد!) وفتحت باب المصعد؟ أما هو فقد واصل الصعود عارفا طريقه تماما، بل يعرف وضع الضحية التي أدارت ظهرها إليه غارقة في الوهم الروائي الذي أخذها بعيدا عن المكان، وصوت خطوات الرجل الذي توقف عند باب البيت دون أن يتلفت عارفا بالضبط الباب الخشبي الوحيد الذي لم يدهن منذ زمن والعتبة القذرة لرجل أعزب ومهمل. لم يبحث طويلا عن المفتاح المناسب، فقد أدخله بهدوء وأداره مثل قبلة مختلسة، وبخفة قط دخل الممر مزيحا ستارة الباب مائلا بكتفه قليلا وقد استدار في الممر ليدخل المطبخ فضايقته رائحة الصحون المكدسة لدرجة إنه بالكاد وجد مكانا نظيفا ليفتح حقيبته ويخرج البلطة من المنديل الأبيض الذي يلفها.. آنذاك بدأ يشم رائحة الدم ويتحسس بطرف لسانه طعمه المالح ويتحسس بعظام كتفه رجة البلطة النائمة في قبضة يده بإحكام وهي تصدم جسد الضحية ثم حرارة الدم وقد غمر شفرتها الهادئة اللمعة صاعدا بحرارته على طول يده حتى صدره. تجاوز غرفة الجلوس متحاشيا الصحف المفروشة على أرضها واقترب أكثر من الحائط فلمح لأول مرة ظهر ضحيته أو ركبتيها والشعر السبط الأسود الذي يكاد يغطي رقبة نحيلة بيضاء.. أيضرب من اليمين؟ وكيف سيتحاشى مصباح المطالعة؟ وحين اقترب أكثر رأى صفحة الورق الأبيض وعليها جملة واحدة (لليوم الثالث) تنتهي بخط يشبه جناح طائر.

* * *

حاول الناس بأعصابهم اختصار هذا الليل الطويل فتركوا كل

أضواء البيت مُنارة لتبديد بقع الظلام بانتظار النهار الواضح الأمين. لكن السفاح باغتهم بارتكاب جريمته الجديدة في وضح النهار وفي ساعة عودة الأطفال من مدارسهم تاركا قدور الغداء تغلي لوحدها حتى فاحت رائحة الشواط، وحقائب الأطفال المدرسية عند باب البيت والوالد الموظف العائد من عمله لم ينزع حذاءه بعد .

مخاوف الناس من هذا الشر المطلق زادت من إحساسهم بهول الفراغ الذي تركه غياب العقيد:

- ينبغي لأحد ما أن يأخذ مكانه ليوقف هذا الرعب!

- لديه شقيق في فرنسا يمكن أن يحل محله؟

- مجنون إذا ترك شقته الفخمة في شارع الشانزلزيه وحفنة النساء الشقراوات من أجل هذا البلد الخرب.

- زوجته ما تزال شابة وقد تعلمت في القصر من خلال طبع البيانات ومقابلة السفراء.

- سيهيج العسكر ذوو الشوارب الطويلة: أليس في البلد رجال حتى تحكمنا امرأة تعطل الدولة حين تأتيها العادة الشهرية.

.. ومع ذلك لم يظهر أحد إلى الواجهة بعد رحيل العقيد و بقيت دوائر الدولة شبه معطلة حيث ينام الموظفون في دوائرهم بعد أن أضناهم سهر الليل، وإذا صحوا يمطون أحاديثهم عن السفاح وفوقهم إطارات فارغة تنتظر صورة الرئيس الذي لم يظهر بعد.

- ليأت السفاح إذن ويحكمنا بنفسه إذا كانت عنده فعلا رسالة يريد تبليغها.. سنعطيه الولاء إذا أعطانا الأمان!

* * *

خلال ذلك بقي القائد العام متواريا عن الناس بعيدا عن القصر الجمهوري الفاره، لا تفارقه بدلته العسكرية السوداء و بسطاره الطويل، غارقا في ملفاته الأمنية يدققها طول الليل، وفي النهار يخطو خطوة حذرة نحو سلطته.. فقد وضعوا بين يديه أشياء كبيرة لا طاقة له بها: جبال يجول فيها عصاة يحصدون رباياه واحدة بعد أخرى، صحارى واسعة تتمدد وتسف رمالها فتأكل ما تبقى من الخط الأخضر في هذه البلاد المنحوسة، سدود تتآكل، خزائن توشك أن تفرغ، ديون دولية تتراكم أرباحها فتفوق قيمها الأولى مرات، بنايات ووزارات ضخمة فيها آلاف الموظفين النائمين على كتب الدولة، ألوية دبابات ومعسكرات تنتظر فرصة ضعفه لتتحرك ضده. لم يكن مبهورا بما امتلك، إنما خائف لا يعرف ماذا يفعل بكل هذه المصائب. الخيانة كانت هاجسه الأول والأخير، وما يخيفه فيها كونها كامنة في أقرب الأماكن إليه، بل في الأجهزة التي يفترض أن تحميه، ولذلك بدأ بالشك بأمانة أجهزة الدولة القديمة.

تجارب الصراع في الشارع علمته أن يعالج خوفه بالمباغتة.. يخرج مع حراسه ذوي النسور التي يتدفق منها اللهب لتطبيق القرارات بأنفسهم بإحالة عسكريين كبار على التقاعد والقبض على أناس مشبوهين. لم يكن منشغلا بجرائم الشبح فقط إنما أراد أن يبدأ عهده بإشعار الناس بواقع جديد يختلف كليا عما سبق. ولم يكن يبحث في دخيلته عن أسباب معقولة لقراراته، لأنها ستكون عرضة لجدل يضعفها، بينما السلطة بالنسبة له إثبات وتحد. كلما كانت القرارات غامضة ومباغتة زادت هيبتها في عيون الآخرين.

الجديد كان هاجسه الدائم لمفاجأة الناس حيث لم يتوقعوا.. وبهذا الهاجس ألغى كل المناصب الوزارية والوزارات وكون مجلسا استشاريا من خمسة يقيمون في مكاتب تتنقل حيثما تنقل لأن ذلك يتيح له متابعة القرار من طاولته حتى التنفيذ بدلا من أن يضيع في أروقة الوزارات الموزعة المتباعدة. وطوال ذلك بقي متواريا عن الأنظار يدير الدولة من كواليسها تاركا لمخيلة الناس الهائجة أن تأخذ مداها كاملا.

* * *

- هل أنت حذر؟
- جدا.
- هل تكره أحدا؟
- الذين يسيئون لي.
- هل لديك أي نشاط سياسي؟
- أبدا، فأنا موظف بسيط لم أتدخل في السياسة يوما ولم أشارك في مظاهرة ولم أدخل السجن.. سجلي أمامك، وهو نظيف تماما كما ترى، أكره السياسة لأنها تفرق الأخ عن أخيه والصديق عن صديقه، ولأنها تبدو لي أحيانا مثل وحش يأكل أبناءه.

يتوقف وليد قاطعا الحوار، فالمشكلة تكمن هنا، في هذا السباق بينه وبين الوقائع التي تجري فعلا.. لا يدري أيهما الأسبق: هل يكتب عن أشياء وقعت فعلا أم إن ما يكتبه يتحقق لاحقا في الحياة؟ يؤول ويصنع أحداثا وأبطالا من مخيلته أو من قراءاته للتأريخ. يكتب بضمير الغائب ويختفي وراء راوية من التأريخ ويصرف كثيرا من الجهد لكي يغرب الوقائع الفعلية وفي ذهنه دائما ذلك المحقق الذي يحاسبه على كل

جملة ورمز ومعنى. ومشكلته أنه يحب الكتابة عن الأشياء الأكثر ألما ومباغتة للمنطق:

ما علاقتك بشبكة الجاسوسية؟

مجرد بضعة سطور أراد بها أن يفتح شهية الكتابة، ولكن فجأة توقف وليد عن الكتابة وقد أحس بلمسة على كتفه (قف قف! أين أنت ذاهب يا أحمق؟). من مصباح مخاوفه المرتعش الفتيل انبثق ذات الرقيب الذي يحمل دفترا من الجلد العتيق ليسجل الكلمات المريبة. يشعر بتواتر أنفاسه خلفه وهو يقرأ الكلمات من وراء صماخه. انشغل وليد به أكثر من موضوع الكتابة.. يراقبه ليعرف كيف يتابع كلماته ويؤولها فيرى نفسه بعينيه ويوشك أن يفقد نفسه وهو يناوره.. يتتبع النية التي لم تكتب بعد فيصدقها باعتبارها نيته...توقف في منتصف الصفحة وقد تأكد أن الآخر هو الذي يكتب وليس هو. ترك أوراقه دون أن يقرر وارتدى ملابسه على عجل، إلى البار والشلة الثابتة حيث يحول شحنة روحه إلى أحاديث شاكية.. تذكر أنه لا يطمح لأن يصبح بطلا، فالبطولة آخر طموحاته. على العكس، خوفه هو الذي يدفعه إلى موضوع الخوف وتجسيد صورة الخائف والمخيف:

- وما علاقتك بالسفاح؟

- علاقتي؟

- نعم دمغات إصبعك تؤكد إنك كنت هناك أثناء حدوث الجريمة وكذلك سيارتك المرقمة ٢٧٠٠٠٨١بج...

وهكذا يعد وليد هجومه ودفاعه في وقت..يريد أن يوصل الحقيقة حتى نهاياتها السوداء ثم يختفي وراء راو من مكان وزمان آخر.

- إذا كانت كل هذه الدلائل واضحة ضدي، فلا بد من الاعتراف بأنني هو بالذات؟

-...

- نعم! بضربة طبر واحدة، ثم أبدأ بتقطيع الجثة هكذا.. قطعة قطعة مهشما العظام بالمنشار...

-...

-لا ليس دفعة واحدة.. سأحتاج لاستراحة عشر دقائق، لقدح ماء بارد وتدخين سيجارة، ثم أبدأ بالضحية الثانية... وهكذا....

توقف وليد فجأة في وسط الشارع، ينظر حوله قبل أن يعبر الشارع، باحثا عن شخص يتابع سياق مخيلته، ويأخذ من الآخر ريبته وخبثه (قف يا وليد! أنت ذاهب إلى هلاكك بسرعة!)

-من هو المتهم، ومن هو المحقق؟

- أنا نفسي لا أعرف!

- سأقول لك من هما.. تريد أن تقول إن السفاح موجود داخل المواطن العادي، وما يحتاجه لتنفيذ الجريمة هو الشخص البارع الذي يخرج السفاح من الموظف المطيع الذي يفعل تماما ما تمليه الدولة.

- إني أكتب عن زمان آخر ومكان آخر كما ترى...

- قديمة!

- لا أقصد...

- عدنا إلى نقطة الصفر.. للمرة الألف أقول لك بأن هناك من لا يقرأ ما تكتبه بالبراءة التي تدعيها.. هناك من يضع علامة استفهام وتعجب حمراء فوق كل كلمة..

- إذن سأقلب المعادلة و الموضوع.

-..

_اجعل المتهم في موقع المحقق.

- لن يتغير شيء.. بل إن الإدانة ستكون أقوى في بلد يكون فيه السفاح محققا..

توقف وليد لحظات وسط الجسر وقد تعب من الهجوم والدفاع. سيخفف من مباشرة الموضوع بالتركيز على التفاصيل. ما الذي يضيره لو إن المحقق والمتهم تعبا من السؤال والجواب وخرجا في نزهة.. السيارة ستنزل من السدة الترابية التي تلي المعتقل فتنفتح المدينة.. غروب وسحاب متقطع والوقت بداية صيف، ثم؟ هل سيظلان صامتين أمام سحر الطبيعة؟ بماذا سيتحدثان إذن؟ لم لا يترك الموضوع كليا، ويكتب عنها بالذات، عن هذه المرأة التي جاءت إلى شقته سكرانة مع صديقه اللدود قاسم فنجان:

- لابد أنك أكثر جنونا منه لكي ترافقيه؟

شربت نصف زجاجة الفودكا في أقل من ساعة، وقالت بصوت عال إنها جاءت من الخارج لتحقق لهذا البلد السيئ الحظ شيئا لا تعرفه، وغادرت دون أن تشكره. جمالها الوقح وصوتها الذي حشرجته الفودكا والتدخين وجرأتها وهي تغادر الشقة دون كلمة شكر أو وداع.. كل ذلك ختم في داخله بكلمة واحدة: هي!

كأنه كان يبحث عنها وهي تسير نحو القيامة سكرانة بحريتها الواهمة وحلم يراودها بإنشاء واحة وسط الجحيم ؟

* * *

حين أغلق (الدكتور أكرم نور الدين) التلفون بقي يدور في غرفة الجلوس الرحبة، يسترجع الصوت الواضح الدقيق:

- الرئيس يريد أن يراك!

يسترجعه بتكرار دون فكرة.

بأناقتها المفرطة التي لا تفارقها حتى وهي داخل البيت تتابعه زوجته دون توقف:

- حذار من أن ترفض أو تتردد بحجة المثل! تستطيع أن تفيد وتستفيد من موقعك.

لم يكن الدكتور مترددا بين نعم ولا، ولم يكن المنصب مفاجئا، فقد عاد من الدراسة في روسيا التي خيبت آماله ببيروقراطيتها الثقيلة وسوقها السوداء والرشوة التي حصل بها زملاؤه على شهاداتهم دون جهد. لم يفارق أفكاره نهائيا، فقد ركن لفكرة أن النظرية بحد ذاتها صحيحة، ولكن التطبيق أساء إليها. وكانت أفكاره مدخله للصعود.. و قد هيأ نفسه لمنصب كهذا عندما نشر فصول إطروحته (دور الصحافة المرئية في العالم الثالث). جوهر ما قاله إن الصورة أكثر تأثيرا من الكلمة في بلد تعاني غالبية سكانه من الأمية. بسخط وإحساس موجع بالضيم كان يراقب التلفزيون ويهتف لمن حوله:

- بلادة..ساعة كاملة لحديث ديني مع رجل أعمى!؟ لم الصورة إذن؟

- هذه لغة صحافة؟ التلفزيون يعتمد على جمل قصيرة!

- يجهلون الفرق بين التلفزيون والراديو.

- أين المكان والزمان؟

ملاحظاته النقدية الحادة تترافق دائما مع إحساس عال بالضيم لأنه ليس هناك في الموقع المناسب. بمقالاته كان يبحث عن رجل دولة يقدر موهبته وكفاءته. والدولة، بغض النظر عمن يقودها، كانت هاجسه الدائم. ويبرر ذلك بالاحتراف الخارج عن السياسة. سمع انتقادات رفاقه بالسجن وسخر منها معلقا بأن السجن فصلهم عن سياق الواقع وأبقاهم مع المثل المجردة التي تشبه الدين. ومع ذلك كان وجودهم في الزنازين العائق الأخلاقي الذي يمنعه من قبول المنصب بسهولة. ودون أن يقول نعم أولا فكر بإقناع الرئيس الجديد بإطلاق سراحهم وبدء صفحة جديدة تجعل مهمته أسهل. طوال الطريق فكر بطريقة لبقة يستطيع بها طرح الموضوع.. سيسحر الرئيس بلباقته وعذوبة منطقه حين يمتدح أولا مجيئه كبشارة بعهد شاب لدولة توشك أن تشيب مع قادتها الشيوخ، سيؤثر عليه من مدخل شخصي (تذكر يا سيادة الرئيس أنك بدأت حياتك السياسية بالسجن وذقت عذابه ولا بد أن الإحساس بالضيم رافقك حتى اليوم.. لماذا لا تعطي الآخرين فرصة ليتلمسوا قدرتك على الإنصاف.. خذ المفاتيح بيديك وافتح تلك الأقفال بنفسك وسنسجل بالكاميرات هذه اللحظة التاريخية لك وحدك.. كان منطقه وهو يحدث نفسه من القوة والوضوح بحيث رأى دموع الفرح في عيون الرئيس واغتبط قلبه معه... حين وضع قدمه على عتبة القصر قرر تأجيل الموضوع (لا يمكن إصلاح كل شيء مرة واحدة).

كان الرجل مستعدا بانتظاره حين دخل عليه وقد دوخته الممرات وتحيات الحرس وسعة الصالة، وقبل ذلك فكرته عن الرجل الذي تقدم ومد يده إليه:

- تأخرت عليك.. ولكنك لم تفارق بالي أبدا، فأنت الوحيد الذي سيعينني بين هؤلاء الشيوخ المحيطين بي والذين تقطر ألسنتهم تزلفا بينا تتوسل قلوبهم عودة الملك من منفاه.

-...

- لا تقل لي عنهم، لدي ملفات سميكة عن دسائسهم و خياناتهم ورشاواهم.. لو تعرف كم أكرههم وأكره القدر الذي فرض وجودهم الثقيل على قلبي. أتعرف لماذا لم أخرج حتى الآن؟

-...

- خجلا من الناس الذين كرهوا تكرار الوجوه ذاتها، خائفا من ذاك الشك القديم وسوء الثقة المتأصل، وأكره ما أكرهه هو نصائح شيوخ السياسة الذين يدعون بأن أسس الثقة ستبنى ببطء.. حجراً حجراً.. لا أملك هذا الصبر وأعول على المعجزة، ولذلك دعوتك لنعملها معا!

خرج الدكتور من القصر مخذولا لأن الديباجات الطويلة من الأفكار والجمل المؤثرة التي جهزها لم تجد فرصة لتفرض سحرها، فقد تصرف الرجل وكأن القبول قد حصل وجهز نفسه للعمل.

* * *

حال غروب الشمس بدأ التلفزيون يكرر على الناس:

- سنذيع عليكم بعد قليل بيانا هاما!

بقي الناس مسمرون ساعات وساعات وقد هدت أعصابهم النبرة الثابتة الغامضة الشديدة الاختصار للبيان:

- بعد قليل سنذيع عليكم بيانا هاما!

وفي آخر الليل بدأ المارش العسكري ذو الطبل والأبواق وازداد

تواتر التقديم الثابت:

- بعد قليل سنذيع عليكم بيانا هاما...

ثم فتحت الصورة على رجل طويل يرتدي بدلة سوداء وعلى كتفه نسر يتدفق من منقاره الشرر ينظر لمشاهديه من مكان عال وفمه مزموم يوشك أن يقول حكمته الكبيرة. بدأت الكاميرا تنزل تدريجيا فظهرت أولا يده اليمنى القابضة على سيف مسلول ثم الى تحت حيث ظهرت يسراه القابضة على شعر رجل مطرق لا يظهر منه شيء ... نزلت الكاميرا أكثر فبانت ساقان طويلتان مفروجتان وبينهما رجل راكع على ركبتيه والاثنان يقفان كما النصب الثابت على منصة عالية من الغرانيت الأسود. اقتربت الكاميرا من المشهد ومن وجه العسكري:

- هذا هو الشبح الذي أرعبكم!

ذهل الناس حين اقتربت الكاميرا من وجه ريفي نحيل لا يتميز عن وجوه الناس المألوفة إلا بأنف طويل مستدق وعينين غائرتين. ارتعشت جفون الشبح والتوى فمه ألما حين شدت قبضة الرجل الواقف شعره لتمد رقبته... ابتعدت الكاميرا حين ارتفعت اليد الممسكة بالسيف عاليا نحو السماء ثم نزلت قوية على شكل قوس بحيث ضاع السيف من المشاهدين وغمرت الشاشة لمعته تحت الإنارة الساطعة ثم انكشفت الصورة عن الرأس الذي قطع السيف صرخته وأبقى فمه مفتوحاً وعيناه جاحظتين.

وسمع الناس لأول مرة صوت قائدهم الجديد وهو يقول:

- انتهى السفاح. ناموا الليلة بهدوء ولتخرجوا صباحا للفرح!

قالها دون غرور ولا ابتسامة فرح واختفى وراء العلم الوطني.

* * *

منذ الصباح الباكر بدأت الشاحنات تتدفق على العاصمة من المدن

القريبة و أحزمة الصفيح المحيطة بها. وأمام المعامل والدوائر الرسمية والمدارس ومداخل الأسواق بدأ تجميع الناس استعدادا ليوم النصر.. وبسرعة نموذجية وزعت آلاف الصور للقائد الجديد رافعا سيفه علامة النصر وباليد الأخرى رأس السفاح الذي تقلصت ملامحه من ألم الضربة ومن الصرخة التي لم تخرج... في الساعة التاسعة والنصف تماما، ووفق الموعد المقرر بدأت الجموع تزحف خلف نداء الهتافين:

- يا منقذنا من السفاح، نبدأ عهدك بالأفراح!

ما كان الناس بحاجة لمن يرشدهم، إنما عرفوا بالسليقة أين سيتجهون وماذا سيشاهدون هناك: ففي بداية الشارع المؤدي إلى القصر وضعت سرادقات عرضت فيها الأدوات التي استخدمها السفاح، البلطة التي يبدأ بها ضربته، سكاكين لتقطيع اللحم، مناشير لتقطيع العظام، حبال وكمامات وخطافات ورشاشات تخدير ومفاتيح... كلها صفت على طاولات طويلة مغطاة بشراشف بيض . على الجدران صور تفصيلية للجرائم: امرأة عارية منفوشة الشعر تمددت ساقاها على البلاط وسط بركة دم، طفل معلق بمروحة سقفية من يديه وفي فمه رضاعة، رجل مقطوع اليدين وضع عضوه في فمه، رجل آخر طوي داخل مكنة الغسيل، ويد مفتوحة الأصابع وضعت في مزهرية، رأسان مقطوعان يقبلان بعضهما.. مخيلة جهنمية صنعت ديكورات الموت ببرود يثير الغيظ...وعلى الجدار المقابل صفوف طويلة من صور المجرمين وبعض من اعترافاتهم بخط اليد. وفي النهاية صورة الخلاص التي يظهر فيها القائد الجديد ممسكا بالسيف ورأس السفاح. خارج السرادق وعلى طول الشارع المؤدي الى القصر كانت جثث المعدومين قد علقت كما في كل مرة،

جثتان على كل عمود كهرباء. كل شيء كان واضحا حد البذاءة.. فتحت تلك الشمس الساطعة والنهار البسيط، لم تكن هناك غمامة ولا سحابة في السماء تعطي للمشهد شيئا من الغموض الضروري للموت. بل إن الموت أعطى التفسير النهائي لما حدث، فبعد هذه الجثث الرمادية الداكنة المعلقة عارية تحت سماء واضحة لا مجال للتساؤل حول صحة ماقيل.

كانت الهتافات خلال المسيرة تجرف الأسئلة والترددات:

- يا منقذنا من السفاح، نبدأ عهدك بالأفراح!

ورغم الطبول والراقصين وزغاريد النساء لم يبد على الوجوه ذاك الفرح الذي يتحدث عنه المذيع في التلفزيون وهو يصف المسيرة، إنما نوع من العصاب هو بين الإغماء والهلوسة.

وبعد أن يأخذ الحشد الدوار وهو يقطع ذلك الشارع العريض الذي علقت الجثث على جانبيه تنفتح الساحة على القصر. وعلى شرفته وقف الرئيس الجديد يحيي الحشد. من موقعه العالي البعيد يصعب تمييز ملامح وجهه، ولكن قامته الطويلة بدت أطول وهو يرفع يده محييا الحشد والعلم يخفق خلفه.. يرقب الحشد الذي قطع شارع الموت كله حتى وصل إلى هذه الساحة ليهتف له بامتنان:

- يا منقذنا من السفاح نبدأ عهدك بالأفراح!

.. كل هذه الآلاف المؤلفة، التي تسيل تحته وتهتز مثل حقل من الحنطة حالما يرفع يده بالتحية جاءت له.. لقد تركوا دكاكينهم الصغيرة وكراسيهم وطاولاتهم في الدوائر وكتبهم الدراسية وماكيناتهم المتوقفة عن العمل، بل وحتى أطفالهم وزوجاتهم الجميلات.. تركوا كل ذلك وجاءوا إليه.

- بدأت أحبكم.

قال بهمس مسموع، وعجب من مخاوفه السابقة، حين كان مرافقا للعقيد، لديه يقين ثابت بأن قاتلا يده على الزناد مختف دائما خلف هذه الوجوه الودودة المتملقة.. إنهم أبسط وأطيب مما تصور:

- أنظر أنظر لتلك العجوز التي تقفز وسط الساحة كطفل.. ليساعدها أحد قبل أن تصرعها الشمس!

حائر كان بين أن يلم الحشد حتى نهاياته بنظرة بعيده وبين التفاصيل الصغيرة المؤثرة الضائعة، بين أن يرفع يده بالتحية، أو أن يلم بالمشاهد. وبغبطة طفل التفت إلى يمينه:

- شكرا على كل ذلك!

- على ماذا ؟

- على هذه المعجزة!

قالها معتذرا على سوء ثقته بالرجل الذي أعد التهيئة الإعلامية لظهوره.. لقد أبدى كثيرا من الصبر والتحمل ليلينه ويعيده أمام كاميرات المصورين التلفزيونيين الذين يطلبون منه أن يقف بترفع أكثر وأن يرفع كتفه قليلا مع صعود السيف ويبقي عينيه مفتوحتين أمام الإضاءة الحادة.. قليلا من الغضب وعافية البطل... واحد أثنين ثلاثة.. وينزل السيف... تنرفز وشتم كلما أعادوا التصوير من البداية.

كان الدكتور أكرم نور الدين سعيدا بالإطراء، سعيدا بدهائه لأن الأمور تمت تماما كما قدر. فرحه هذا غير صورة الرجل الواقف في المنصة بجانبه.. فقد تلاشى ذلك القرف من حركاته الفجة وصوته العالي وهو يتحدث عن أمور ينبغي أن تقال بهمس. لقد أصبح ذلك ثانويا إزاء هذا

الطفل السعيد بمعجزته.. بين يدي الآن تلميذ طيع يملك قامة طويلة مشدودة العضلات وإرادة عملية لا تعرف التردد.. سأصوغ من خلاله شكل الدولة. ما أحتاجه للنجاح هو المديح.

- المعجزة معجزتك يا سيدي! فكل هؤلاء جاءوا من أجلك.

* * *

قليلون عرفوا الرئيس الجديد (عبد الوهاب المولى) عند ظهوره في التلفزيون، فقد تحركت ذاكرة الناس بسرعة: (أين رأيناه أين)؟ يأتي إلى نقطة بين الحاجبين أكيدا ومشكوكا فيه. حاولوا أن يجدوا له مكانا بين حشد القادة والوزراء الذين عرفوهم من قبل... لكنه يفلت نحو حلم مشوش لأن فيه شيئا جديدا يختلف عن الصورة المألوفة للقادة الذين تناوبوا على الدولة. من ذلك الظهور السريع تفاوتت آراء الناس. المراهقات استبشرن به:

- على الأقل سيتاح لنا أن نرى في نشرة الأخبار رئيسا شابا بدلا من ذلك العجوز الأدرد.

واستبشر العاطلون في المقاهي وقد تذكروه:

- لأول مرة سيصعد إلى الرئاسة جليس مَقَاهٍ جرب العطالة.. سيهتم بنا بالتأكيد.

- أما المحاربون القدامى فقد لفت انتباههم خلو كتفيه من الرتب:

- إلى هذا الحد تدهورت الأمور؟ أصبحت الانقلابات لعبة من هب ودب.. سيشهد الجيش خاتمة انحطاطه على أيدي هؤلاء الصبية الذين لا يتقنون حتى التحية العسكرية!

لم يكن القائد الجديد غريبا على وليد المقرفص على سريره ملتما

بانتظار أن تكتمل في ذهنه صورة المخلص. أراد أن يوصل خوف الناس إلى منتهاه مستنفذا مخاوفه هو بالذات. مخاوفه مما يتخيله وما يوشك أن يكتبه، ومخاوفه مما يحدث فعلا. الخوف كان شاغله عن المخلص وقد أراد أن يسلب الخائفين آخر قطرة من إرادتهم بانتظار المعجزة. من التاريخ خرج المخلص له في صورة رجل كفر مجتمعا كاملا بحاكميه ومحكوميه، فترك المدن لفسادها وسكن مغارة في الصحراء. تصوره كما الأنبياء يرتدي ثوبا لم يدخل فيه خيط خياط ونعلا من جلد ماعز يشرب حليب عنزته ويجوب شعاب البرية آكلا الشعاف البري الذي أدمى شفتيه. إليه جاء الناس من مدنهم طالبين الخلاص. وكان قد جمع الصبر والقسوة وهو يردهم عنه:

- لا يكفي هذا العذاب لغسل الذنوب، وعليهم أن يذوقوا المر حتى منتهاه...

حين هم وليد بالكتابة وجد الأمر أكثر تغريبا مما أراد ولذلك أراده منبثقا من حاجة الخائفين ومخيلتهم:

يقطع الأب مزاح أولاده بصرخة:

- ليس هذا موضوعا للمزاح، فللرجل حكمته من خلال الدم.

- ليأت السفاح إذن ويحكمنا بنفسه إذا كانت عنده فعلا رسالة يريد تبليغها.. سنعطيه الولاء إذا أعطانا الأمان!

وحين ظهر القائد الجديد في التلفزيون ممسكا رأس السفاح قفز وليد من فراشه ساخطا:

- لقد سرقوا فكرتي.

* * *

هذه أقدامهم آتية على السلالم، خطواتهم موحدة وبطيئة وخناجرهم مسنونة، وبيد واحد منهم، هذا الذي يشبه فريد شوقي، الجنين المذبوح، سيلقونه أمامها على البساط:

- هذا هو ابنك!

لم ترفع الصبية المكبلة بالحديد في زاوية الغرفة رأسها حين سمعت خفق النعال ودبات أرجلهم على السلم. تسلل إليها ضوء حاد من الباب الذي فتح فطارت الأبالسة تاركة زغبها المتطاير في عمود الضوء ورأت قدمين آدميتين.. إنه أخوها جواد.. شادا بقبضة يده على السكين المخفي وراء ظهره (يخدعونني.. ليس هذا جسد ابني، ولم تكن الصرخة صرختي حين ولدته. إففففففف. هذه ليست رائحته. خذوه! هذا ابنكم أيها الأبالسة)! سمعت صوت جواد وهو يبسمل ورفعت رأسها قليلا فرأت قبضة يده مشدودة. لم يكن الخنجر في يده، لابد أنه آت ليخنقها بالحبل بين يديه.

- ليسامحني الرب إذا أسأت إليك، فأنا ذاهب قربه

ويرتجف جواد مع رجفة أخته العليلة:

- يا من أظهر الجميل وستر القبيح، يا من لم يؤاخذ بالجريرة ولم يهتك السر والسريرة...

كان يعتذر من الرب وهو يعتذر من أخته، فقد اتخذ قراره في النهاية دون أن يستخيره، لم يرد التوقف حين صده أخوه أحمد في الممر بين البيت والجامع:

- أنت تخالف وصية والدنا بتجنب التورط مع الأكابر والأعلام...

- ومع ذلك لم ينج منهم.

- ستقود نفسك، والأكبر صحابك، لتهلكة لا يقبلها الله.

- صحابي يتهمونني بالتسويف حتى ظهور المهدي. سأذهب معهم لنحارب المنكر بأيدينا، ولك أن تحاربه بلسانك وقلبك.

حين وقف الشقيقان قبالة بعضهما أدركت الحاجة صحة ما قاله المرحوم، فالكبير حسني كوالده وجل مريديه من التجار ذوي الوجوه البيض المدورة واللحى المشذبة، يحبون سماع الحديث والتبرك على يديه، يتحاشى الطعن بالسلطة وشرعيتها حتى لو جارت خوفا من الفتنة مفضلا التمسك بالتقية منتظرا ظهور المهدي تاركا لله معاقبة الظالم، على عكس الصغير الحسيني المزاج والميال للغضب والثورة والتحدي. يعرف الصغير ضعف حجته مقابل قدرة شقيقه على الجدل والصبر. لذلك ركب عناده دون أن تعنيه قناعة الآخر، بل هو غير قادر على الانتظار ليتأكد من ثبات اعتقاده، ولا يدقق في تبعات قراره:

- ليس لي صبر سيدنا أيوب!

بكت الوالدة دون أن تتوسل:

- ما من فائدة!

قالت لزوجته وهي تدفعها بعيدا عن يديه، فهي أعرف بالطفل العنيد المختفي في جبة الشيخ ولحيته وعمامته. كانت تلوم الوالد في حياته لأنه يأخذ الطفل الذي لم يتجاوز العاشرة من أزقة اللعب ليدفعه إلى مجالس الكبار ساهرا مع ذبالة الفانوس والرجال ذوي اللحى الطويلة الذين يتحدثون في النحو والأمالي والتفاسير والفقه. وكان يتعثر بخطواته من النعاس وهو يرافق بالفانوس آخر ضيف منهم. في الثانية عشرة من عمره لبس العمامة وبدأ يصلي الجماعة خلف والده

ويرتاد معه مقابر الموتى. لقد بقي الطفل المختفي فيه محاصرا متوترا، يحب بتطرف ويكره بتطرف. يغضب حد الكفر ثم يبكي ندما من الحب.

حين اتخذ قراره كان مرتبكا لا ينظر في عيون المتوسلين. لكنه لم يكن خائفا، فالأعمار بيد الله، وما دام قدره مرسوماً مسبقا فقد قرر أن يتابعه طائعا بعد أن ألقي القبض اليوم على عدد من مريديه. ولذلك ذهب الى الجامع وصعد المنبر مرتديا كفنا. ما يقلقه إحساس راعش بالذنب لأنه عذب الصبية أكثر مما تحتمل، ومع ذلك لم ترد عليه ولم تقاومه. و كما أمرته أمه قرر أن يروض روحه بمزيد من الصبر حتى تبدي شيئا من اللين وتنام على يده قبل أن يودعها. وحين مد يده إليها:

- سامحيني فأنا ذاهب!

التمت في الزاوية وصلصلت سلاسلها وشخرت كأنها خنقت فعلا. صرخة المرأة الطويلة ما تزال تترجع في آذانها، والدور دورها هذه المرة والكل حولها غافلون.. أمها المبسملة الممسكة بصينية الطعام، وأختها التي استمرت تغزل وهي لا تدري إنها تغزل صوف إبليس، وهو يتقدم ببطء حتى يوشك أن يمسها بقميصها الداخلي الأبيض:

- هووو، هووو...

* * *

عادت ياسمين إلى البلد وقد تجاوزت الخامسة والثلاثين بعد أن بددت نقودها في دراسات سهلة : الفلامنكو وتصميم الأزياء والديكور وإدارة المطاعم. وبددت حياتها في علاقات حب فاشلة آخرها علاقة زواج من يوناني أدارت معه مطعما شرقيا في لندن. انتهت العلاقة حين بلع ما تبقى من نقودها وعادت إلى البلد رابحة كبرياءها وطموحها لأن تحقق شيئا لبلدها الفقير الخام يعوض خساراتها في الخارج.

أول ما باغتها حين عادت إلى البلد لون التراب الذي يغطي وجوه الشيوخ والشباب وزجاج النوافذ وورد الحدائق القليلة وطعام الناس وماءهم وسماءهم.. التراب يمسح الأشياء الجميلة بلون الخراب السائد. والمفاجأة الثانية هي القسوة التي تميز سلوك الناس الذين يتكلمون في الأماكن العامة بصراخ يصم الآذان ويتدافعون بقسوة خلال السير دون اعتذار غير عابئين بالأطفال والشيوخ والنساء. وحين توغلت أكثر هالها كثرة الشبان الملتحين والنساء المحجبات. وقد اعتقدت أن الحرمان وقلة وسائل اللهو وراء توجه الشباب إلى الجوامع في هذا البلد القاحل.. ومن هنا انبثق حلمها بإنشاء (واحة) تجمع الثقافة والمتعة لشباب البلد المحروم. شرحت فكرتها للوزير مستعينة بصور وبرامج مقاهي باريسية وكاليريات شهدتها في لندن... فكانت المفاجأة أن الجهات الرسمية العليا وافقت على الفكرة دون تردد:

- منك الفكرة ومنا المال، والواحة واحتك!

اختارت مزرعة مهملة تقع على اللسان الذي ينعطف عنده النهر وأقامت مركزا صممه أفضل معماري في البلد على شكل رواق إسلامي في صالته الكبيرة جدران للعرض ومسرح صغير مفتوح، وأمامه باحة تحيطها عرائش مفصولة تظلل كلا منها طاولة ستجمع عاشقين. في وسط القوس دكة دائرية يجلس عليها عازفون مختارون.. مرتان في الأسبوع للموسيقى الشرقية ومرتان للموسيقى الغربية الهادئة. وفي موقع يشبه الإيوان مقصف يمكن لشبان البلد المحرومين من المتع أن يلتقوا فيه لشرب البيرة الدرافت والتعارف بعد مشاهدة فعالية ثقافية. واختارت أجمل وأترف شبان وشابات البلد كمساعدين لها و دعت خيرة

مثقفي البلد والمعنيين بالثقافة لحفل الافتتاح. الصحافة أشادت بالمبادرة باعتبارها (أول واحة في هذا البلد القاحل)...عولت ياسمين كثيرا على البداية .. فكانت تقضي نصف الوقت تتصل بالمراكز الثقافية الأجنبية في البلد للحصول على أفلام وبرامج... ثم تترك غرفة الإدارة لتوجه العاملين إلى تنظيف الرمال التي تدخل من النوافذ وتغطي الأرض المرمرية اللماعة وترشد مساعداتها الجميلات إلى كيفية تعليق اللوحات ووضع باقة الورد في مدخل المعرض واستقبال المحاضرين.

وكلما انغمرت في هذا الجو الثقافي زاد إحساسها الغامض بأن في داخلها موهبة لم تكتشف بعد، وأنها تبحث عن رجل يفهمها.

* * *

وسط كتل الصخور البركانية التي تنتهي بقطوع حادة اتخذوا موقعا. و صلوا الموقع بعد مسير صعب تقيحت منه أقدامهم وحرقت الشمس وجوههم. وقد بدأ السيد بعد استراحة يومين اعتكافا يسبق صلاة الاستسقاء فحرم على مريديه معاشرة أو لمس امرأة خلال هذا الإعتكاف أو شم طيب أو ريحان أو ارتداء ثوب ناعم، وحرم عليهم الحديث في أمور دنيوية بهدف إظهار الغلبة والفضيلة:

-سيكون كل ذلك بطرا إذا نويتم، وعليكم خلاف ذلك دفع كفارة.

وبعد صلاة الاستسقاء فوق سطيحة عالية وقف السيد أحمد الحائري فوق واحد من الشعاب اتخذها منبرا وصاح في مريديه:

- ماذا تعرفون عني؟

- صادق ومستقيم كوالدك!

قال مؤذنه الأفغاني.

- صادق كهذه الشمس.
-صادق صادق.
- ستصدقونني إذا قلت إن خيل العدو طرقت هذه الشعاب العصية؟
- نصدقك.
-...وإن عساكرهم طرقوا هذا الفج؟
- سنصدقك ونكذب عيوننا.
- إذا سأطلب منكم البيعة، والبيعة واجب، فمن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية. و البيعة ليست كلمة تقال، إنما هي الطاعة، ومن بايع إماما فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ونازعه فاضربوا عنق الآخر. الطاعة، الطاعة وحدها ما أريده منكم، وأعدكم بأن أطيع الله. وإذا أطعتموني أطاعني الناس وقدموا أعز ما لديهم، أولادهم جنود في جيش الله، بيوتهم ملاجئ لمجاهدينا وأموالهم خمس وزكاة. كثير من الدم سيسيل، ولذلك أريد منكم الشهداء وسأعطيكم الجنة بعون الله.
لمرتين بكى السيد وأغلق باب الضعف بنداء:
- الله أكبر!
بدأوا ببناء مسجد حجري في شق ضيق بين جدارين، على بابه وضعوا قطعة قماش سوداء كتب اسم الله عليها بدمهم جميعا حين تعاهدوا على أن لا يفرقهم غير الموت لتلمهم الجنة ثانية.
- لن نغلب عدونا الظالم بين يوم وليلة، ولا في معركة أو معركتين، سنعمل ما عمله هذا النبع في الصخر.. فقد شق مجراه قطرة قطرة، ولذلك سأطلب منكم الصبر.

الشبان الصغار المتعطشون للشهادة ضاقوا من فكرة التأجيل والصبر:

- لن ننتظر ظهور المهدي!

- ستكون القيامة أقرب...

- سيستيقظ قبلنا ضابط ملول ويعيد دورة تموز من جديد ويتحتم علينا أن ننتظر جلاء الأمور من جديد.

مسؤولية السيد عن هذه النفوس الشابة الهائجة دفعته إلى الخوف والصبر. ولذلك شرح برنامجه:

- قبل أن نبدأ بتطهير المجتمع الجاهلي سنبدأ بتطهير أنفسنا هنا حيث لا حاجز بيننا وبين الله غير نياتنا.

فترة مغالبة النفس، كما حددها السيد، ستستمر عاما وبعض عام. خلالها زرعوا بالتناوب سطيحة بين الصخور ورعوا قطيعا من المواشي ونظموا وجبات الطعام في طقس من اشتراكية الحروب حيث يفتتح السيد كل وجبة ((باسم الله!)) فيرددون خلفه ثم يتقاسمون طعامهم بعناية بعد أن يفرزوا حصة المريض والحارس، ولن يفرطوا بالطعام كما أوصاهم السيد. الجماعة ترسم للفرد كيف يغتسل وبم يتوضأ إذا شح الماء وماذا يأكل من دواب الأرض وهوامها وماذا يشرب وكيف ينام. و لا مكان لمختلف بين الجماعة، فالمختلف كما حدده السيد تلبسه الشيطان وزين له الخلاف بدل الوحدة وهو من الخوارج . مغالبة النفس تبدأ بصلاة الغروب على القطع المطل على امتداد الصحراء حيث يكونون عراة تماما أمام الله، تصل دعواتهم إليه بلا فاصلة. بعد الصلاة يتقدمون واحدا واحدا ليجلسوا بين يدي السيد ويقولوا خطاياهم بصوت هامس بطيء حتى تشف أرواحهم ويصبحون أكثر استعدادا للشهادة.

السنة الثالثة من الجفاف دفعت موجات من الزاحفين من الوديان والمزارع التي غمرتها الرمال نحو حافة الماء قرب الصخور البركانية، حيث أقاموا قرى من جنفاص الإغاثة ومن الحجارة والصفيح سموها (بني لوعة).. متربون يخيلون تخفق الريح في الخرق التي تغطيهم، يلعب أطفالهم بسيقان نحيلة مرتعشة بين القبور. ينزل لهم السيد بعد صلاة الجمعة من الشعاب محاطا بمريديه وحراسه وهم يحملون منبر والده. من على المنبر وبعد أن يهدأ التكبير يتفحص ناسه المتربين، وعليهم ثيابهم الممزقة مثل جيش من عيدان الحقول. يبدأ حديثه إلى الحشد مستعينا بصوت والده وهو يرتطم بالصخور الجرانيتية السوداء ويعود إليه.. نفس الصوت ونفس الطريقة التي تتناوب بين السؤال وفترة الصمت ثم الجواب الذي يأتي لاحقا كأنه جواب المستمعين المتشوفين للنتيجة. كأنه يسمع والده وهو يعيد أحاديثه و يرسم بالكلمات صورة الإسلام في أيام زهوه في عهد الخلفاء الراشدين الأربعة حين توحدت القبائل والملل تحت راية الإسلام وحاربت لأجله، يوم كان الخليفة مختارا من رعيته ومحاسبا أمامها إذا خرج عن شريعة الله.. نزيها عالما، رقيقا مثل ريشة، حادا مثل سيف... من آخر القرى وأبعد الصحارى يزحف الناس الهاربون من سيول الرمال إلى حافة الماء. تترقرق الدموع في عيونهم من فرط التشوف، وهم يسمعون عن أجدادهم الذين كانوا يتقاسمون الرغيف على الحصيرة بين الفتح والغزو ويذهبون إلى المعارك خفافا كالغزلان وكيف كانت خزينة الدولة مكشوفة للجميع وللجميع حصة الحاكم مثل حصة المحكوم وما استلزم.

أحب السيد جمهوره البسيط الطيع مثل طفل، ولم يكتف بمن حوله،

بل أخذ عددا من مريديه وحراسه وحاملي منبره وراح يجوب القرى والبراري باحثا عنهم، مشيا على الأقدام مثل والده، يدخل الجوامع والمجالس مواصلا حديثه لهؤلاء الناس الذين صار لونهم كلون التراب. ذات يوم رأى بين اليقين والرؤيا وسط الغبار عجوزا منكبا على الأرض يحاول وسط الغبار أن يزرع فسيلة نخل. رفعه عن الأرض باكيا وقبل يده:

- أنت تفعل ما فعله النبي في الدين.

قبلة اليد هذه رويت في القرى والبراري كوعد بمعجزة. وكانت له نقطة تحول، فقد تغير السيد وهو يسعى لتغيير الناس، وفضل ضعف الجاهل على خبث العارفين من مريدي والده القدامى الذين كانوا يرددون خلف ظهره (صوت والده، ونفس طريقته وأحاديثه، ولكن بدون علمه).

يتغير صوته غاضبا وهو يتحدث عن عودة الجاهلية من جديد حيث الحاكم أفسد من رعيته وحيث أصبحت محلات بيع الخمور تفوق عدد الجوامع مرات، وفي البساتين والحدائق المجاورة للجوامع تجري ممارسة الدعارة مع نساء مخمورات خرجن توا من حفلات الرقص الداعرة في بيت الوزير المخنث الذي قبل يد امرأة نصرانية ووزير المال يبدد خزينة الدولة في كازينو القمار بينما يموت الناس جوعا وهم واقفون مثل عيدان القصب.

آنذاك تنفلت من الحشد تلك الأصوات الغاضبة:

- الله أكبر!

- السيف يا سيدنا!

يتفحص السيد وهو يخطب وجوه مستمعيه ويختار من بينهم قلة من (المنتسبين) ويترك الباقين جيشا من (المساعدين) بانتظار المهدي.

اتخذ السيد من المغارة المجاورة للجامع مقرا له وأقام فيها محرابا عبارة عن دكة عالية فرشت ببساط من شعر الماعز الخشن والى جانبه رف غطي بقماش أسود عليه شمعدان ومحمل للقرآن. و خلفه على الجدار صورة والده وقد ازداد الشبه بينهما.

إلى هذه الشعاب الواقعة على حدود الدولة يأتي المريدون بعد أن يمتحنوا صبرهم بعبور الصحراء الطويلة مشيا على الأقدام مع زوادة طعام وقربة ماء. يسقطون تحت القطوع من الوهن فيحملونهم إلى الجامع ليقطروا الماء في فمهم ويعالجوا قيح أقدامهم. عند صحوهم يذهبون للتبرك عند السيد بعد أن يخلعوا نعالهم عند باب المغارة ويبسملون وقد دوختهم الأخيلة التي يحركها ضوء الشموع ومصابيح الزيت والنار التي تتوسط المغارة: هنا لجأ الأجداد الهاربون من الوحوش ومن غدر الطبيعة والعالم المجهول فأعطاهم المكان الإحساس بالمأوى والغموض، والى المغارة والكهف لجأ الأنبياء المطاردون وفيها جاءت رؤاهم ومنها خرجوا إلى العالم لنشر الوحي الذي نزل عليهم. ولذلك يبدو لهم كل شيء فائقا للواقع.. يتربعون على الأرض قبالة السيد المطرق صامتين وقد تعطلت حواسهم بانتظار أن يفرغ من صلاته الصامتة الطويلة..ثم يفتح عينيه ويحدق بهم فتنحسر أبصارهم من الرهبة. يتحدثون عن فساد المدينة التي فتح فيها كازينو للقمار تتعرى فيه نساء شقراوات قطعة قطعة، وبينما يتساقط الجياع وهم يمشون في الشارع، هناك من يبدد الآلاف على موائد القمار دون أن يرف له جفن...شبكات القوادة للجنرالات دخلت إلى المدارس والجامعات وصبيحة الداكوكة صارت تخطف البنات قبل أن يبلغن سن الرشد وتأخذهن مخدرات لأسرة الرذيلة ... يستمع السيد متربعا على

الأرض ممسكا ركبتيه محاولا التسلح بالصبر وهو ينود من غيظه. يوقف محدثيه حين يبدأون بسرد التفاصيل عن مصائب الأمة وفسادها، معللا بأن كل ما حدث ويحدث على فظاعته مقرر مسبقا ومدون في كتاب الأحداث الجسام ((سيسيل الدم في السواقي، ويصل الفساد حدا يلوط فيه اللوطي بأخيه ويتدخل الأطباء الفاسقون فيما خلق الله فيحولون الذكر أنثى)). المصائب تثير لديه الغيظ بدلا من الخوف والإحساس بالشناعة.. فما يحدث عقاب رباني على هذا الفساد الذي شمل الحاكم والمحكومين. لا يبشر بالخلاص، حين يتحدث، بل بالويل وبالقيامة القريبة (إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) صد ق الله. يكاد يرى المشهد والنبوءة فيصرخ:

- لا يشفع لنا أن نتفرج على الفساد عن بعد ونتحاشاه بالتعاويذ، علينا أن نحمل فأسا للهدم قبل أن نبني مجتمعا للفضيلة، وستبقى الفضيلة ذليلة إذا لم تحمل خنجرا. ستكون صلاتكم هذه رديفة الزنى إن لم تحاربوا الفساد والطغيان.

- كنا نعيش كالبهائم يا سيدنا، لا نفكر إلا في بطونها، الآن سمعنا وتفتحت أبصارنا على عالم آخر، لكننا لا نملك غير دمنا، أرشدنا يا سيدنا، و أنت العارف، ماذا نفعل؟

فينفجر صوته العالي من كل زوايا الكهف:

- هل انتم مستعدون للشهادة؟

...

يطلبون منه أن يعطيهم اسما (أبا بكر، بلال، الهوشر، الغفاري، أبا زبيدة، الرياحي...) ثم يقسمون على المصحف والمسدس أمامه قسم البيعة:

-أعاهد الله العلي العظيم على التمسك بالجماعة والجهاد في سبيلها والثقة بقيادتها والله على ما أقول وكيل.

ويبكون بين يديه فرحا لأنه سيرسلهم إلى الجنة.

* * *

لم تغادر صبيحة الداكوكة عتبة البيت منذ أن تلقت الإنذار الثاني: ورقة مطبوعة من جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تروي سيرتها، منذ أن دخلت المبغى هاربة من بيت أهلها، مرورا بمن عاشروها ومنهم الذي حملها نغلا والذي فتح لها باب القوادة على مصراعيه: تعدد الرسالة ذنوبها: تصيد زوجات الجنود والضباط، حصتها في كازينو القمار، إدارة شبكة المخدرات، التجسس على الناس... في نهاية الرسالة عبارات التهديد (أعذر من أنذر)، (وما ظلمناهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)... طوال اليوم تبقى ممددة على الصوفا. والتلفون لا يفارقها ويملأ البيت صوتها وهي تعاتب أو تشتم أو تهدئ، وحين تلقيه تلتفت إلى خادمتها طالبة كأس ماء لتبل ريقها، وسيجاره. تتحدث لمن حولها عن عذاباتها و عذابات بناتها التي لا تعادل رزقها الحرام، ودائما تختم مكالماتها بالشكوى من خسارة الدنيا والآخرة. التلفزيون كان شاغلها الثاني بعد أمور العمل. لم تكن مجرد متفرجة رغم أنها حفظت البرامج وأوقاتها والمقدمين والمقدمات وسيرهن، إنما نصبت نفسها رقيبة تخابر المدير العسكري بالتلفون مطالبة بإعادة هذا البرنامج لأن واحدة من محظياتها أو قواديها يعمل مقدما فيه، و تقديم مغنية على أخرى وراقصة دون أخرى، وإعطاء فرصة لواحدة من بناتها في برنامج المغنين الهواة.

منذ تلقيها الإنذار ما عادت صبيحة تخرج للسوق، لا لشراء الذهب ولا للتسوق، إنما تطلب مشترياتها بالتلفون وتوضع المشتريات عند مدخل العمارة. حفاظا على سلامة بناتها طلبت من الحلاق والمصفف أن يأتي إلى البيت بينما تولى ابنها المتخلف عقليا كي ملابسهن وهو يتلمس الحرير الناعم بلذة يسيل لها لعابه.ومع ذلك حدث المحذور: ذات صباح حمل لها الخادم سلة المسواق ووضعها أمامها وهو يشكو من ثقلها. على مهل قلبت المشتريات، الباذنجان، والدجاجات، والخيار.. واحدة واحدة، وهي تشكو كعادتها من أن الكل صاروا يغشونها منذ أن انقطعت عن اختيار حاجاتها بنفسها ويختارون لها أسوأ ما تبقى عندهم. توقفت قليلا ودهشت حين وصلت إلى قاع السلة. شيء دبق وثقيل ملفوف بالجرائد. رفعته وبدأت تفك الجرائد (لم أطلب الكوارع!). خادمها كان يفك الجرائد وقد التصقت بخثار الدم، حين وصلت إلى اللفة الأخيرة، أفلتت منها صرخة مبحوحة (يا ساتر استر!): أزاحت الشعر الأسود المتهدل على الرأس وقد التصقت بعض خصلاته على الجبين. أصغرهن(بلقيس).. مذبوحة من الوريد إلى الوريد، أغمضت عينيها بهدوء رغم الكدمات في وجهها وأطبقت فمها غير راغبة في الحديث عما حصل ...

تعززت الحماية حول بيتها فقطع سير السيارات بعد الحاجز، دون أن يمنحها ذلك إحساسا بالأمان. ومع الحماية بدأت منغصات من نوع آخر. ففي نهاية كل أسبوع يأتي يعقوب بقامته المربوعة وشعره الأحمر إلى غرفتها دون أن يمر بصالة الضيوف، يفك حزام مسدسه ويتمدد بارتخاء:

- عطشان!

فتأمر ابنها المعتوه بأن يأتيه بقدح ويسكي بالثلج.

- إذا انقلبت الدنيا علينا، فأنت أولا. أنا لدي هذا المسدس، سأطلق رصاصاتي وأوفر الأخيرة لنفسي، إذا لم اقتل. أما أنت فسيربطونك أنت وبناتك على ظهور الحمير ويدورون بكن في الأحياء، وتمتن رجما بالحجر على شريعة الله... لذلك أريدهن أن يفتحن آذانهن قبل سيقانهن، فبعد الكأس الرابعة يخرج الضباط الساخطون ما في داخلهم...

-من عيني هاتين، وقبلها من فمي إلى أذنيك.

- لا أريد كلاما شفاهيا، أريده على الورق، ولا أريد أن أسمع كلمة (يقال)، أريدها بالاسم والزمان والمكان!

كثيرا حاولت صبيحة أن تتجاوز السياسة، وعهودها المتقلبة، وأرادت أن تكون صالحة لكل العهود مرضية للضباط الذين دوختهم الحروب والانقلابات:

-خلوا فروجنا بعيدة عن السياسة، مفتوحة كل العهود و للكل دون تمييز، وإذا ما دارت عليكم الدنيا، قد أكون لكم سند شدة وواسطة خير. سأقول كلمتي كما قلتها سابقا: كان بين ساقي واحدة من بناتي حين وقعت الواقعة...

لكن الأمر أفلت من يديها وصارت الضغوط أقوى من إرادتها. يوما فيوما تجد نفسها دون أن ترغب في قلب السياسة وسط الضباط الهائجين، تحتمي بهم وتحميهم من خصومهم.

خوفها علمها حرفة مداراة الجميع. تسلفهم حين يبددون نقودهم في كازينو القمار، تتوسط لهم لنقلهم من جبهات الحرب. وتعلمت مع ذلك

حرفة الكلام العذب والإشادة بالمحاسن القليلة، وأحيانا إيجاد محاسن للذين لا يملكونها، بل صارت تنظم أشعارا وزجلا في مديح زوارها وتحيل لواحدة من بناتها أن تغنيها، بل إن بعض هذه الأغاني تسرب، مع بعض التحويرات، لمغنين محترفين غنوها في التلفزيون.

مع ذلك، ومع كل من حولها لم تشعر بالأمان. ففي الليل تتمدد على سريرها متسمعة همسات الليل ومباغتاته والصرخات الفالتة (أية واحدة منهن)؟

* * *

حين غادر الموكب البوابة الخارجية لم يكن مجيد يعرف طريق الرحلة، ولم يسأل عن غاية الرحلة كما علمته حرفة الخطر. الحماية سارت أمامهم بسيارات سود متشابهة أبوابها نصف مفتوحة وقد امتدت سواعد المرافقين ضاغطة على الرشاشات والعيون تتابع الظلال بين خط البساتين الضيق الذي حاصرته الرمال الرمادية.على عتبات هذه البيوت الطينية الكالحة دماء مقتولين لم تغسل بعد، وما تزال أشباحهم تجوب البساتين توسوس طول الليل، ومع دوران النواعير في النهار: (إسقوني إسقوني!) تريد أن ترتوي من دماء قاتليها.. وفي كل لحظة قد تنكشف هذه الظلال الوادعة عن قناص جالس على ركبتيه مصوبا بندقيته إلى الموكب.. وراء هذه الأبقار الكسولة التي لا تكف عن اللوك، في ظلال هذا الناعور أو سدود الشوك التي تريد أن تمنع سيول الرمال، أو بين البيوت الطينية التي ينبعث منها خيط نحيل من الدخان وقد يكون هذا الخيال المسرع خببا.. هذه الهواجس تقطع على وهاب سياق ذكرياته حين كان يمر من نفس هذا الطريق وهو صبي بسيارة مضعضعة. وعلى طول الطريق لا تكف أمه عن البسملة

مستعيذة من طول الطريق وعاديات السفر، والركاب حوله خائفون من سلابة ملثمين يقطعون هذا الطريق ببنادق مشرعة ويطلقون صرخات حيوانية لا معنى لها آمرين الرجال بأن ينبطحوا على الأرض أو يصطفوا ووجوههم باتجاه النخيل ثم يأمرونهم بإلقاء عائدات المواسم ورواتب معلمي القرى في عباءة سوداء مفروشة على الأرض، ومعهم نساء ملثمات يفتشن ملابس النساء وأقمطة الرضع باحثات عن قطع ذهب مخبأة. لقد رأى كل هذه المشاهد وهو صبي من ثقب في عباءة أمه. وما زال يراقب نفس هذه الأكمات و تعرجات الطريق الحادة وقناطر الجذوع التي قد يخرج منها المسلحون في أية لحظة (سأسوي كل ذلك) ! يتمتم مع نفسه الآن (سأعبد الطريق وأنير جانبيه وأزيل أطلال القرى المهجورة وبساتين النخيل وكل ما يمكن أن يخفي المتمردين وطلاب الثأر لتبقى الدولة وحدها بيدي مثل مقبض هذه المسدس)!

اخترقوا حقول القمح والشوفان المترامية التي تغطت بصفرة مترية ساخنة تحت شمس الظهيرة الحادة وعبروا القنطرة التي سبقتهم إليها مفرزة الحماية واتخذت موقعا على جانبيها وتحتها. توقف الموكب قرب النواعير وقد مست الوجوه تلك الريح المنداة بماء النواعير وبدأ الاثنان يصغيان لتلك الحركة الرتيبة وأنين الخشب الذي يدور رافعا القدور من البئر. تمدد وهاب على الأرض في الفسحة بين الناعور ومضخة الماء وقال بصوت آمر (لم تعد المدينة موجودة)! وراح يعدد الأشياء حوله وهو مغمض العينين: هاهنا الساحة الدائرية التي حفرتها حوافر الحصان.. تذكر أنه كان يرفع ذنب الحصان ليشم رائحة الروث التي أحبها، والى يمينه الحفرة العميقة الباردة التي تسكن الأفاعي بين حجارتها متتبعة دم

الحمائم، فيها يتقطر الماء من الدلاء قبل أن يصب في الساقية، وهذا نقيق الضفادع التي سكنت حواف البركة التي تحيط مضخة الماء.. فوق عمود على يسار الساحة اعتاد عمه أن يضع كيس الشعير، وعلى اليمين تلك الخربة التي وجدوا فيها جثة امرأة من العشيرة ذبحت أمام عينيه غسلا للعار. إليته أوليت أحداً يستطيع أن يكتب عن كل ذلك ويعيد الزمن إلى بداياته ولو على الورق! في لحظة الارتخاء خرج منه ذاك الشاب النحيل الطويل بدشداشته البيضاء ومشيته المائلة وقد شبك يديه على بندقية البرنو فوق كتفيه يسير ببطء بمشيته الخدرة المائلة ليحرس الحقول من اللصوص الجياع. كان عمه يحذره دائما:

- لا تتردد! أطلق النار إذا لم يجب القادم على صرختك الثانية!

حياته وحواسه تبدأ في الليل، في ظلمة الحقول حيث كل ما يتحرك عدو كامن... أوشك أن يتأصل في المكان وينسى كل شيء شاطبا كل الحياة التي تلت، كأنه لم يغادر هذه القرية بعد... فتح عينيه لكنه لم يشعر بالطلاقة التي جاء ينشدها هنا، في حين نزع مجيد بسطاره وبيريته وبدأ يتسلق النخلة رافعا جسده الذي ازداد شحما بصعوبة و بأنفاس لاهثة حتى وصل إلى عذوق التمر قاطعا الشروش. الصبي المشاكس الذي يعرف كل الدروب المحرمة في قرية طفولته غلب الرجل الكبير والعسكري الذي يتحمل مسؤولية حماية الرئيس. يحسده وهاب على هذه الروح الطليقة لأنه على عكسه خلق منحوسا حزينا بلا طفولة...

حين عبرا القنطرة خفق قلب وهاب من عاطفة غامضة، فقد رأى نخلة بيتهم ونفس خيط الدخان الأبيض المنبعث من تنور أمه ثم حائط الطين وقد عبرته رائحة الخبز التي لا ينساها. قبل أن يطرقا الباب مد

مجيد يده، كما في صباه، من تلك الثغرة بين الباب والجدار وسحب المزلاج ليفاجئ العمة قرب تنورها مثل هيكل نحيل صبغه الطحين بلون الموتى. رفعها مجيد بيد واحدة وهي تضربه بقبضة يدها على صدره:

- سافل مثل خوالك! تترك بنات عمك وتفضل قحاب المدينة ؟

- مالك يا أمي تلحين على ما لا شفاء منه!

قال وهاب وقد احتضن أمه فتاهت عليه تلك العاطفة التي تربطه بهذا الجسد الذي تفوح منه رائحة الطحين والعرق.. بينه وبين الطفولة التي تربطه بها زمن مزحوم بالوقائع: قتل وسجن ومدينة ضيعته وضيعت جذوره وسلطة أخذت منه عواطف شبابه.. راقب رعشة يدها وهي ترفع إجانة العجين وحركاتها المضطربة وهي تنش الدجاجات عن طريقها وبصرها الكليل وهي تحدق به وترى بأسف: لم تمسه مثل ابن عمه عافية المدينة، فقد بقي نحيلا طويل القامة مثل والده، و رسمت الرجولة على وجهه خطا قاسيا يمتد من حافة عينيه، عبر طرفي شفتيه المزمومتين حتى ذقنه العريض. لم تعتب عليه بسبب قطيعة أعوام لم يرسل لها خلالها رسالة ولا طاقم الأسنان الذي انتظرته سنوات دون جدوى، فهذا ديدن كل الأبناء الذين سرقتهم من أمهاتهم تلك المدينة القحبة، و مدت يدا مرتعشة لتلقط الشعرة الشائبة:

- لا ترجع للمدينة بدون امرأة، أريد أن أرى أطفالك قبل أن أموت!

لم تكن فخورة، وهي تتلمس النجمات على كتفيه، بولد يحكم الدولة، إنما بدا ذلك امتدادا لسوء الحظ الذي رافق هذا المنحوس الذي مات والده قبل مولده بيومين ولم يشهد عامه الأول زخة مطر واحدة. وهي تساعده على ارتداء دشداشته تمنت لو أنه بقي بعيدا عن المدينة

الغادرة التي فتكت بحكامها لينصرف لزراعة هذه الأرض الواسعة التي هجرها كل أبنائها بلا عودة.

تركا أفراد الحماية يتصيدون الطيور في البساتين ويراودون البنات وهن يملأن الجرار عند الشريعة، وخرجا إلى القرية متذكرين معا الزاوية التي نكحا فيها مطية الحمال وسارا على نفس الطريق الموسوس إلى المدرسة التي ذهب إليها مجبرا بخيزرانة عمه الذي أعطاه أول مسدس ليحمي نفسه وأوصاه بالحذر من (بيت العبد) الذين ينتظرون أن ينبت شاربه ليصبح صالحا للثأر... ما تزال فجوة الجدار التي كانا ينسلان منها هربا من دروس الرياضيات ودكان البقال الذي كانا يسرقان منه الملبس... كل شيء بقي على حاله عدا البلدية التي أعيد بناؤها ووضع باب حديدي في مكان الباب الخشبي الذي يرجع لأيام العثمانيين. سيارات الحماية المتجمعة عند باب البيت جذبت بسرعة أطفال العشيرة الحفاة والصبيان الذين شوت وجوههم شمس المراعي الحارة. دخلوا تباعا وقبلوا يدي وهاب.

بعد الغداء جاء العم على بغلة العتيدة بعقاله المقصب وشاربه الأشيب الكث منحن وأمامه حفيده ممسكا باللجام. كعادته كان حزينا مثل كل حكماء القبيلة محملا باحتمالات السوء. لذلك تصنع الاثنان ذلك الوقار الصامت المضغوط وهما يستمعان إليه:

- ما من شيء يفسد الأخ على أخيه مثل السلطة. عليكما أن تقسما لبعضكما في الضريح!

ذهب الاثنان دون حمايتهما فبان ضريح الإمام الهادي بقبته الخضراء التي يعلوها هلال ذهبي يعكس وهج الشمس. أخذا المفاتيح

بعد أن صرفا القيم وأغلقا الباب خلفهما وجلسا وجها لوجه بعد أن نزعا مسدسيهما.. يد على كتف الآخر واليد الأخرى ممسكة بشباك الضريح:

- أقسم أن لا أخون رابطة الصداقة والدم.

بانتباه شديد تسمع وهاب لنبرة الصوت الطليق الصافي الذي لم تقطعه أية فكرة نقيضة. وما كان بحاجة للقسم إلا كإجراء شكلي، فقد كان عارفا أن ابن عمه معاونيه ميلا إلى السلطة.. غير راغب ولا قادر على الحكم لأن دخوله الجيش متطوعا وخدمته الطويلة علمته طاعة رجل آخر أعلى منه. أقصى طموحه هو أن ينال كلمة تشجيع لا أكثر وأن يترك الليل له ولمحظياته... خرجا من الضريح متعانقين وقد اخضلت عيونهما بدموع الصفاء، صامتين يرتشفان هذا الصمت العذب الذي يخيم على حقول الذرة المائسة التي تحنيها نسمات الغروب الباردة مثل نوبة لذة وتمس الريح الاثنين فيبتسمان دون كلمات وقد اعتمر قلباهما بالصفاء.

* * *

بالطباشير رسم قادر مربعا (متر بمتر) ووقف وسطه:

- من هنا سنبدأ

-...

لما لم يسمع جوابا أخذ يدور بعينين نشيطتين ومستفهمتين بين رفاقه الثلاثة. كان أقصرهم قامة وهذا يزيد وقفته إحراجا. هو الوحيد بينهم الذي شارك بتجربة النفق السابق، بل باشر لوحده بمحاولة لحفر نفق في زنزانته الانفرادية، لذلك عليه أن يقنعهم بأن الأمر سيبدأ هكذا: ابتسامات باردة ساخرة وشعور بالمستحيل. ولكنه يدرك أن الكلمات

غير مجدية هنا وما من وسيلة لتحفيزهم سوى العمل. بعجالة مرتبكة سحب من الزاوية كيسا رثا وأفرغ محتوياته داخل المربع.. إزميل قديم، خمسة مسامير غليظة للحفر، صحن صفيح لوي ليتحول إلى مغرفة، إنبوب ماء ينتهي بصامولة سيقوم مقام المطرقة، سكاكين وملاعق صدئة. رفع رأسه كساحر يعرض أدواته قبل أن يقوم بلعبته فصدمته حزمة الوجوه التي تراقبه بفضول بارد.

- أعرف بماذا تفكرون..

-...

- بنصف هذه الأدوات حفرنا النفق السابق.

خط على الحائط ساعة وتأريخ البدء ونظر إليهم وقد ملأت الابتسامة المتشنجة وجهه

- للذكرى.

ثم أمسك الإزميل وثبته على زاوية الخط وتوقف لحظات.. كان الإسمنت براقا باردا. وما استطاع وهو يجلو إرادته وخياله أن يرى ما هو أبعد من هذه الأرض القاسية البليدة، فقد نحى الختام تماما لأن فشل التجربة السابقة مازال يطارده بمخاوف تأكل الروح.. يتذكر كيف خرجوا من جوف النفق فرادى متربين مثل جرذان الأرض، نفضوا التراب وتلفتوا حولهم فلم يجدوا الدليل، إنما الصحراء التي تمتد بلا نهاية بكل الاتجاهات. لذلك كان يعمل ضد خوفه بمقدار ما يعمل ضد مخاوف الرفاق الآخرين وهو يضرب أول ضرباته على الإسمنت فتقدح الأرض شرارات مع شظايا ناعمة سريعة. إنه الوحيد الذي يعرف أن تحت طبقة الإسمنت الحالية طبقة أقسى هي أرض المعسكر الإنكليزي الذي أقيم

عليه السجن. ما استطاع خليل، وهو يراقب الضربات الأولى محرجا من هذه البداية الجافة للعمل، أن يربط هذا المربع الجهم بتلك الخارطة التي بدت له وقتها دقيقة مقنعة، فالخطة المتخيلة بدت أكثر إقناعا من هذا الضرب الثقيل على أرض شديدة الصلابة. حتى الآن كانت مخاوفه تأكل همته. كيف تمكن صيانة سرية عمل خطير كهذا سيستمر عدة أشهر وسيشارك فيه عشرون رفيقا. أتكفي ستارة واهية لإخفاء هذه الحركة الدؤوبة في المرآب، أو مسابقات مملة لأشغال مائة رفيق عن عمل يجري في إحدى زوايا قاعتهم الضيقة؟ يبدو الأمر له ضربا من المستحيل. فلن تمر إلا أيام قليلة ليصبح النفق موضوعا لحديث الجميع... ولو ترك الأمر لخليل نفسه لفضل بقاء الأمور كما هي وركن للحياة الحالية بدلا من مغامرة قد تفضي للمجهول. فقد انطبع السجن فيه بعد أربعة عشر عاما. وما عاد يأمن عالما آخر غير هذه القاعة التي يعرف كل زاوية فيها وهؤلاء الرفاق الذين يعرف أدق سكناتهم. حقا أن الأمور ساءت إلى درجة كبيرة مع مجيء الرئيس الجديد.. جولات التعذيب المستمرة في الأقبية وتلك السراديب المخيفة حيث الزنزانات الانفرادية التي تتهدد الجميع، ولكن خليل يؤمن بإمكانية السجين الهائلة على التطبع مع أسوأ الظروف، فالمهم أن يبقى حيا ومحتفظا بفكرته. وما يزيد مخاوفه مسؤولياته القيادية التي أصبحت من منغصات ضميره لدرجة إنه يرفض تلقائيا أية فكرة تجعل مصائرهم موضع خطر.

- قسمت العمل إلى دوريات على هذه الشاكلة..

قدّم قادر الجدول لخليل كأمر مفروغ منه. قبل أن يبدأ الضربات الأولى انتظر خليل أن يبدأ اليأس من الآخرين.. من موسى الذي أنهك

السل صدره وزحف على روحه، أو رحيم الذي ينتظر أن تجدي وساطـ أقاربه، أو نهاد الذي ينتظر انفراجا في المفاوضات الخلفية مع السلطة. لكن سوء الأيام الأخيرة ومخاطر الأيام القادمة دفع الجميع نحو الصمت الذي هو بديل الرضا. وقد قبل خليل هذا الحل باعتباره نوعا من تمرين إرادة، معولا على استمرار العمل أكثر من نجاحه.. فقد علمه السجن الطويل أن يكتشف خصال رفاقه من خلال الأعمال الصبورة الطويلة أكثر من شطحات البطولة السريعة، لذلك طلب من رفاقه العودة إلى القاعة وأخذ المطرقة ليبدأ امتحانا ما عرفه من قبل.

* * *

ساحة عارية بين الصخور الجرانيتية، على حافتها بنيت غرفتان طويلتان استخدمتا مهجعا للسرية الأولى من المتدربين.. هناك أقاموا نظاما شديد الصرامة يبدأ فيه التدريب مباشرة بعد صلاة الفجر: ركض مع العدة الكاملة، زحف في الطين تحت سقف من الأسلاك الشائكة، قفز فوق اللهب وزحف تحت اللهب، صعود إلى أعلى الشعاب تحت لهب الشمس، تدحرج حتى القاع، يوم تحت الشمس المحرقة دون ماء أو طعام، ثم هجوم على هدف وهمي بين كدس من الإطارات المحترقة. كل شيء في هذا المعسكر قاس ومترب، حتى الذباب هنا مترب دائخ يمتص ماءه من العيون. تخرج العقارب الصفر و الأفاعي المثلثة الرؤوس من جحورها منسلة داخل الملابس. لا شيء يذكر بالحياة السوية، فالتراب الحار الذي يغطي كل شيء أنسى المتدربين تماما ألوان الماء المزغرد في السواقي والخضرة الباردة لأغصان الأشجار، كما أنستهم وحشة المكان ترف المدن. ولم يبق هنا غير الموت الذي يتجسد تماما في لحظات الراحة

التي تلي صلاة الغروب حين يجلس الجميع متربعين على حافة الإخدود، في ذلك الصمت المحمر الأغبر حيث لا خيال لإنسان حتى نهاية الأفق ويستمعون معا للترتيل الرتيب:

- إلهي عظم البلاء و برح الخفاء وانكشف الغطاء وضاقت الأرض ومنعت السماء وأنت المستعان وإليك المشتكى.

خلال أيام تقيحت الجلود من تراكم العرق والغبار وهزلت الأجساد من جهد يفوق التحمل، ومع ذلك استمرت مسيرة التحمل تدعمها المكابرة أمام الجماعة.

بعد دورة التدريب نزلوا إلى المدينة ليطبقوا شريعة الله. قتلوا واحدا من معذبيهم حين خروجه من البار طعنا بسكين وحزوا رأس زانية بالسيف وهي في فراش الرذيلة وأحرقوا بالنار بيت مخبر يتتبعهم... أحيانا كانوا يعودون ويغسلون الدم العالق بهم في ينبوع الماء المتدفق من عين الصخر، وقد لا يعودون بعد أن يقعوا في الكمائن...

استمر الأمر كذلك حتى التحق بهم (الغفاري) هذا الرجل النحيل الطويل المشدود القسمات الغائب عما يراه خلف لحية شديدة السواد:

- ستكون القيامة أسرع منا إذا اعتمدنا على الخنجر والسكين لمواجهة الطائرة والدبابة!

وحين اقتنع الجميع بصحة منطقه، أخذ مجموعة منهم وغاب عائدا بعد أسابيع مع قطيع من البغال محمل بالسلاح.

لم يسأله أحد، وحتى إذا سأل سيحل الأمر بنكتة:

- بذرنا في السطيحة بضع رصاصات فأنبتت بنادق!

ليس للغفاري، عدا الصلاة، عادات ثابتة تكشف شخصيته.. ينام

حيث ما وجد فراشا كالميت، دونما أحلام، ويأكل مع الكل دون هرج وينهض قبل الجميع عن صينية الطعام ويرتشف شايه وحيدا على حافة القطوع.. ولذلك أحاط نفسه بغموض مفتوح للمبالغات: يتيم ترك له والده ثروة بلا حدود، وضعها بيد المجاهدين واكتفى بهذا الجلباب الممزق، كان مجاهدا في أفغانستان تلقى تدريبه في (مجمع خالدان) القريب من (مزارالشريف)، كان ضابطا هو الأول على دورته ولديه حتى الآن مريدون داخل الجيش يزودونه بالمعلومات والسلاح، إنه ابن عم الحائري ولذلك اختاره سيفا ودرعا... بالمزاح يتجاوز الغفاري كل سؤال يرمي لكشف حقيقته، فالغموض عباءته الرمادية التي تخفيه حين يريد التحرك. وكان الغفاري بين الجميع مثل شبح مترب.. قليل الكلام، وإذا تحدث فبالهمس كأن الأصوات العالية تربك دقة يديه وهو يثبت صاعق التفجير. يده شغلت الكل قبل وجهه النحيل الكث اللحية، فبياض جلدها يشف عن لون دمه الحار حين يهيئ العبوة. يحيطون به على شكل قوس فيتطلع في وجوههم واحدا واحدا بعد أن ينشر عدته على سجادة الصلاة:

- بسم الله الرحمن الرحيم!

لم تكن السلطة ورجالها هدف الغفاري الوحيد، إنما الفساد الذي تركز في القسم الشمالي من المدينة حيث توجد مدينة أخرى ومغلقة لا تمت بصلة لهذه الأحياء الفقيرة التي يعيش فيها، حين يدخلها متسللا ويراقب السيارات الفارهة وهي تضم نساء يرتدين أقنعة من الأصباغ الإباحية يتلوين كالغانيات ويشربن الخمرة مع الرجال أمام عيون عباد الله.. آنذاك يختلط الحرمان عنده بإحساس عال بالذل ويقرر مع نفسه: المترفون الفاسقون!

* * *

رجعت ياسمين خطوتين واسعتين لتلقي نظرة أخيره على معرض (حلم الماء) الذي سيفتتحه الوزير غدا. مالت برأسها قليلا وهي تدور بعينيها في أرجاء القاعة متتبعة سياق اللون المائي الذي رسم بضربات عريضة وعلى لوحات متساوية الأحجام متشابهة الأطر:

- الماء والصحراء؟

قالت وهي تقارن لون اللوحات بالجدران التي طليت بلون رملي أحمر وسط سلسلة أقواس إسلامية. أعدت كل شيء من أجل حفل الافتتاح، فطلبت من مضيفاتها أن يرتدين وشاح عنق بلون مائي ووضعت نافورة صناعية من الكريستال وسط الباحة وحولها زهور بلون مائي.. كانت تستمع لصوت النافورة وسمفونية الماء التي ستعزف خلال الافتتاح، وقد أعطاها الاستماع ذلك الشعور العميق الذي يجعل ضربات القلب تتسارع على إيقاع شيء جميل... قطع عليها غيبوبتها وقع أحذية ثقيلة، وحين استدارت فاجأها خلف ظهرها حضور قوي لرجل واقف خلفها بثبات عجيب له رأس مربع كصندوق وشعر ناري قصير، تراجعت خطوة ونظرت إليه باندهاش واستنكار: مربوع القامة مشدود ببدلة لا طية فيها، شابك ذراعيه خلف ظهره ينتظر بصبر أن تفرغ من دهشتها:

- هل من سؤال يا أستاذ؟

- ماء، ماء، ماء... ما من شيء غير الماء؟

قالها بلهجة تجمع السؤال والمفاجأة.

_هذه رؤياه.

- في بلد يموت نصفه من الجفاف!؟

- ماذا تقترح أن يضاف؟

- أي شيء...

تشاغلت عنه وابتعدت لتواصل تعليق اللوحات ولاحظت بعين حدسها الدقيق أن عينيه الصفراوين الجامدتين تراقبان مؤخرتها وهي تنحني لترفع اللوحات من الأرض فتضايقت ولمت مؤخرتها بضغط عضلاتها تريد أن تخفيها عن تلك العين الصفراء التي تعريها، وحين التفتت فوجئت بأنه غاب بلمحة عين تاركا حضوره المفاجئ الثقيل لينغص متعتها بما تفعله، مع ذلك تشاغلت بتوجيه مضيفاتها الجميلات إلى مكان وقوفهن لاستقبال الضيوف الكبار وتوجه السقاة إلى كيفية التحرك وتقديم المشروبات بصمت. الحمية والخوف شغلاها، لذلك لم تنتبه لصوت الاستدارة الحادة للسيارة عند مدخل الواحة الأمامي. مالت برأسها نحو مساعدتها الشابة وهي تبحث عن مكان تضع عليه فنجان قهوتها لتشير بطرف القلم لما ينبغي أن يوضع في تلك الزاوية وعلى تلك الطاولة حين قطع الصوت الهامس قرقعة الباب الحديدي وانفجار هز الألوان والأصوات والأرض التي وقفت عليها واختل الزمان والمكان وفقدت الاتجاهات.

لأيام عديدة لم تصح ياسمين من صدمة الانفجار الذي حملها عاليا مع فنجان قهوتها ودارت حولها التماثيل التي دارت حول نفسها في الفضاء وسط دوامة لها لون الماء الطاغي والزجاج الذي يصفرحولها باحثا عن اللحم الآدمي والورق الذي بقي عالقا مثل طيور فقدت أرضها... وعلى الأرض المرمرية اندلق رشاش من دم وراء يد آدمية جاءت مقذوفة باتجاهها وهي تدور ثم استقرت بجانبها بأصابع مرتعشة. خلال فترة النقاهة حاولت أن تردم الهوة الغامضة التي أعقبت

الانفجار. تتذكر اللون المائي الأزرق الذي ملأ القاعة ووشوشة الماء في النافورة التي وضعت في الوسط والزاوية التي وضعت فيها قناني النبيذ وربطة مساعدتها وآخر الكلمات (هنا سيقف الفنان مستقبلا الضيوف) وقرقعة ثم...كيف أفلتت الصور والكلمات وانقطع الزمان والمكان، لا تدري أبدا كيف حدث ذلك. فقط تتذكر أنها صحت وقد فقدت إحساسها بالاتجاهات: لا تعرف الأسفل من الأعلى حين مدت يدها لتلمس الأرض الصلبة ووجدت حولها وجوها أحاطت بها وسؤالا موحدا:

- هل تريننا؟

كم من الوقت فات، وأين هي، لا تعرف. هناك انقطاع غامض ومقلق لا شفاء منه يحوم حوله الموت الذي بدأ يرعبها في لحظات وحدتها.

في حفل افتتاح القاعة بعد أن أزيلت آثار الدم والدمار ألقى وليد قصيدته إنانا العائدة من العالم الآخر:

دقة القلب أم دقة الساعة الآتية .

رجفة اليد إذ ترفع الماء فوق الجدار.

رجفة الماء إذ يفزع الماء

ومضة الانفجار في العين

رشقة الدم في الشفتين.

فاضت عيناها بالدموع و تقلصت في مقعدها وهي ترنو إليه:

- هو الذي يعرفني! وإنانا هي أنا!

بدأت تطارده وهي تدرك أنها لن تربحه في النهاية، فقد عرفت من قبل عن مرارات نساء عرفنه: قاس معهن بمقدار ما هو قاس مع نفسه،

مزاجي سريع النفور. من خبرتها عرفت أن هذا القلب العارم العنيد غير قادر على الحب الطويل ولا الثبات، ومع ذلك اعتقدت أنها قادرة في النهاية على ترويض الوحش الكامن فيه. وكانت تقدم التحدي على الحب وهي تسعى إليه عبر طريق متعرج يوصل في النهاية إليه من خلال صدفة مصنوعة..تعرفت على كل من يعرفه: المذيعة التلفزيونية التي قابلته وترك المقابلة محتجا على إعادة السؤال للمرة الثانية، مطلقته الناقدة التي بدت لأول وهلة متعالية قاسية في أحكامها، الوزير الذي كان زميله في الدراسة، وقبل كل ذلك صديقه اللدود قاسم فنجان الذي هدد بالانتحار ويقتلها ووليد طبعا. وعندما يئس قاسم من كسب قلبها بدأ يحاول كسب حافظة نقودها بسلسلة أكاذيب منها خطورة صحة والده في المستشفى وقصة المؤجر الذي ألقى حاجيات بيته وسط الشارع لتسلفه مزيدا من النقود..تظاهرت بتصديق كل ذلك لكي تصل من خلاله إلى بغيتها عبر طريق الحب المكابر الطويل. أحيانا تسأل نفسها: لم وليد بالذات؟ وتجيب نفسها: رجل بهذه الحساسية والرهافة سيجدد روحي.

* * *

الموضوع جاهز تماما في ذهن وليد.. نفس الحفلة الباذخة التي أقامها صديقه الوزير: نهاية شتاء في الصالون العباسي بين اللوحات والقطع النادرة التي تستعرضها زوجة الوزير لزوارها الجدد. سيصف أضواء الثريات في القاعة وحركة الستائر الحريرية ولوحات المستشرقين على الجدران ديكورا لجو الوهم الذي تعيش فيه هذه الطبقة: الحوارات الرخوة وقهقهات النساء المتكسرة وحفيف الملابس، ثم يكسر كل ذلك بحدث رمزي : صرخة!!! صرخة امرأة، طويلة وحادة كسرت زجاج الليل

البارد ومعها أطفئت الأضواء لدقائق. خطفت في ذهنه صور سريعة ولكن جامدة ليد سيدة ترتدي قفازا طويلا من الحرير المريش. وسيدة البيت التي كبت ثم نهضت واستردت ابتسامة التطمين الكدرة والوزير أراد أن يبدد المخاوف بنكتة:

- فسحة للقبلات السرية...

وهو يتابع مخيلته أدرك وليد جمود هذه الردود الرمزية.. سخف سخف سخف! لا معنى لكل ذلك. عليه أن يعيش الحدث ثانية كمراقب لئيم يمسك شخصياته من وراء المظاهر الزائفة، وستكون الصرخة هي المحك.

طوال الطريق المشجر الموصل إلى بيت الوزير يفرك وليد يديه: وهو يرسم ملامح الراوي.. نحس ومنطو مثل واحد من أبطال دستويفسكي، يعب خمرته بتواصل ليغذي الفعل المباغت الذي سيوصل الحدث لذروته. وحتى لحظة وصوله لم يقل أبدا إنه آت من أجلها. كان ينحي ياسمين دائما ويقدم وقائع القصة... لكن الأمر لم يكن كذلك حين اجتاز الحرس ووصل إلى باب البيت.. زوجة الوزير خرجت ببشاشة لتستقبله عند الباب الأمامي مزيحة كلبها القفقاسي عن طريقه:

- أخيرا أتيت..المعجبون بانتظارك!

حين دخل مرت صينية المشروب أمامه فاخذ كأسا، ثم ثان...دارت حوله العطور فنسي تماما وسط الحفاوة ما جاء من أجله، وأفلتت منه قصته حين رآها هناك، بثوب رماني من القطيفة يكشف عري كتفيها، تتحدث مع وكيل الوزير وتنظر إليه من طرف عينيها. كان على وشك أن يدعوها للجلوس إلى جانبه، لكن صاحبة الحفل أخذته بإلحاح ليقرأ

للحاضرين بعض قصائده. أراد وليد أن يعتذر بأنه لم يتهيأ للإلقاء ولا يحفظ شيئا من قصائده، لكن سيدة البيت قطعت عليه الطريق بأن أحضرت ديوانه من مكتبتها. فجأة وجد نفسه مطوقا.. فالحاضرون تربعوا على السجادة فيما يشبه الدائرة وسط الساحة التي رقصوا فيها قبل قليل ووضعوا كؤوسهم بين سيقانهم بانتظار أن يقرأ. اخذ رشفة كبيرة من كأسه وخلع سترته وربطة عنقه بحركة هوجاء كمن يزمع أن يلاكم الهواء وتوجه إليها بالذات بنظرة فيها ثبات قاس وعنيد وبدأ الإلقاء. ركض ورف على حبل صوته الخشن المتئد حين قال:

في القطار الذي لن يصل

في القطار الذي لم يغادر

في القطار الذي لم يكن

ثم اهتز جسده كصخرة تلطمها أمواج صوته المتعاقبة

ذبحوه بريشة طير

ذبحوه بوردة

وراح ينود جالسا على الأرض وقد دخل في بئر صوته ولم يبق سوى رأسه وذراعيه وهو يتلاشى أمامهم:

قطرة قطرة دون حب

قطرة قطرة دون صوت

قطرة قطرة دون موت

في البداية تسلحت بكبرياء امرأة أرستقراطية باردة القلب وهي تستمع إليه متوجها إليها بالتحديد.. حائرة بين الإطراق وبين النظر إليه وقد ارتدى قناعا غاضبا. لم تفهم معنى كلماته، غير أن صوته المتئد

البطيء أخذها بعيدا، عن الراقصين الذين يجرونها بإلحاح إلى الحلقة وعن المطبخ الفسيح الذي تجمعت فيه النساء حول زوجة الوزير ليتبادلن أحاديث لا ينبغي للرجال أن يسمعوها. عواطفها نحوه كانت تتصادم بين الخوف من غموض شخصيته وغموض الكلمات التي فتحت فجأة سراديب مظلمة في روحها. ورغم إنها تعبت تماما أمام سيل العواطف الجارفة في ليلة واحدة، لكنها لم تستطع بعدها أن تعود إلى جو الحفل، فقد ملت هذه الجماعات الصخابة التي تحيطها، ملت أصواتهم ومداعباتهم ونكاتهم الفاحشة واكتشفت أنها كانت منذ زمن تود أن ترتبط برجل حزين مثله.

بدأت بالعطف على هذا الكائن الطويل النحيل الشاحب الذي يهرب من الفرح آخذا كرسيه ليدخن وحيدا في الحديقة. تبعته كأنها تتبع قدرا سيخرجها من ملل حياتها الحالية، و بدلا من أن توصله بسيارتها أصر على أن يغادرا سيرا على الأقدام. أخذته وهو يترنح من الممر الذي يدور حول حديقة البيت الخلفية من باب منخفضة تمر تحت عريشة عنب إلى ذلك الطريق الضيق بين سياج الآس العالي وبين مرسى اليخت... في هذا الطريق الخالي الذي لا يتسع إلا لماشيين لا يسمع غير صرير الجنادب ونقيق الضفادع ووشوشة الماء وهو يصدم دعامات المراسي.

طويلا بكى وليد وهو يردد:

- ما كان ينبغي أن أحضر الحفلة أبدا.. كنت أرقص حين كان ناس يذبحون في السراديب وآخرون يصرخون من التعذيب.

وكان يرفع صوته كلما حذرته:

- إششش!

خوفا من أن يسمعهما أحد.

ولكي تبعده عن الأضواء الكشافة المحيطة أخذته إلى الكورنيش الضيق المظلم. لم يتوقف عن البكاء:

- كان ينبغي أن أقول للوزير شيئا صريحا بدل تلك الكلمات المتملقة. أذكره بأيام الجامعة، برفاقه وبتلك القصيدة التي لا تنسى (أمسك الرصاصة ساخنة قبل أن تستحيل وردة)! كيف نسي كل ذلك وتحول إلى حلاق غول؟ لقد تجنبت ذلك تماهيا مع جو الحفلة.. أنا ضائع وضعيف وباهت وغارق في الكذب حتى أذني...

بدأت تبكي معه وهي تلومه:

- لم تعذب نفسك هكذا يا وليد؟

وبدا كل شيء من وراء غشاء حرك من الدمع مختلطا رجراجا كأنها تنظر من وراء موشور زجاجي وفكرت حتى لو لم تربحه ولو لم يحبها فعلا فإنها ستستمر في حبه، فالشقاء في الحب ضروري لغسل داخلها.. ستكون الحياة أكثر رهافة إذا أحبت من طرف واحد رجلا منذورا للإبداع لا يتيح له مزاجه المتقلب حب امرأة، وحتى لو أحب امرأة أخرى فإنها ستستمر في حبه.. ولن تلومه أبدا مهما تعذبت. يكفيه عذاب كلماته، وحين وضعت رأسه على كتفها مد يده إلى ساقها وهو مستمر في البكاء...

* * *

ضاقت روح يعقوب من غبار الملفات وعتمة الأقبية فأراد الخروج خائفا من لدغة الحياة السوية التي ستباغته. لكن ما أن غادر الباب الحديدي حتى تذكر بقلق الأمور التي أبقاها معلقة: الدورية التي تنتظر أمرا منه لكبس أحد البيوت وقائمة التصفيات التي تنتظر توقيع القائد صباح الغد وملف (فوري) الذي لم يكمل قراءته... (أوه نسيت) هذا

المعلق من يديه! كان ينبغي أن يأمر بإنزاله من الفلقة. فكر بأن يعود ليعطي أمرا أو أمرين، لأن هؤلاء الأوغاد لا يفعلون شيئا في غيابه ويحولون المديرية دار مجانين . خفف سرعة السيارة ثم تذكر أن الأمر لن ينتهي بساعتين، لذلك ضغط الدواس هاربا إلى لا مكان. سار بمحاذاة النهر فسالت خلفه أضوية الكورنيش وارتشف رائحة النهر التي أيقظت الإنسان المتواري في داخله، هذا الأب الشائب الشعر الذي يعود من عمله ويفتح بحنان باب البيت فيهب الأطفال مسرعين لتلقف الأكياس من يديه.

حين يشف هذا الكائن السوي داخل يعقوب يتوقف عند السجين المدمى المعلق على العارضة ويأمر بإنزاله وغسله وتبديل ملابسه ويأخذه في جولة عبر الشوارع الغاصة بالناس العابرين، ثم فوق المسناة المطلة على النهر:

- أنت طبيب نفساني تعرف نفوس الآخرين، حدثني عني!

- أحفظ أغلب أغانيك، فقد كنت مطربي المفضل أيام شبابي.. بدل ملابسك وتعال معي في نزهة ستفتح صوتك من جديد.

- أريد منك أن ترسم هذا المشهد الجميل كما هو.. النهر وتلك الزوارق، وهذه البيوت المطلة نوافذها على الماء، والسابحون.. كلهم في لوحة واحدة أعلقها في غرفتي!

أحيانا يهرب إلى بيت خالته. سوي وعادي يتحدث عن أسرار يخاف أن يتحدث عنها في بيوت أخرى، ويشتم من يشاء دون خشية.. هناك يصب كأسه بنفسه عارفا أين يجد قنينة العرق وقطعة الثلج والخيارة المملحة مفضلا الجلوس في المطبخ متحدثا لخالته عن هموم مهنته وعن أخبار الأقارب والزيجات الجديدة وحظه العاثر مع زوجة مثل البارود ، تنفجر بلا سبب. آنذاك ينسى كل ما يمت لعمله. ينسى المعلقين

بالمروحة، والمرميين في براميل الغائط، ينسى المتآمرين الذي يترصدون خطواته بالقنابل وينام قيلولته بدشداشة بيضاء وأحلام سوية.

يدرك أنه لن يمسك اليوم الكائن السوي بسبب الصبي الذي مات بين يديه وتفجر نخاع دماغه عليه. مع ذلك نزل من المسناة، وقد جرح النهر الساكن قلبه، فكر بوليد (سيودي بنفسه إلى تهلكة أكيدة). كان قد قرأ ملفه قبل قليل وبالتحديد تلك قصة (المحقق). وقد وجد في هذا التحذير عذرا لزيارته في هذه الساعة المتأخرة...رأى الضوء الخافت المتسلل من شقة وليد القاضي (ماذا يكتب عني الآن؟). قرأ يعقوب القصة ثلاث مرات: لم يشغله الموظف الذي انتزع من حياته بصدفة محضة، وصيغة التحقيق التي صيغت بجمل حوارية جارحة، إنما شخصية المحقق الذي هزم حين هزم ضحيته.(لا يشبهني أبدا ذاك المحقق.. على العكس، فهو أسمر نحيل ريفي الملامح... لكنه مثلي يهرب من نفسه إلى سير الآخرين). صعد يعقوب السلالم تاركا المصعد الكهربائي وهو يفكر بصورته في عين هذا الرجل الذي يكتب كالسحر ممسكا روحه من أضعف نقطة فيها: لحظات الوحشة التي تداهمه حين يلقي الملفات ويغادر قبو التعذيب مخترقا أضوية الليل بسيارة مسرعة إلى أقرب بار، (كأس كحول ثقيل يلغي المجزرة.. آنذاك يخرج الرجل الشاحب الذي غص بريقه: ما الذي تفعله يا ابن القحبة)!؟

- أكاد أختنق يا وليد !

- وأنا أيضا، ما كان عليك أن تعيدني لأعيش هذا الكابوس !

- ربما كنت أنانيا حين شعرت فجأة بحاجة تشبه التنفس لرجل أبوح له بما في قلبي..

- لهذا السبب أعدتني، لتقص علي هذه الكوابيس؟

- أنت الذي طلبت العودة يا وليد. لمتني لأنني أنقذتك من موت سريع لأدفعك إلى موت بطيء في المنفى؟! قلت لي إنك لم تكتب حرفا واحدا طوال سنوات منفاك في حين أن الرواية التي تخيلتها تحدث الآن وعليك أن تتابع فصولها حتى ولو نالك بعض من دمارها.

-لا أستطيع أن أكتب شيئا وأنتم تتابعون كل جملة فيها.

-بلى تستطيع يا وليد، فلك ذاكرة لعينة تستطيع حفظ الأشياء حتى يحين موعدها! وبالمناسبة هل تذكر قصة المحقق؟

-...

لم يقل وليد نعم ولم يسأل الآخر كيف عرف القصة، فلا بد أن المخبر نفسه وضعها أمامه مع خطوط حمراء.

- لا تخف يا وليد من سؤالي التالي: لم أنت مشغول دائما بهذا الموضوع الشائك؟ أمامك أمور كثيرة أجمل وأسهل لن يضايقك حولها رقيب : الحب، وأنت خبير به، وبالمناسبة كيف هي؟

- من؟

سأل وليد مستفزا لأن الموضوع دخل صلب حياته.

- إياها.. سيدة الواحة.

- صحتها أفضل.

قالها يريد أن يحسم موضوعا لا يريد الخوض فيه.

- أعرف ذلك ولا اقصد، إنما (قالها يلتفت مبتسما بتخابث لغرفة النوم) في السرير؟

- لا أسمح!

صرخ وليد بحدة.

- لم لا تكتب عنها بدلا من قصة المخبر هذا؟

كان تواقا لسماع قصة حب كما في الأفلام. حب ومصاعب ودموع وقبلات ونهاية سعيدة، لكن وليد قطع ذلك بحزم:

- تستهويني الشخصية التي تستفزني أكثر من التي أحبها لأنها تقطع كلمتي وقبلتي.

- عجيب!

- ما العجيب؟

- أنت أيضا؟ كنت أظن أني الوحيد...

- أنا أكتب فقط، أما أنت...

يستغرب يعقوب وهو يبحث عن السبب الذي يجعله يتحدث بهذا الوضوح والطلاقة مع كاتب يتتبع أسراره ويوجدها أحيانا. يعلل نفسه بأن الكلمات وحدها غير مؤذية، وأن بإمكانه ترويض هذا الكائن الخائف والنزق. كان على وشك أن يقول (أنا) حين اهتزت يده مع صوت انفجار آخر.

* * *

على حافة المخيم، في بيت ضائع كتلك البيوت التي بنيت على عجل وفي زقاق ضيق ساحت فيه مجاري المياه اختار الغفاري وكره. للوهلة الأولى يبدو الوكر من الخارج مثل كل بيوت العمال المياومين المنتشرين في المنطقة، حائط من الباطون بني على عجل، نشرت ملابس العمل على حائط السطح. وبعد الباب الحديدي الأسود ممر طويل وضيق اغلق بباب حديدي ثان، تليه غرفة طويلة للإقامة والنوم من أرض

كونكريتية ملساء فرشت حولها حصران و أفرشة تنام تحت وسائدها رشاشات شتاير وقنابل يدوية . بعد شهرين من عمل شاق وصامت بإشراف (أبي زبيدة) البناء أبا عن جد حفروا وشيدوا مخبأ تحت أساس البيت يتصل بفرن الخباز في الزقاق المجاور، ولإخفاء مدخل المخبأ أقيم جدار آخر في المطبخ مسح بالتراب حتى لا تبدو آثار البناء الجديد. من بين الجدارين ممر يتسع لواحد فقط، وبعد خمس درجات يدخل المخبأ. على ضوء مصباح مصفر ورائحة كبريتية حارقة تبدو أجهزة الاتصال الثنائية (ووكي توكي) وصفائح غاز الكبريت وغاز النتريك التي جمعت من الصاغة والعبوات الفارغة.

خطة التحرك صعدت بحيث تستهدف المتفجرات عدة أهداف في وقت واحد: فندق محجوز للخبراء الأجانب، مجمع لسيارات النجدة، حاجز تفتيش عند مدخل المدينة الشمالي، مدرسة لتدريب ضباط الشرطة...

تمر أيام، وأحيانا أسابيع دون عمل فيحن حمزة لزوجته الشابة التي لم ترتوِ بعد ويلوج طول الليل مستغفرا ربه لاصقا أسفل بطنه على الطابوق البارد ليبرد حرارة الشهوة، ويبكي خلال الصلاة متذكرا اللحم الطري لابنه البكر الذي سيتركه يتيما. وينود طلال مكررا أدعيته مغالبا حنينا إلى والديه فينهر الغفاري ضعفهم:

- بمؤمنين حقيقيين يمكن هزيمة الطاغوت، وبالقوة وحدها...

يقول لمريديه، وعندما يسألونه:

- وماذا بعد ذلك.

- سنترك الأمر لما بعد ذلك، فالمهم أن لا تستقر الدولة.

الخـوف من المندسين علم الغـفـاري أن يتـجنب التنظيم الهـرمي التقليدي، فلم يكن التوسع هاجسه، لذلك اعتمد صيغة الخلايا النائمة المكونة من مجموعات متفرقة ومنقطعة عن بعضها، كل خلية مكونة من أشقاء وأولاد عم وأقارب (الأسر) يمارسون حياتهم الاعتيادية بانتظار المهمة التي ستوكل لهم في مكان وزمان لا يعرفونه. بعضهم مخبرون مدنيون يزودونه بالمعلومات عن الأهداف و البعض الآخر (الفرسان) الذين تدربوا في الجبل أو في معسكرات الجيش النظامي. لا يطلع الغفاري أحدا على مجموعاته، ولا حتى السيد الحائري نفسه (خليه يدع لنا!) يقولها بسخرية خفية. هو وحده يعرف (الأسر) ويستخدم مساعده (حمزة) للاتصال بين المجموعات في مكان عام. حيث يوصل الرسول الأمانة في حقيبة أو سلة خضار مع خارطة الهدف.

في الوكر يعد الغفاري العبوة بنفسه. يصنع الفتائل من الأقمشة البالية ويعبئ البارود الأسود في علبة أسطوانية يسد أحد طرفيها بصليب من الورق ويملأه بفلمنات الزئبق ويضع الصاعق في الجزء النحاسي من مصباح التنكستن...الكل صامتون وهم يراقبون بأعصاب مشدودة هذه الأصابع النحيلة التي تلعب بالمتفجرات بدقة وبطء وقد خيم الصمت وتتابعت الأنفاس المكبوتة خيفة الخطأ الذي سيكلف الحياة، بينما هو يحضر الديناميت من زيوت الشحوم الحيوانية ونشارة الخشب ونترات الصوديوم وبالكاد يمسح قطرة عرق نزلت على حاجبه....

لكي يتأكدوا من التجربة قال:

- سنجربها في الميدان نفسه!

... واحد وقف على الرصيف الآخر، سيصفر حين يصل حارس،

وثان وقف في أسفل السلم ممسكا مسدسه طاويا إصبعه على الزناد وقد تركزت الأنظار على تلك البقعة من الإسفلت التي أنارها مصباح الشارع، بقعة خالية، لكنها تنبض بالترقب... في أعلى السلم كان الغفاري نائما على بطنه يمد السلك الرفيع بأصابع دقيقة بطول بال كأن الزمن بكامله ملكه، وبين آونة وأخرى يمد أصابعه كما الجراح :

- الشريط !

ويربط السلك بصمام الأمان وقد نزع مسمار التفجير بهدوء بارد ثم يربط الطرف الثاني بباب هذا الواشي بجماعته.. يعرف الغفاري باستطراد قسوة التعذيب الذي تعرض له قبل أن يتحول إلى واش ومندس لكن الوقت لا يعطيه فرصة للتسامح، فلكي يصنع جيلا من الشهداء عليه أن يلغي الظلال الرمادية بين الجهاد والخيانة وهو يعد له المقتلة: إنه يستحقها! وقد رسم التفخيخ ليباغت رجلا غافلا يعتقد أنه وصل إلى نقطة الأمان حالما وضع المفتاح بباب بيته. يدري الغفاري ويصارح مريديه بأن كل هذه العمليات لن تخدش إلا جلد الدولة، وهي مجرد تمارين أولية، لكنه يريد إدامة الإضطراب هذا بأمل أن يزداد المتطوعون، وربما يأتي متطوعون من أقرب المواقع الى الرأس، آنذاك سيضرب ضربته.

* * *

من الريف الذي حولته موجة الجفاف الثالثة إلى أفق من الحطب غطته ألسنة الرمال، استدعى مجيد صبيان العشيرة الذين وقفوا مذهولين أمام صف السيارات السود المبردة القابلة لأن تتحول بلمسة زر إلى زوارق بخارية أو طائرات حربية.

- إذا حدث لرئيسنا شيء، لا سمح الله، سيأتي الأعداء من كل صوب، .... أمهاتكم وأخواتكم أمام أعينكم ويذبحوننا حتى آخر رضيع.

صفهم طابورا طويلا وأخذ يتلمس بعصاه بطونهم و زنودهم واختار منهم فوج الحماية الذي سيحل محل الفوج السابق الذي اخترق الغفاري حصانته.

بعشر شاحنات أخذوا الشبان الذين لم يروا المدينة ولم تلوثهم دسائسها إلى معسكرات معزولة. وبإشراف مدرب ألماني أدخلوا دورة قيادة السيارات كمتسابقين يجتازون بعضهم و يتقاطعون بحركة مدوخة، وينقذفون من السيارات وهي في أقصى سرعتها ليأخذوا مواضع الرماية على جانبي الموكب.. تدربوا على الجودو والكاراتيه.. صرخاتهم حين يقفزون ويركلون الهواء تفزع الطيور في أشجارها والفئران في جحورها، وضربات أيديهم تكسر الطابوق كما علمهم المدرب الكوري الذي يلبس الحزام الأسود. التمرين الأهم هو الرماية على حائط كونكريتي تمر من أمامه هياكل آدمية سوداء ومتحركة.. الجميع كانوا يصطفون وراء السياج ويبدأون إطلاق النار باتجاهين وبمسدسين في وقت واحد.. وقوفا، انبطاحا، خلال التدحرج على الأرض...

بعد ستة أشهر من التدريب خرج الصبيان من المعسكرات بأذرع مفتولة وقبضات مشدودة جاهزة للكم. وقد برزت عظام وجناتهم وفكوكهم من التوتر بينما تدور العيون بحثا في جميع الجهات عن الخطر الداهم القريب في كل حركة حولهم. قسموا إلى أربع دوريات.. كل واحدة تقوم بمهمتها ليوم وليلة وتأخذ استراحة لليلة ونهار، ثم تمارين لياقة ليوم ونهار واستراحة ليوم وليلة.

كانوا يدورون حول الرئيس الذي ما عرفوا أحدا غيره وسموه (الأب)، لا يهمهم ضيق الوزراء ولا الدبلوماسيين ولا الصحفيين من حركاتهم المدوخة ونظراتهم القلقة المرتابة، فما يهمهم هو (الأب) الذي تعلقت حياتهم به ولا يهمهم أحد غيره. هو الذي أنقذهم من عيشة الحيوانات في ذاك الريف المجدب وحولهم إلى أدميين في مدينة كل ما فيها مباح لهم. حياتهم معلقة به وبـ(عمهم) مجيد الذي يأخذون الأوامر منه. كانت مهمتهم محددة: فالمدينة التي وصلوها فاسدة حتى العظم: نساؤها عاهرات أو راقصات في التلفزيون ورجالها مخنثون و قوادون، لكنها مليئة بالغدر والمخاطر. ما من صديق فيها ولا أمان. لا تغرنكم وجوه الناس وهيئاتهم فخلف هذا العابر المتعثر بخطواته والبائع خلف بسطته وحاملة السلة هذه وذاك المصفق الواقف على الرصيف يختفي غدار يحمل قنبلة أو مسدسا. لذلك عليكم أن تنظروا لكل ما هو حي كعدو يستهدف حياة والدكم الرئيس.

أتخذ مجيد لنفسه منصب (رئيس شعبة الشؤون الشخصية للرئيس) وثبت موقعه في المقعد الأمامي من سيارة الرئيس المدرعة. إحساسه بالخطر يتملكه كما المدمن، لذلك يتضايق من أي حديث يقطع عليه حذره الغريزي. لا يمس الخطر جسده المتأهب كقوس مشدود، فقد هيأ هذا الجسد كساتر لحماية هذا الرئيس. بقامة مستعدة دائما ووجه دائب البحث في الفضاء المعادي المحيط ينظر بطرفي عينيه إلى وهاب وهو منكب على طاولته ليوقع بيانا، أو جالس ملء مقعده ممدود الساقين بوجود ضيف أجنبي أو يستمع بتعبير من الغضب والقرف لتقارير مستشاريه... ينظر إليه ويسأل نفسه: ما الذي يدفعه لافتداء هذا

الرجل؟ الواجب! لكنه يكره تصنيفه كحارس شخصي للرئيس، ف(الرئيس)الذي يحرسه هو رئيس الآخرين، أما بالنسبة له فهو أخ وأب، يتصل برابطة الدم وصحبة عمر كامل تكللت بشعور طاغ بالامتنان لأن وهاب رفعه من ضابط عادي إلى موقع المتحكم بمصائر وزراء وقادة، وقد منحه بيتا في منطقة لا يرتادها غير السفراء وأهدى لوالده مزرعة وبيتا.. هذا الكرم يكلله بدين حياته.. وقبل كل ذلك إحساس بشراكة القدر لرجلين ينامان في غرفتين متجاورتين إن لم يكن في غرفة واحدة، ويأكلان نفس الطعام ومن نفس الصحن ويركبان نفس السيارة.. وفي فترات الراحة التي تتبع التدليك في حمام البخار سيتناوبان امرأة واحدة تعرف كيف تنام بينهما وهما يتحدثان بموضوع لا يمت لهذه المرأة المفروكة بينهما. ما من أحد غيره يعرف عدد الحرس الذين سيحمون الرئيس ولا المكان الذي سيتجهون ولا السيارة التي فيها الرئيس بين صف السيارات السوداء المعتمة الزجاج. وهو الوحيد الذي يعرف أين سيتناول الرئيس طعامه وفي أي بيت سيقضي ليلته. وعند الخروج في وقت لم يحدده أحد غير الرئيس نفسه يبقى مجيد محتفظا بمسافة مترين بينه وبين الرئيس.. مسافة محسوبة بدقة تتيح للرئيس أن يرجع خطوة أو يستدير دون أن يفارقه هذا الظل الثابت المتحفز أبدا ويده قريبة من زناد المسدس.

أحيانا يتبدى الضيق على وجه الرئيس لأن مجيد يصر على أن يكون قريبا منه عند لقاء الزوار الأجانب، خلفه في شاشة التلفزيون حين يقرأ خطابا، حين يوقع اتفاقية دولية... وقد أوشك أن يصدمه مرة حين انتهى من خطابه والتفت إلى الخلف، لكن مجيد تحمل الغضب ولم يزد

المسافة بينهما أكثر من سنتمترات قليلة. الواجب يفرض عليه ذلك وسيفهم الرئيس ذلك حين يهدأ.

أمامه تتسابق السيارات السود وتتقاطع بتلك الحركة المدوخة بينما يطل رجال الحماية من الأبواب المفتوحة ورشاشاتهم في حالة تأهب لأي طارئ. يراقبهم مجيد من موقعه في الموكب ويوجههم بالهاتف النقال:

- إلى اليمين! أسرع!

التوتر والإحساس الدائم بالخطر وراء الأخطاء التي يرتكبها. فقد صرخ مرة:

- نار!

- تتتتتت

قبل أن يلمح كتلة الخرق التي انقذفت على الطريق المسفلت. لم يتوقف الموكب، إنما انعطف باستدارة حادة حول الجثة، ومن وراء الغبار الذي خلفه الموكب رأى وهاب الجثة الممددة على إسفلت الشارع واليد الممسكة بورقة الاسترحام ما تزال ممدودة إليه:

- أكان ينبغي أن يتعجلوا!

- سيحدث هذا كثيرا يا سيادة الرئيس.. المدرب الألماني يقدر نسبة الخطأ بثلاثين بالمئة.

لن يهدأ مجيد حتى يقترب الموكب من بوابات القصر الحديدية آنذاك يلتفت للرئيس في المقعد الخلفي وقد ارتسمت على وجهه سعادة الطفل: (نجونا، وكل شيء مر بسلام!) ويفارق السيارة فيفتح أزرار قميصه ويرخي حمالات الرصاص ويتنفس بعمق وهو يجرع أول كأس عرق بلا ماء.

* * *

بعد الانفجار بأيام عادت ياسمين إلى واحتها منفوشة الشعر مجعدة الوجه كأنها كبرت عشر سنوات. لم يفاجئها الخراب ولا الغبار الذي غطى كل شيء، بل كثرة المسلحين الذين طوقوا المكان واعتلوا السطوح وأقاموا في مكان العازفين خيمة حراسة دائمة وعند مدخله أقاموا نقطة للحراسة على شكل تابوت واقف. وفي باب المركز صورة كبيرة للقائد حاملا رأس السفاح الذي ما زال أعوانه يعملون بدونه كما قال البيان الرسمي...

حين عادت وجدته بانتظارها في غرفة الإدارة، نفس الرجل المربوع القامة المائل إلى البدانة، القصير الشعر والذي قدم نفسه لياسمين (يعقوب) . وقف أمام صورة المضيفة القتيلة التي وضعت في إطار أسود وتحتها بيت من قصيدة كتبها وليد في الرثاء:

غادر الصالة الماء حين غادرت.

تطلع يعقوب للصورة بعين باردة:

- كأنه أراد أن يرثيك أنت.

- من تقصد؟

- كاتب القصيدة هذه: وليد.

- تعرفه؟

- أعرفه؟(قالها ساخرا) أعرف كل كلمة يكتبها وما يريده بالضبط. اقرأي بقية القصيدة:

دقة القلب أم دقة الساعة الآتية .

رجفة اليد إذ ترفع الماء فوق الجدار.

رجفة الماء إذ يفزع الماء

ومضة الانفجار في العين
رشقة الدم في الشفتين
..هذه القصيدة لك أنت.

- ربما.

قالتها وهي تريد أن تغلق حديثا على رجل يتدخل فيما لا يعنيه .

- تعرفين؟ أنت، وهذه الصبية، كنتما دون أن تعلما ضحيتي؟

- أنت! ما دخلك أنت؟

- أنا المستهدف بالانفجار، ومن سوء حظك أن واحتك كانت المكان. أما كيف عرفوا ذلك، فسؤال يوجه لعامليك. واحد منهم أوصل الموعد للإرهابيين.

- مستحيل!

- ما من مستحيل في هذا البلد الملغوم.

- أعرف العاملين عندي واحدا واحدا وقد اخترتهم بنفسي.

- تعرفينهم؟ هذا كثير. تعرفين وجها من وجوههم، الوجه الطيب الوديع، نعم هذا ممكن، لكن الإرهابي الحقيقي هو الذي لا يبدو إرهابيا.

كلام الرجل الغامض وكلماته المشددة الباردة نقلت عدوى الشكوك إليها: من هو المحتمل، المشبوه؟ تجاوزت البنات، فهن لها اكثر وداعة وهي موضع أسرارهن، واتجهت شكوكها أولا إلى الشبان. (معد الاستعلامات)؟ مستحيل، هذا العذب المرح الذي لا يخلو من نكتة اليوم، مستحيل، ولكن صبرا.. لم هو ساهم أحيانا؟ لعله الحب، وهو محق، فمحبوبته لميعه تخلب العقل... لم أذن لا يكون نعمان مسؤول العلاقات، مجامل حد الميوعة، لكنه فضولي أحيانا، لم يرتبك حين يدخل ضيوف هامون؟...

بدأوا يستدعون العاملات في القاعة واحدة واحدة، وبعد كل استدعاء تعود البنت الجميلة شاحبة مخطوفة صامتة تخفي سرا ما أخذ كل حيوية روحها. و ما من واحدة منهن قالت ما الذي حدث لها.

بصعوبة وبطء حذر بدأ الشبان يعودون لواحتهم بعد أن أمضهم التجوال في متاهات البلد القاحلة، لكن لم يعد للمركز رونقه السابق وروحه الحيوية الأنيقة بوجود هذا العدد الكبير من المسلحين الذين يفتشون حقائب الداخلين ويدققون في الفتيات الداخلات بنظرات تجمع الرغبة الوقحة والتهديد. وكانت ياسمين تستخدم كل كياستها لتهدئتهم حين يصفرون كما في الملاهي لمجرد مشاهدتهم ألمانية عارية الظهر تعزف على المسرح أو راقصة فلامنكو أسبانية.

بعد أيام عاد الرجل ببدلة رمادية ونظارة رمادية ليحذرها بصوت يفح من أن المخربين سيستهدفونها شخصيا منذ الآن. لم تبال بالتحذير، لا لشجاعة في الموقف، ولكن لجهلها بجدية الخطر الذي يتهدد حياتها. وكانت تفسر دوافع التفجير بإحالته إلى الجهل والغيرة وتحيل الأمر إلى الزمن ليزيل الجهل المحيط بحلمها، لكنها في حقيقة الأمر تركت الواحة التي كانت مبرر حياتها تتحول أمام عينيها إلى جزء من صحارى البلد. فقد غطى التراب زجاجها ومرمرها ولوحات المعرض التي مضت شهور عليها دون أن ترفع. العسكر الذين احتلوا حدائقه وسطوح بناياته وجدوا فيه واحتهم المثالية لاصطياد البنات ولاختطافهن إذا تطلب الأمر. لذلك لم تعد هذه الثكنة تمت إليها.. تنتظر نهاية الدوام بصبر فارغ لتذهب لشراء بعض الحاجيات في طريقها إلى شقة وليد وقد أصبحت واحتها البديلة. إحساسها بالفراغ والخوف الذي لاحقها منذ

الانفجار الذي نبتت شظاياه في تلافيف روحها دفعها بلا تردد نحو الحب. لم تعرف ياسمين، التي عاشت وأحبت وأخفقت في الخارج دون رقابة الآخرين، حبا محاطا بالمخاطر وتحذيرات الأصدقاء:

- لن يتزوجك أبدا!
- لا تذهبي بعيدا معه! سيريك الأهوال بمزاجه المتقلب.

المخاوف دفعتها للتحدي ,ولأول مرة تكتشف حبا بلا منافع يدفعها للتضحيات . استخدمت مع الحب وسائلها النسائية العملية لكسبه أطول فترة ممكنة .. بروح الدعابة الناعمة غيرت شقته الجهمة فأعادت دهانها بلون أبيض مصفر ووضعت أصيصات نباتات على النوافذ وغيرت ستائر القطيفة المغبرة بأخرى خفيفة الزرقة مرشوشة بورود ناعمة وغيرت شراشف السرير، موهمة نفسها بأنها امتلكته لمجرد أنها امتلكت مفتاح شقته. وفي الفراش تطلب منه أن يشاركها الكتاب وتستثار وهي تسمع صوته وهو يقرأ بوضوح ودقة فتندس بين ساقيه متوغلة فيه بعناد ومشاكسة، وتشهق وقد أحمر جسدها كأنه يتوغل فيها مع صوته.

وبدوره أراد وليد أن يضفي على شقته بعض التعديلات في بداية الأمر ثم وجد أن الأمور البسيطة صعبة ومعقدة.. فلم يستطع أن يسوي شرشف السرير خاصة في الجانب المحشور عند الحائط ولم يعرف كيف يزيل الاصفرار من المغسلة، وساحت حوله المياه عندما أراد أن يغسل البلاط القذر ولم يعرف كيف يصرفها. حين تعب من كثرة المياه وفوضى الأشياء حوله جلس على السرير مقرورا وقد قرب ركبتيه من صدره ((لا بأس فالمرأة تحب دائما ترتيب شقة أعزب وحيد)).

دائما كان ينتظرها في موعد قدومها الثابت في الرابعة مساء..

مقرفصا على سريره وعيناه ثابتتان على نفس الصفحة من كتاب أريك ريمارك وعلى نفس الفقرة من الرواية ((كان نهارا صافيا بلون الذهب)). يذهب عدة أسطر بعدها، وأحيانا يعبر إلى الصفحة التالية، غير أن عينه تزوغ نحو الباب ويشرد ذهنه إليها ((ستصل بعد قليل)). هذا هو صوت المصعد.. سيدهش الجيران من رؤية هذه المرأة الطويلة بنظارتها السوداء وحمرتها الداكنة، وسيدققون في تفاصيلها بفضول وقح مستغربين من كثرة الخواتم الفضية في أصابعها النحيلة الطويلة وكثرة القلائد التي تبعث رنينا متصلا مع كل حركة من حركاتها وستستدير متحاشية نظرة العجوز الفضولية التي سألتها مرة إن كانت ذاهبة لشقة الأعزب، لتسوي خصلة الشعر النافرة، لن يقف المصعد.... لم تأخرت؟ لا بد أن واجهات المحلات شغلتها وهي تحدق في معاطف الفراء والبيجاما الحرير وفستان السواريه الأسود وتقول لنفسها ساخطة ((لم لا يتعلمون ترك فراغات مريحة في الواجهات!)) ... لقد وصلت الآن السدة الترابية ونظرت عاليا إلى نافذة شقته علها تراه وتلوح بيدها غير إنه هنا على السرير مقرفص وعينه ثابتة عند نفس الجملة ((كان نهارا صافيا بلون الذهب))... كما توقع سمع دورة المفتاح في الباب ووقفت وهي تبتسم بلوم على هذه الفوضى، وقبل أن تأتي إلى السرير لتقبله قال لها بحزم:

- أقفلي الباب بالمفتاح.

قالها كأنه يغلق الباب بوجه ذلك الفضولي الذي سأله: (كيف هي في السرير؟). غافلة كانت كعادتها عن مراقبيها كأنها ما تزال هناك في باريس أو لندن. قبلته .. مرة، مرتين ثم بدأت فتح النوافذ لتهوية الشقة من رائحة التدخين وتفرغ منافض السجاير ثم تجره عنوة من السرير:

- كسول!

تمسد الشراشف أو تضع ملاءات جديدة.

في داخله إحساس مريك بأنهما ليسا وحيدين. هناك ثالث لا يريد أن يحدده أو يسميه يريد أن يتغلب عليه بالكتابة.

حين جلس إلى طاولة الكتابة سارت في الشقة بخطوات خفيفة بطيئة غير راغبة في تعكير لحظات الإلهام المقدسة. من بعيد تنظر بشفقة لتجعدات وجهه وقد استعصت عليه الفكرة:

- لم تكتب عن موضوع تعرف أنه سيؤذيك؟ أمامك ألف موضوع غير المخبر والمعذب وقبو التعذيب: الحب، الأمومة، الفراق... مواضيع لا تزعجك، ولا تزعج أحدا ويحبها القراء!

(عجيب!) كيف توافق الأمر لتطرح نفس السؤال؟

-.. هكذا أنا.. اكتب عما يزعجني فقط. أريد أن استولي على الكابوس المستولي علي.

حين يرمي القلم يائسا من الإمساك بموضوعه تحمل له قهوته وتجلس أمامه في الجانب الآخر من الطاولة لتسأله تلك الأسئلة الطفولية:

- ما الذي استعصى عليك.. الفكرة أم الكلمات؟ هل تتذكر الواقعة أم تصنع المشهد من مخيلتك... هل أنا موجودة فيما تكتبه؟

وكانت تصغي إليه بانتباه محبب وهو يروي لها صعوبة وصف امرأة تعبر الشارع...

حماسته في الحديث عن مخاوفه استثارت مخاوفها فأرادت أن تطفئ الخوف بالحب. بأنفاس لاهثة وحركات خرقاء نزعت ثوبها اليوناني الأبيض الهفهاف وبدأت تنزعه ملابسه. تذكرت النافذة فأغلقتها وقفزت

إلى الفراش وهي ممسكة بعضوه.

- هل تابعك أحد حين جئت؟

توقفت لحظات لتتذكر:

- كيف لي أن أعرف؟!

شدت نفسها إليه وهي تلهث كأنها تهرب. مستلق على قفاه ممسك خصرها ليشدها إليه، لكنه غائب عنها، يتابع دوي المصعد الكهربائي حتى توقف في نفس الطابق (هاهو آت) ! أنفاسهما كانت جارحة وهما يقتربان بتعجل من لحظة الذروة الموعودة مع أنه يتسمع وقع خطوات متوهمة تتوقف... فقد الليونة والحرارة وبقي جسده ممدودا بتصلب وهو يراقب ظلا على سقف الغرفة.

- أحبني! أحبني! أحبني!

رددت وهي تضع يده على حلمتها.

- يدك باردة!

خائفة كانت، خائفة من خوفه أيضا، لكنها أكثر اندماجا منه، تؤجل الذروة وهي تنزع نفسها عنه وتقبله لتغلق فكرة تشغله.

- لم لا تحبني؟

- أحبك!

قال وقد وجد في الحديث مناسبة للتخلص من ثقل جسدها.

بعد نوبة الحب الباردة توتر وليد فأراد أن ينغص لحظات الصفاء بينهما بفتح الحديث عن علاقاتهما. بدأ هو بالحديث عن نسائه واحدة، واحدة، والمشاكل التي عاشها بسبب غيرتهن. تحدث ببرود كأن كل ذاك الماضي لا يعنيه.. كل ذلك كي يجرها، هي أيضا، للحديث عن علاقاتها السابقة:

- في البداية بدا لي عازف السنطور اليوناني جميلا مثل آلهتهم، سوى انه اكثر نحولا، شعره أجعد مثلهم، طويل الأنف حادا، حالما موجوعا حين يعزف في المطعم. كنت أرثي له من صوت الملاعق الذي يقاطعه وأحاديث الجالسين. حين طلبني لرقص ذهبت إليه وهو آت إلي. كان فنانا حقيقيا في عزفه وحركة جسده عند الرقص.

يهتاج وليد في سريره كلما توغلت في مديحها للآخر وتأكل الغيرة قلبه فيعض شفته، ومع ذلك يستحثها للحديث شامتا بها وبنفسه:

- في الجنس أيضا ؟

- أكثر. لديه مخيلة عجيبة في خلق أجواء الحب. يملأ البانيو بالروز الأحمر ويشعل الشموع حولنا ثم نغطس سويا حيث يحب أن يدخن الحشيشة ويلف لي سيجارة منها...

(قحبة) يقولها بصوت شبه مسموع ويرفس الغطاء وهو يدخن بنهم. ما يغيظه أكثر هو البراءة والاسترخاء اللذين تتحدث بهما وهي جالسة على الكرسي بالمقلوب مرتدية قميصه وقد شبكت ذراعيها على مسند الكرسي فيلون الضوء الساطع الآتي من الشباك وجهها وهي ثملة نصف مغمضة العينين كأنها تحدث نفسها بلذة حزينة متجاهلة وجوده كليا .. في هذه اللحظات يشتهيها أكثر ويريد أن يحطم في جسدها آثار الآخرين التي تعذبه.

- لم تركته إذن؟

- أنا ؟ (قالتها باستنكار حاد) كنت قد سلمته كل حياتي، حتى وهو يبدد ما تبقى من نقودي. هو الذي كان يغيب عني أياما، بأعذار باهته، وكاذبة أحيانا. صرت مثل حريم في بيته، حريم حتى دون طعام.

مقرفصا على السرير بقي يستمع إليها مستثارا، وكلما واصلت اعترافاتها يشعر أنه امتلك مفاتيح غرفها المغلقة فلا تبقى فيها أسرار غامضة تجذبه إليها، بل تنفصل عنه وتتحول إلى واحدة من شخصياته الروائية.

- التالي؟

- التالي كان إنكليزيا يكبرني بتسع سنوات. كنت على الحصير حين أحببته. أحببت شعره الأشيب وروحه العائلية وأحببت بيته الريفي الفاره، كان لي أول الأمر أبا وحبيـ....صعب قول ذلك. من أجله تركت المدينة وذهبت إلى الريف الموحش في الشتاء. لقد فقد زوجته في حادث سيارة، وتركت له مراهقا في الرابعة عشرة، يعاملني بجفاف ويسميني (الأجنبية). مع ذلك عاشت الزوجة الميتة معي.. سيارتها المحطمة بقيت على طريقنا، حقائبها فساتينها بقيت معلقة في دواليبها أدوات زينتها بقيت على طاولة الزينة، عطورها كانت تطوقني، شاركتني سريري حيث ناداني باسمها حين بلغ الذروة معي في السرير. تجاهلت ذلك للمرة الأولى. فتكرر الأمر ثانية. غضبت وهددته: قرر إما أن تنام معي أو معها، فأنا هنا في هذا السرير، أما إذا أردت أن تنام معها، فقبرها على مسافة دقائق... اكتشفت في النهاية أنني بديلة فاشلة لها.

- الانفجار شرخ حياتي، أو ما تبقى منها. في تلك الغيبوبة القصيرة التي أعقبت الانفجار زمن مجهول وانقطاع غامض ومقلق لا شفاء منه يحوم حوله الموت الذي بدأ يرعبني في لحظات وحدتي . كاد هذا الانقطاع يدمر حياتي حتى التقيت بك...

كل الذين تحدثت عنهم بدوا له حتى الآن بعيدين مثل شخصيات روائية قرأها، الوحيد الذي لا ينمحي موجود هنا.

- قبلي كان ذاك النغل الذي وجد في المزبلة ملفوفا بخرقة؟!

كانت تتجنب الحديث عن صديقه اللدود قاسم فنجان، ومع ذلك جرها للحديث عنه مستغلا الثمل الذي يطلق لسانها:

- في لحظة الفاجعة فاجأني قاسم مقدما نفسه كمعجب مجهول.. وقف أمامي دون أن يأبه بالشلة المحيطة وقال دون سابق معرفة:

-هذه القصيدة لك!

تسمع بسخط وسخرية عصبية. و ما أن تمتدح شيئا فيه، براءته أو جرأته مثلا، حتى ينهض وليد من استرخائه ويتوتر كل شيء فيه:

- إنه لا يكذب فقط، إنما هو بحد ذاته كذبة!

تلومه على قسوته هذه، فليس من عادتها أن تهين شخصا ارتبطت معه بعلاقة. فيرد بأنه لا يريد الحديث عن هذا (مشيرا بيده باستخفاف لقاسم فنجان) أكثر من خمس دقائق في الشهر. لكنه سألها بصوت أجش متعمد البرودة:

- كيف هو في السرير؟

كانت ثملة قليلا فسألته:

- من هو؟

- قاسم؟

- قوي كحصان، لكن كل حركة فيه تجرحني كأن في جسده زجاجا محطما.

أحبت هذه الغيرة المكابرة واستمرأتها لأنها نقطة الضعف التي ستمسكه منها.

من جانبه استدرجها وسجل في ذاكرته كيفية الكتابة عنها. ستكون موضوعه الذي لا يزعج أحدا غيرها.

* * *

تلمس يعقوب مسدس البراوننغ في حزامه ودخل سيارته المخبأة في مرآب العمارة الخلفي واستدار بسرعة تاركا نافذة العمارة المضاءة وذاك الجالس حائرا أمام ورقته (إنه يفكر الآن بي) تذكر تعبير الخوف والقرف على وجهه (لن يكتب كلمة واحدة عن ذلك)، ضغط دواس البنزين بقوة فبعثت العجلات صفيرا حادا. (تأخرت) وأسرع تاركا خلفه النهر والهواء الرطب والشجر المعرش مثل أشباح غامضة . قناع الحزم والقرف لازمه وهو يقطع الشارع المستقيم المؤدي إلى مديرية الأمن. سيطرت عليه وهو يدخل الشارع المضاء بكشافات لها لون الشحم الأبيض عصبية بلا عاطفة تستحثه لأن يفعل شيئا شديد القسوة، أن يغرز مخرزا في لحم آدمي، يقطع لسانا بسحبه بكلابتين، أو أن يصدم بسيارته المسرعة جدار الكونكريت العالي المحيط بالمديرية. مسه ضوء السيارة الداخلي مثل يد بيضاء باردة، ومع ذلك فتحه لكي يتعرف عليه الحرس الواقفون خلف الحواجز الكونكريتية التي بنيت حديثا ضد السيارات الملغومة التي يستخدمها المخربون. انفتح الباب الحديدي فمسه كالجرح عطر الياسمين في الحديقة التي ينظمها ويشذبها المساجين الذين أدلوا باعترافات كاملة. سمع وقع حذائه وهو يقطع صالة الانتظار التي تتوسطها صورة القائد ممسكا برأس السفاح، تردد قليلا قبل أن يدخل غرفته (ملفات ملفات ملفات! سأموت مدفونا تحتها). استدار نحو الباب المجاور لدورة المياه.. باب عادي مثل أبواب الغرف الأخرى، مطلي ببويا بيضاء. ما إن اتجه إليه حتى قفز الحارس أمامه ليفتح قفل الباب الحديدي. نزل السلالم بخطوات خافتة وهو يحني قامته كي يتجنب السقف الواطئ.

فاجأ مجموعة الحرس الخافرة وقد تركوا المساجين معلقين بالخطاطيف وجاءوا إلى صالة الاستراحة ليراقبوا دورة آسيا بكرة القدم. قفزوا من أسرتهم ومقاعدهم حين رأوه وتناولوا العصي وأجهزة الرجات..

- خليكم هناك!

صرخ يعقوب وهو يدفع أبو عبدو خلفه.

- خليكم حتى يدخل الأعداء وينكحوكم انتم وزوجاتكم على الخوازيق.

أول ما فاجأه رائحة خانقة تشبه رائحة قبر رطب .

- هواء!

صاح ففتحوا نافذة جانبية جاء منها عمود من ضوء مصفر فارتعش من لمسة الضوء والهواء البارد هذا الشاب العاري الجالس مائلا على العارضة الخشبية وقد تدلى رأسه المعصوب. كانوا قد كبسوه في وكر حزبي مع زوجته وابنه الرضيع وآلة رونيو ومسودة بيان شيوعي.

- لم يعترف؟

سأل يعقوب أبو عبدو بحدة.

-حتى الآن...

- طبعا، لأنكم تنتظرون نتائج دورة آسيا.

انتزع العصا من يد أبو عبدو، فك أزرار جاكيته وبدأ يدور حول السجين المكبل بخطوات واسعة فتيقظت حواس السجين: حرك رأسه متابعا وقع الخطوات الثقيلة واتسع منخراه ليتابع عطر (ريف دور) الذي طوقه وارتعشت أذناه وتقلص جسده بانتظار ألم مجهول. يعرف يعقوب سجله عن ظهر قلب:عامل نسيج حديث العهد بالحزب، ومع ذلك سرق

طابعـة وآلة رونيـو من إدارة المعـمل وأقـام في بيـتـه وكـرا يطبع فـيـه منشورات تحرض العمال على الإضراب:

-قلت إنك شيوعي؟

سأل يعقوب بصوت عـال ليقطع فترة الصمت المحرجة بينهما. فرفع السجين قامته واستدار برأسه ليواجه محققا لا يراه:

-نعم، الكل يعرف ذلك...

تعجب يعقوب من هدوء السجين رغم هول ألمه. فـأكتـافـه المسودة الزرقاء تؤكد أن الحمير نسوه معلقا طول المباراة.

-أنا لم أخف ذلك عنكم.

التقط يعقوب هذه ال(عنكم) والطريقة الهينة التي قالها بها دون أن يرفق ذلك بشتيمة، التقطها كبداية ضعف تستحثه للعمل رغم أنه في دخيلته يكره ضعف ضحيته.

سحب كرسيا وأداره في مواجهة السجين متكئا بيديه على المسند وهو يراقب من الأسفل قدميـه المتشابكتين تحت المصطبة، وعضوه المنكمش المحصور بين فخذيه وشعر العانة والبطن التي تنبض بقوة وتسارع من تراكم الألم والخوف والترقب وشعر الصدر الكثيف الذي حوله عمود الضوء إلى مجسات حيه: (ما أرخص الإنسان)! فكر يعقوب وقد تقلص جسده من هول فكرة أن يكون في محل هذا الكائن الهش المهيأ للضرب (أتوجد حقا فكرة تستحق كل هذا العذاب)؟

- لماذا، اعني لم أصبحت...شيوعيـا؟

-كنت هكذا منذ صباي.

-لأن أباك أو اخوتك...

-لا، لا أبي ولا اخوتي يؤيدون فكرتي.

-إنما؟

-لأني وجدت كرامتي، والعمال الذين أنا منهم، في هذه الفكرة. إنها الحل الوحيد لذل الفقر.

-كذب. حميد ناصر قائد، ولكنه ليس فقيرا، بل لديه قصر على النهر وسيارة مرسيدس، ولم يسجن مرة واحدة، بل يترككم هنا على المصطبة، بينما يتمتع هو بمصايف البحر الأسود في روسيا.

-ليس الأمر بهذه السذاجة. فالشيوعية لا تطلب من معتنقيها إلقاء ثرواتهم في البحر ليثبتوا صدق اعتقادهم. وقد كان الشهيد رحيم ابن عائلة ثرية...

فجأة تسلل الملل والحموضة إلى يعقوب وهو يسمع هذه القصص المكرورة، فأعطى بإصبعه إشارة إلى التلفون الذي أمامه:

- تررررن تررررن، تررررن تررررن.

- نعم هاهو أمامي...لم يعترف حتى الآن... زوجته وابنه؟ (تفحص يعقوب الوجه الذي أنشد بقوه وهو يستمع للمكالمة الوهمية) أكيد أكيد، إذا لم يتجاوب...

- أنت وعدت نفسك بأن تكون البطل الوحيد بين رفاقك؟

-...

- هل لديك فكرة عما ينتظرك من عذاب؟

هز رأسه (نعم) وبلع ريقه.

لم يقل الحقيرة أو البربرية أو نذالاتكم كما هو مألوف. وبدأت مخيلة يعقوب تتحرك بسرعة، تتلبس من وراء الخبرة الضعف المختفي

وراء هذه الجسارة والصلابة: ما الذي سيوجعه أكثر؟ يدرك تماما أن رتابة التعذيب ستساعد المعذب على تعوده والتغلب عليه، ولذلك عليه أن يبتكر في كل مرة شكلا جديدا من الألم والصدمات لم تكن بالحسبان. ولم تكن مخيلته تسعفه دائما، إنما تتوقف على طبيعة مزاجه، فحين تحتدم روحه سيخاف من نفسه لأنه لن يعرف غير الضرب بكل قوته وتفلت منه أعصابه حتى تموت الضحية بين يديه حتى وإن استسلمت، ولكن بعد ربع عرق وقيلولة ستنتابه أريحية عجيبة ويلعب مع ضحيته بين التعذيب والمزاح حتى يضحك الضحية والمتفرجين. يجرب الرجات الكهربائية بدرجاتها المختلفة ويسأل المعذب في النهاية:

-ماذا تشبه!

-السقوط من عمارة عالية ثم التوقف فجأة قبل صدمة الأرض.

وجرب العصا الكهربائية (جسدك سيصبح عدوك) وقطرات الماء على رأس حليق (رصاصات تأخذ للجنون بدلا من الموت)... مع التحدي يتألق خياله وتلمع عيناه من غبطة جنونية فيراهن ضحيته:

- حلاقة الجنتلمان، الدغدغة بالكهرباء، الفلقة... كل ذلك كان مزاحا..الآن جاء دور زوجتك وابنك، كم عمر المحروس؟

وفتح يعقوب ساقيه وفرك خصيتيه وقد تملكته غبطة وحيوية مفاجئة: (لابد للقصة من نهاية واضحة) قالها كمن يرد على وليد.

سار على مهل في الممر الواطئ السقف المضاء بمصابيح مشبكة بالحديد يتابع وقع خطوته على الإسمنت والظل الدائر حوله، ودون أن ينظر على جانبيه يخمن الوجوه الداكنة خلف درفات الزنازين الانفرادية: أطباء مدرسون جنرالات رجال دين وزراء سابقون. كلهم أكملوا دراستهم

إلا هو المكتوب عليه أن يدخل مهنة الموت هذه، مع ذلك يتابعون خطواته بدقات قلوبهم لأن مصيرهم معلق بهذه القبضة المشدودة.

.. قرر يعقوب أن يضرب بتأن ولا يفقد أعصابه لأنه يريد أفراد هذه المجموعة، التي ألقي القبض عليها في جامع، أحياء حتى يعترفوا على مصدر الأسلحة. خوفه يمسك بكل عصب منه، فالأسلحة التي عثروا عليها مدفونة في المقبرة، أخذت من مخازنه، ومع ذلك عليه أن يبحث عن ضحية، وضحيته هذا الرجل الذي صعد بغمضة عين إلى منصب المستشار. بليد وعنيد ويصلي في الجامع مع ابنه، رافعا يديه بدعاء طويل لا يعرف أحد بغيته من الله. الوقت ضايق يعقوب فأمامه يوم ونهار فقط حتى يوم الخميس، الموعد الثابت لتقديم قائمة الأعداء للرئيس. شد العصا بقبضة يده وطوح بها في الهواء فبعثت صفيرا حادا فارتد مساعده الصغير إلى الخلف وقد مرت العصا أمام عينيه. توقف على مسافة محسوبة من جسد السجين المكبل. مط جسمه ورفع الخيزرانة عاليا ثم هوى فانتفض جسد السجين مثل دجاجة ذبحت، لكنه توقف ملتفتا لمن حوله بغضب:

- خراء.. من هو النجار الذي صنع هذه العارضة؟(وضع العصا عند مؤخرة السجين) كيف يمكنني أن أضرب وحضرته أعلى من كتفي؟

العارضة الجديدة التي ربطت عليها قدما السجين كانت تضايقه لأنها بقربها إليه تجعل مسار العصا قصيرا، لذلك يضطر لاستخدام ضربات جانبية منحرفة لم تتعودها يده. نادى الجلاد الصغير الواقف مرتجفا على حافة الدائرة:

- تعال جرب بدلا من الوقوف ممتعضا كمن يشم خراء!

صغير جدا على المهنة، بعمر ابنه محمود فكر يعقوب وهو يراقب الصبي النحيل الأكرت الشعر الذي لم تنبت شواربه بعد ولا تفارقه السيجارة، ومع ذلك أثبت كفاءته حين وشى بوكر عند جيرانه.. كل من حوله يسميه (ابن عواشه !) حتى لو لم يقلها بلسانه.. ففي نظراتهم الصامتة، بل وحتى في الفراغ بين أحاديثهم المبطنة كان يسمع هذا النداء اللجوج: ابن عواشه! بتطوعه مخبرا أراد شيئا من الحماية وسلطة يواجه بها الناس الذين لا يكفون عن إذلاله.. هاهي السلطة الآن مجمعة في هذه العصا بيده. ومع ذلك فهو متردد. الترقب الوحشي لمن حوله وهم يستحثونه:

- لا تخف.. كن رجلا.. جمد قلبك أضرب!

.. دفعه لأن يتقدم خطوة داخل الدائرة. عضلات يده متصلبة وفي داخله وازع يمنعه من ضرب شاب لا يعرفه ولا يكرهه، لكنه كره ضعفه، وقبل ذلك ضعف المكبل الملقى تحته. ضعفه ينمي الرغبة في الثأر من أي كان من هؤلاء الذين ينظرون إليه (.. ومع ذلك فأنت ابن عواشه) فاندفع خطوة أخرى.. شيء من مجد كونه قد تسلط على إنسان عاجز مكبل أمامه جعله يرفع العصا عاليا فوق، وكونه محط أنظار حزمة من رجال أحاطوا به وينظرون له بترقب:

- أضرب!

وفي زاوية القاعة البعيدة تكدس طلاب صغار ملتحون بعمره، ومع ذلك يخافونه .. ولذلك أراد أن يقطع تردده بالقيام بفعل قد تقرر مسبقا خارجه وفي داخله، وما كان عليه أن يفكر فيه طويلا، فشد يده وصرخ طويلا مثل وحش وضرب ضربته.

- هاااااا...

يتـفرج يعـقوب وقـد تقلصت كل عـضـلات جسـده من التـوثب لأنه يعول على هذا الصبي ويعده لمهـمة خاصة. ولذلك انفـرجت أساريره حين ضرب الصبي ضربتـه الأولى. ودون أن يـدري تناغـمت أنفـاسـه مع ضربات الصبي الذي أخذ يضرب بحمية هستيـرية كمن يضرب الكائن الضعيف في داخله:

-كفى سأعترف!

حين سمع يعقوب هذا الصوت النحيل الجارح.

استدار بفرح وهو عارف بالاعتراف مسبقا:

- احضروه إلى غرفتي!

* * *

لم يكن وهاب على يقين مما نقل إليــه عن تعــاون بين أحــد قــادة الجيش مع المخربين وتسرب السلاح لهم من مخازن الجيش، لكن الشك وحده كاف كي يعطيه الحافز لترميم بيته قبل الإنفجار. و تقوم فلسفته على أن الخوف أكثر دواما من الحب لأن المحبين لا يترددون في الإساءة للمحبوب ويترددون في الإساءة للمخيف. و قد فرض الخوف بعمل مباغت حين دعا واحد من القادة العسكريين لحضور اجتماع المستشارين.

مدير المكتب العجوز افتتح الاجتماع على عادته:

- النقطة الأولى في جدول عملنا اليوم هي الوضع الاقتصادي...

ولكن وهاب قاطعه بصوت صارخ مباغت:

- بلا الوضع الخرائي.. هناك ما هو أهم: الخيانة!

بلع المستشارون ريقهم دون أن يتجرأوا على النظر لبعضهم .

- إنها هنا بيننا في هذه الغرفة .

تلمس كل واحد أطرافه الباردة تحت طاولة الاجتماعات، بينما ترك وهاب كرسيه وأخذ يدور من وراء مستشاريه شادا قبضتيه إلى جانبيه مطوحا بعصا وهمية وهو يفحص مساعديه من الخلف: الوزير المخضرم المشغول بالجداول والأرقام وهو يقود اقتصاد البلد من كارثة إلى كارثة. بفضله أصبح البلد يستورد كل شيء:المسامير وإبر الخياطة ومكانس البيوت، الطحين، الرز،معجون الطماطم، وطبعا الحنطة المسمومة. وفي

كل يوم يوقع اتفاقية جديدة لا يعرف أحد حصته فيها لأنها تودع مباشرة في البنوك الأجنبية. يشكو من تدخل الأمن في الجامعة وزير التعليم الأصلع الذي غار رأسه بين كتفيه! الإضراب الأخير لطلاب الآداب مر تحت سمعه وبصره واكتفى بنصيحة المضربين: أولادي... (أولاده) الشيوعيين انتظروا تحرك الضباط لو لم يدخل رجال الأمن في اللحظة المناسبة. أما هذا المتزوج من جاسوسة فرنسية، فيريد تحويل البلد إلى نسخة من فرنسا، بمباغيها وبرلمان المهاترات فيها. أما أنت يا دكتور التلفزيون والحفلات اليومية فستخري على نفسك وعلى شهاداتك لو رأيت بأي وضع ضبطتك الكاميرا. خليك مع سكرتيرتك المصاصة من تحت الطاولة والراقصات الأسبانيات بينما صحف العالم تلوك أسرارنا المتسربة من مخدعك...ملفاتكم جميعا أمامي، وفيها كل أسراركم، بما فيها أسرار المخدع، وسيأتي يوم كل واحد منكم على التوالي. أما اليوم...يوسع خطواته ضاغطا الأرض بكعب جزمته. فجأة ألقى على الطاولة كيسا من القماش القذر:

- في هذا الكيس أدلة الخيانة الدامغة، ومن يشك في الأمر فليتأكد بنفسه!

من تحت حواجبهم راقب المستشارون الكيس الملقى أمامهم وبآذان مرهفة تابعوا دقات حذائه خلفهم كأنه إيقاع الزمن المتبقي لهم دون أن يمد أحد يده لدليل الخيانة الغامض الملقى على الطاولة. توقف وراء مستشاره العسكري الذي تهدل كتفاه وسال العرق مبللا ياقة قميصه وارتجفت أذنه حين توقفت خطوات وهاب خلفه: حتى قبل شهر كان هذا الجربوع ضابطا مهملا في ثكنة من الطين يأكل الخبز الأسود مثل الجنود

ويصلي أكثر مما يحرس. أنا أعطيته قصرا على النهر وجعلت كبار الجنرالات يؤدون له التحية حتى وإن سخروا في قرارتهم من جهله. في معسكره يتدرب المخربون وقد اندسوا مع الجنود. بعلمه ومن مخازنه تسرب السلاح للمخربين. وحين علم بالأمر طلب من مساعديه إخفاء السر معتقدا أن الخيانة ستمر بصمت:

- أنت!

فزع الجميع من صوت طلقة هزت زجاج النوافذ والورق على الطاولات واندلق دم فوار سريع على طول زجاج الطاولة الذي يعكس وجوه المستشارين الذين صرخوا مرة واحدة:

- هاااا!

ثم ساد الصمت الذي رجع صفير الرصاصة، بينما ترك الدم نثاره على ورق الملفات وزجاج نظارات المستشارين وياقات قمصانهم البيضاء، وساحت خيوطه من كل أطراف الطاولة دون أن يتجرأ أحد على التزحزح من موقعه.

- انظروا إليه!

صرخ وهاب فانسحبت الأيدي التي كانت متشبثة بحافة الطاولة وارتفعت الوجوه شاحبة ممصوصة والشفاه مزمومة تكتم صرخة فزع. بدوره تصفح وهاب وجوههم: خضوع مطلق لا تكدره نظرة لوم أو مساءلة. فرك خصيته بجذل، فقد تبدت له سلطته المطلقة في هذه الوجوه الشاحبة الممصوصة المختنقة بصرختها. خوف صاف تماما أكثر براءة من الحب. مامن أحد يجرؤ على أن يقول حتى ولو كلمة مبحوحة (لماذا)؟ ولاء مطلق لقوة نابعة من داخلهم..ومع ذلك لم يقل كلمة واحدة لتلطيف الجو متأكدا من

أنه قتل بالخوف الكراهية دون أن يكسب الحب، فالأتباع يحبون بإرادتهم ويخافون بإرادة المخيف. بقي رأس القائد العسكري الحليق نائما على طرف الطاولة دون شرح بينما جلس وهاب في طرف الطاولة الثاني ممددا ساقيه نازعا الباقين من ذهولهم بكلمة واحدة:

- تابع!

لم يشعر بأي ارتباك أو ذنب لأنه بطبيعته عاجز عن فهم سوء عواقب أعماله والعذاب الذي يسببه للآخرين. وقد امتلك رضا كاملا عن النفس متأكدا من أن ما فعله مناسب تماما لطبيعته الحيوية التي تكره الحلول العادية البطيئة:

- ينبغي أن نزيل الوهم الذي يقول إننا كلما أحكمنا السلطة ضعف أعداؤنا أو أصبحوا مستأنسين. على العكس إنهم يزدادون حقدا وتخريبا.

-...

-أكره ما أكرهه هؤلاء المتحذلقين الذي يريدون التعامل مع الأعداء كتيار سياسي يهزم بالجدل إنهم مجرد عصابة جواسيس.

-...

- تريد أن تقنعني بأن صديقك هذا الذي لم يشترك بأعمال التخريب والذي يمارس عمله بإخلاص لا يمكن أن يكون متآمرا ؟ على العكس فإن المتآمر الحقيقي ينبغي أن يظهر تفانيا في عمله لكي يخفي حقيقته ويكسب عطف الآخرين!

المستشارون بعد هذا الحادث أخذوا يقابلون تهوره بتحفظ شديد في السلوك يجعل جباههم تتعرق وكل عضلة في أجسادهم مشدودة.

ويجهدهم هذا الضغط لكي يحفظوا سر رعونته حتى عن أنفسهم. وكان يقابل تصاغرهم بأن يمط قامته متطاولا على قاماتهم، شاعرا بنفسه أكبر من إنسان وهو يفرض إرادته عليهم فيتصرفون وفق إرادته،و هو يتحرك حولهم بخطوات مرصوصة بطيئة ناظرا تحته بابتسامة تجمع القرف الخفيف والمعرفة الخفية فيما يفعلونه سرا، راضيا بأفضاله عليهم لمجرد أنهم يعيشون في كنفه أحياء. ومن فرط ثقته نقل عدواه إلى المحيطين به فأخذوا يتقبلون إساءاته و اعتادوها كبداهة لا تليق إلا به. ما من أحد من مستشاريه عرف بالتأكيد طول قامته وشكل وجهه لأنهم بانحنائهم الدائم لم يروه عن قرب.

* * *

عرق بارد غمر الوزير الدكتور نور الدين ولم ينم ليلته تلك رغم الحبتين المنومتين وكؤوس البراندي. خوفه انتقل إلى الزوجة التي فتحت عينيها على لويات جسده في السرير:

- أنت تخبئ شيئا عني؟

-لا تلحي عليّ، قلت لك لا شي يعني لاشيء..فقط لا أستطيع النوم..هذا كل ما في الأمر!

-وجهك شاحب مثل ليمونة.

- للمرة الثالثة تقولين ذلك وللمرة الألف أقول لك أنا متعب.. هذا كل ما في الأمر!

كان يتحدث كأنه لا يعرف السبب، مع إنه يعرف في دخيلته: الطلقة التي مايزال صداها يترجع في ذهنه وخيوط الدم التي امتدت على طول الطاولة ولطخت أكمام قميصه. ينفيها متمتما بصوت شبه

مسموع (وهم)! ويغلق ذاكرته متشبثا بهذه النافذة التي تحرك الريح ستائرها وبالمرأة التي تتنفس ببطء وتواتر إلى جانبه وبصورة الخيول الراكضة في غبار الصحراء على الجدار الأبيض، لكن الرأس الذي يشخب الدم من صماخه نام على زجاج ذاكرته. (يا إلهي، لم حدقت فيه) ؟ لقد علقت الجثة حين حملها الحراس خارج غرفة الاجتماعات في مخيلته دون فكاك، كأنها تعنيه بالتحديد، و جانب الوجه الذي استقر قبالته وفمه الذي يلوك لبانة كلماته (كان حيا مثلنا قبل دقيقة). لقد سممت الجثة ما حدث قبلها وبعدها: القبلة التي اختلسها من سكرتيرته داخل حرش القصب. ماكان عليه أن يتصرف بهذا الغباء الطفولي مع عشيقتين في وقت واحد. سكرتيرته عرفت بالأخرى فطمأنها:

- لا تتعجلي! سأتخلص منها لولا خوفي من الفضيحة.

ويقول نفس الشيء للثانية. فأجابته بثقة ساخرة:

- ما الذي تخشاه ؟الكل يعلم بالفضيحة عداك.

يقضي الليل كله خائفا من أن يكون قد وقع في كمين مصور مع النساء.. ربما استدرجته سكرتيرته لهذا الكمين. لم تكن خائفة قط حين استدعته إلى شقتها الفارهة. على العكس ألحت عليه أن يتحرر من جاكيته وربطة عنقه ويسترخي: (بيتي وأنا أعرفه... وحدي ولا شريك لي غيرك). تذكر كلماتها التي بدت له في هدأة هذه الليلة ذات معنى مريب. وتذكر أنها كانت ترفع صوتها عاليا وهي تحدثه من المطبخ وتلح عليه أن يرفع صوته لتسمعه. وفي غفلة عنها يدور بعينيه في أرجاء الغرفة باحثا عن لاقطة صوت مزروعة في المزهرية أو ستارة النافذة. وحين دخلا غرفة النوم زاغت عيناه بحثا عن كاميرا مثبتة في المروحة

السقفية أو مصباح النوم. (صوتك هذا يخيفني، لم تتحدث كالمخنوق؟!). وكلما استعصى عليه النوم تضخمت مخاوفه فرأى نفسه بعين الكاميرا التي تراقبه. عجيزته وهو يتلوى فوق سكرتيرته وجوربيه وقد احتفظ بهما طوال المضاجعة. سيرون كل ذلك ويتهامسون... يتعب من مخاوفه فيطمن نفسه: ما الذي فعله غير ذلك، وما الذي يمكن أن يمسك عليه غير ضعفه أمام النساء. لو لم يكن أسير ضعفه هذا لكان أكثر إثارة للريبة. بدأ العد من الألف نزولا حتى وصل إلى الصفر، لكنه لم ينم ولم تنم زوجته الراقدة إلى جانبه.. يتنفسان بصعوبة وبطء وقد علقت عينا الوزير في نقطة ثابتة وسط سقف غرفته:

-حاولي النوم!

-حاولت.. هذه حبة النوم الثانية.

لأول مرة يشعر بالتوافق مع هذه المرأة النحيلة الشائبة الممددة بجانبه فوضع يده الباردة على يدها.. إنها الوحيدة التي يأتمنها في هذا الجو المريب الذي يحيطه. ومع ذلك لم يسرها بمخاوفه التي تتجسد أمامه في صورة خاطفة: الطلقة، صداها الذي ترجع طويلا، رائحة البارود و الدم المالح الذي غمر الزجاج. لن يفلت من هذه الصورة ولا من تبعاتها وهو يأخذ كأسه الخامسة ويتمتم (كان وهما، كان وهما)، لذلك بقي ثابتا هكذا، يداه مشبوكتان على صدره يحدق في الفتحة بين الستارتين منتظرا طلوع النهار بصبر فارغ ليعطيه بعض الوضوح والحمية حيث وجد نفسه يندس تلقائيا في السيارة التي توقفت أمام المدخل والسائق الذي فتح الباب. نظر إليه في مرآة السيارة الأمامي:

- آخر نكتة يا سيدي...

بوابون فتحوا الأبواب عند دخوله، وموظفون انكبوا على أوراقهم. السكرتيرة ذاتها ونفس العطر الذي أهداه لها (شانيل ٣) والمؤخرة المحبوكة التي اقتربت من كتفه حين وضعت الملف أمامه بنفس الخفة كأن شيئا لم يحدث. وحين رفع رأسه قابلته الابتسامة المتخابثة التي ذكرته بالجسد العاري الذي تمدد تحته في غياب الزوجة، رضية مرتوية. كل شيء إذن كما يرام، وما مخاوفي إلا هواجس ليل. لن يؤجل سفرة اليخت إذن وسيتصرف كأن ما حدث مجرد كابوس عابر.

* * *

في نهار مشمس دافئ كهذا بدت رحلة اليخت لوليد بديلا مثيرا ليوم رتيب آخر سيجلس فيه طويلا أمام طاولة الكتابة متحايلا على الفكرة فلا تواتيه فيدخن ويشرب كأسا وقد يختلق شجارا مع ياسمين ثم يخرج لنفس الشلة ليسمع قصائد لا معنى لها سيلقيها قاسم فنجان وشكاوى سليم من حياته المكبلة ومنير وهو يستمني مخيلته عن مدينة مقلوبة يطارد اللصوص شرطتها... الأفضل أن يذهب.. في اليخت الذي سينزلق هادئا على سطح الماء ستكون هناك بالتأكيد وجوه جديدة.. معجبات طيعات يمنحنه إحساسا بالفخر والتسلط ورجال هادئون يهزون رؤوسهم تأييدا لكل ما يقوله وخمرة تجعل الضفاف التي سيمرون بها شفافة حميمة.. أين يجد فضاء يفتح النفس للكتابة أفضل من هذا؟ حقا إنه لم يكتب كلمة واحدة حول الموضوع، لكن الأجواء تنضج في ذهنه بسرعة.. عليه أن يدقق في شخصياته ثم...

- لا أريدك أن تذهب لأجلي (قالت له ياسمين) سنذهب إذا كنت مقتنعا بذلك!

- مزاجي عكر، وقد يتعكر أكثر مع هؤلاء البطرين المعزولين عما يجري.

- صدقني يا وليد لن أندم على الرحلة إذا بقينا هنا وحدنا، فقد ذهبت في يخت الوزير عدة مرات وأعرف برنامج الرحلة بتفاصيله.. سنذهب في الصباح إلى الجزيرة.نسكر ونأكل ثم يختفي الجميع في أحراش القصب ل.. وسنعود قبيل الغروب ونذهب لنستريح في بيت الوزير من عناء الرحلة وستبدأ الحفلة الثانية هناك...

- أنت متأكدة أن الوزير هو الذي طلب منك حضوري؟

- طبعا هو الذي طلب وأكدت ذلك زوجته.. قالا صديقك الشاعر المشاغب.

- إذن سنذهب حتى لا يحسب الأمر موقفا!

وخرجا بقليل من الفرح، وكان وليد يدمدم ساخرا مما سيحدث:

- هاي! سيلوحون لنا من فوق المرسى.. أخيرا جئتما!.. قبلات بلا حب، وآهات بلا تعجب.. عما قليل سنصل إلى مسرح الدمى...

ومع ذلك استطاعت ياسمين بالكاد متابعة خطواته وهو يذهب مسرعا للمرسى.

نفس الوجوه التي رآها في الحفلة السابقة مضافا إليها هذه المرأة الشقراء ذات الضحكة المدوية التي تتلفت حولها بفضول وقح:

- صاحبة أشهر دار أزياء في البلد

- معجبة!

قدمت نفسها وقد دفعت صدرها أمامها قليلا.

- سمعتك تقرأ قصيدة (إنانا) وقلت هذه القصيدة عني أنا بالذات، كيف عرفتها؟

كانت تبتسم بتخابث كأنها تشاكس زير نساء محترف.

- ما من امرأة تعرفت عليها إلا وقالت ذلك.

_ثم؟

- تعرفين الباقي.

يدعوها وهو يداعب المفاتيح في جيبه ناظرا بين آونة وأخرى خشية أن تراه ياسمين معها. في داخله كان يستحث الدعارة في داخله ويقول لنفسه:إنهم هكذا، وعليه أن يوصل الأمور إلى منتهاها. لا يهمه أن يذهب معهم إلى نصف المسافة، فقد كان يمني نفسه بضمير خبيث سيوقفه في اللحظة الحاسمة، ويخرج الروائي من داخل زير النساء اللاهي ليكشف اللعبة ساخرا من مواطآتها... في الطابق الأسفل اتكأ وليد على السياج موليا ظهره للنهر وقد أشعل السيجارة الثالثة غير راغب في التدخين، بل لمجرد أن يفعل شيئا غير المراقبة. آخذا موقع مراقب لئيم يتتبع شخصياته من ذلك الوعي الشفاف الذي يسبق السكر.. الوزير فاجأ الجميع بملابسه الرياضية التي لا تناسب سنه: بنطلون قصير أبيض وقميص فضفاض يحاول به تغطية كرشه وقد انكشفت الصبغة الحمراء التي يخفي بها شيبه.

- حربوق!

قال وليد وهو يصك أسنانه. بأية حيلة استطاع أن يخدع زوجته ويبقيها في البيت. (متوعكة!؟) قالت لضيوفها والغضب باد من رعشة صوتها. (بي هبي!) واستدارت بسرعة لتكبت ارتباكها، وربما دمعة فالتة. وهو، الذي قبلها بأسف قبل أن ينزل من المرسى، قفز بخفة قط تحرر من إساره. هاهو الآن يقود القارب بجد لا ضرورة له وهو يدرب ابنه المراهق

على قيادة القارب، بينما الابن المراهق.. في الخامسة عشرة؟ أظنه أصغر من ذلك.. طفل معذب وهش رغم امتلاكه كل شيء.. يعيش مثل قطعة من ديكور باذخ في بيت لا حب فيه. كثرة الضيوف والحفلات تزيد وحشته ومخاوفه لأنه يعلم تماما بأن هذه الابتسامات وكلمات المجاملة والدعابة ستنتهي بشجار حاد بين ماما وبابا حالما يغادر الضيوف. كل حركاته تتسم بالعصبية. لقد سمع بالتأكيد صراخ أمه وبكائها لأن الوالد أصر على أن يدعو هذه التي تتصرف معه بود زائد و يسميها (سكرتيرته). إنه أقرب إلى حساسية أمه.. غير قادر على التركيز ينظر للآخرين حوله، وربما للا أحد، أكثر مما ينظر لوالده وللوحة إدارة الزورق. يا للأرنب المذعور! هاهو يمسد شعره بحركات خاطفة ثم يدس يده في جيبه بسرعة وينزاح جانبا كأنه يبحث عن ساتر أو طاولة يخفي نصفه، وبالتحديد يديه، خلفها. لم يكن راغبا في المجيء بالتأكيد ولا يريد أن يرى أمورا لا يحب أن يراها من والده ولا يريد أن يقود الزورق بنفسه لمجرد أن والده يريد أن يشغله بشيء ليتفرغ لعشيقاته.

(مغامرة جديدة !) قال وليد وهو يراقب مؤخرة ياسمين الممتلئة المشدودة بضغط فوق ساقين يزيدهما بنطلون الكابوي دقة وطولا.. مؤخرة أكثر تعبيرا من وجه. يا قحبة! هذه طريقتها في إثارتي كلما رأتني أتحدث مع امرأة أخرى. تتظاهر بتأمل الماء والضفاف وهي متكئة على سياج الزورق بينما هي ترى بعجيزتها أكثر مما ترى بعينيها.. تتابع هذا المخرج السينمائي الذي يدعي أنه تعود أن يرى الأشياء من وراء عدسة كاميرا.. سلسلة كوادر سينمائية مقتطعة من الزمن ومن سياق الحياة. لابد أن هذه المؤخرة ملأت كادره السينمائي بكامله. لقد عرض للكل دعوة وصلته من

هوليـود ليكون مسـاعـدا لمخـرج أمـريكي يصـور فلمـا في الشـرق ويكلفـه بالبحث عن وجوه شرقية شابة، ويلح على ياسمين بأن ترقص رقصة واحدة فقط، وبدون جمهور، على سقف قلعة تاريخية تطل على الصحراء. بشعره الملمع الطويل المصفـوف إلى الخلف ولحيتـه المستـدقـة المدببـة وبنظارته السوداء والقميص الهندي الأبيض العريض يبدو تماما كمخرج في ميدان العمل. كان يتحدث لوليد عن موضوع الفلم، وهو عملية سرقة آثار في الشرق، بحركات عريضة وبإشارات مؤطرة كأنه يشرح لفريق التصوير المشهد القادم، حين قاطعتهما ياسمين وهي قادمة من مؤخرة الزورق، تمثل الرغبة بمقدار ما تحسها.

آخذا موقع المراقب اللئيم دقق وليد في سلوك ضحاياه مبتسما بصبر وخبث. في دخيلته جهز لكل واحد مقتله: الوزير الحربوق والطريقة الملتوية التي يتبعها ليختلي بسكرتيرته التي تتعامل مع الجميع بدماثة ولطف زائد كأنما تعتذر عن ذنب لا يعرفه أحد، الصبي البائس الذي لا يكف عن قضم أظافره وهو يساعد والده وسكرتيرته في تجهيز الشواء، المخرج الباحث عن نجمات شرقيات يشاركنه سريره والذي بدد عشر سنوات من حياته في إعلانات عن الشامبو المثالي للشعر الأجعد والبسكويت المحلى بالفواكه وخياطة الجنتلمان الحقيقي والدواء الذي ينبت الشعر للأصلع . وبين الجميع هذا المليونير البدين القصير القامة المحبوس حد التعرق في بدلته الرسمية والذي لا يستطيع ضبط صوته العالي..لا يكف عن متابعة ياسمين، وبالتحديد مؤخرتها، باحثا عن قحبة من مستوى رفيع داخل هذه المرأة المتململة. سيسكر هذا المكبوت الناضح بالعرق كما في المرة السابقة ويسقط خائرا متوسلا عند قدميها

ثم ينام في البانيو.. كل واحد منهم قناع لشخصية أخرى. حين شفت روحه من السكر تذكر: وأنت، أين أنت بين هؤلاء؟ تصنع صورتهم ثم تراهم وفقها وتراقبهم لتختفي عن ذاتك. حين بدأ الحدث ينضج مع حرارة المشروب الذي لسع صدره جاءت هذه المرأة اللعوب العارية الظهر بخصلة شعرها المدلاة ومشيتها الراقصة. صاحبة دار أزياء تحرص على تلك المسافة الحساسة بين امرأة خائبة في الحب، وبين متطوعة تربط النساء الطموحات برجال السلطة باعتبارها فاعلة خير دون انتظار منفعة. اقتربت منه دون تردد:

- صديقتك سكرانة تغني لك هناك وأنت هنا بعيد عنها!

كانت ياسمين كما لم يرها من قبل متكئة باسترخاء وتمر الشواطئ خلفها بهدوء. تغني لفيروز (من زمان).. لم يفاجئه الجسد المتكئ بقليل من الاستهتار، ولا اليدان اللتان أشارتا إليه ((تعال!))، إنما الصوت القوي النابت الذي يلغي حضور ما حوله.. لم يكن جميلا وطربا، لكن بحة التدخين والشرب تكشف روح امرأة أتعبتها تجربة حب يائس لا يريد أحد سماعها.... كانت تغني وهي تراقبه بذلك اللوم الحزين الذي لن يعرف سببه إلا لاحقا. الصوت ضيعه بمقدار ما جذبه إليها فغادر الجميع ودور المراقب اللئيم متجها نحو مقدمة اليخت.

كل شيء أصبح مكشوفا عاريا حين انخفض دوي المحركات استعدادا للرسو. بقي الزورق يدور حول نفسه منجرفا مع التيار ومخاضات الماء.. سكون فرح ومتحد، وفي مقدمته وقف وليد يدور وقد لعب الخمر برأسه، متنشقا الهواء ملء صدره، يوشك ان يصرخ:

- هذا ذذذذذذذذذ انااااا وليييييد القاضييييييي..

(سترقص جميعا هذه اللعب الآدمية المصممة بإتقان حتى تباغتها الفاجعة). الضفاف ساكنة تماما تدور مع دوران الزورق له وحده. ولكن خلف مهابة المشهد وسكون الليل وشفافيته يلوح في الضفة الأخرى القصر الشاهق المفصول عما حوله والذي كان ذات يوم بيت الراقصة بوسي وقد أغلقت كل نوافذه بألواح من الخشب وقضبان حديدية، لا أحد يسأل ما الذي يحدث هناك خلف هذه الجدران المغلقة.

فجأة صدم الزورق شيئا في القاع وعتت محركاته وأن الحديد.. وسكنت الأصوات بعد:

- واااا!

قفزت أمام الزورق جثة مقلوبة على وجهها. وفي الضوء الخفيف الذي سبق الغروب بدت حبال مقطوعة كانت تربط الجثة بجسم ثقيل في قاع النهر و اليدان مفرودتان إلى الجانبين كيدي مصلوب.. حاول الوزير الاستدارة بعيدا عن الجثة باتجاه اليسار فدارت الجثة معه مقلوبة على قفاها هذه المرة وقد غابت الملامح كليا بفعل التشوه المريع للوجه الذي مازالت الأسماك الضخمة تنهشه.. استدار الجميع نحو الخلف وما تزال تتردد الصرخات المخنوقة:

- واااا!

لا فكاك من الجثة، فقد علقت حبالها بمقدمة الزورق وبين الصراخ والبكاء قال الوزير ساخطا:

- لا يجدون مكانا للانتحار إلا أمام مرسانا!

وليد وحده وقف في المقدمة ليحدق في الجثة وقد جذبه هذا الغموض الساخر المرير واللئيم الذي أرادت به الجثة أن تختم الحدث.

* * *

تعبت صبيحة الساحرة من هذا الجهد الذي تبذله لتمسك الخيط من طرفيه..

فمن جهة يخابرها مجيد محذرا:

- لا آكل فضلات الآخرين. أريدها في المرة القادمة بعلبتها لأفتحها بيدي!

تقلب ذهنها طويلا وتأتي بالبنية الباكر، تزينها بيدها وتتحدث معها بحنان أم:

- قاس أحيانا، لكن الكلمة الحلوه تخمد ناره، وشره، وربما يطلب الخلف، بإمكانك أن تناوريه باللمسة والغمزة، وبالمناسبة أنت تجيدين الهز، كوني راقصته. فيه طفل يضحك لأبسط نكتة، ستسعفك بهيجة إذا شحت النكت. لا تنسي أن حياتنا ورزقنا بيديه، يستطيع بتلفون واحد أن يبني لك بيتا، ويجعل منك راقصة البلد، أو يحولنا جميعا إلى شحاذات.

بعده مباشرة يدخل يعقوب مندفعا محمرا صارخا قبل أن يجلس:

-يريد هذا الأحمق أن يقص الشريط بأيـ... فيأخذ حصة الرئيس.!؟

تبلع صبيحة ريقها بصعوبة وتسحب نفسا جارحا من صدمة المفاجأة (كيف وصل إليه الخبر بهذه السرعة)!؟ لن تلح في السؤال عمن نقل الخبر من داخل بيتها، إنما تستخدم ديباجاتها المعهودة لتهدئة الأمور:

- الكل يريدون الجديد يا بني، يعلقون كرامتهم بغشاء البكارة الرقيق. والمشكلة هي أن بنات البلد لا يكفين.

- صحيح أنه قال إن الرئيس تعلم على يديه. قولي أليس هو الذي قال ذلك!؟

بحثت صبيحة في ذاكرتها وفيما حولها عن شيء تقسم فيه فلم

تجد غير كأس الويسكي:

- وحق هذه النعمة لم أسمع كلاما كهذا، لا منه ولا عن لسانه.

- تذكري يا صبيحة (قالها يعقوب وهو يلوح بإصبعه مهددا ومذكرا) إذا انقلبت الدنيا علينا، فأنت أولا، يريد رأسك مقطوعا من الوريد للوريد.. هكذا أوصى الغفاري مريديه.

بعد أيام يدخل مجيد ببدلته العسكرية ومسدسه بيده صارخا يطلب تلك القحبة التي تدخل فراشه وتتجسس عليه ناقلة أخبارا ملفقة أو قالها وهو في لحظة سكر.

تهدأه بقبلة على وجهه وقبلة على يده ثم تقفز خلسة طالبة من البنية المرعوبة المختفية تحت سلم البيت أن تتوارى وتسلم بجلدها.

.. وهكذا دخل الصراع بيتها الذي أرادت أن تبقيه آمنا واخترق العائلة التي أرادت أن تبقيها موحدة وسط المصائب.

المصائب تضاعفت حين جاء يعقوب وألقى هذه المرأة النحيلة الباكية بين يديها:

- ضميها للشبكة، هذه المشتهية المستحية!

تفحصت صبيحة المرأة التي ألقيت أمامها مثل خرقة، فلم تجد فيها ما يسند ادعاء يعقوب، نحيلة متورمة العينين متوسلة:

- أبوس يدك، دخيلك الأطفال وحدهم في البيت ووالدهم في السجن...

تأكدت صبيحة بعد خطوتين من خروج يعقوب فعادت لتطمنها:

- لا تخافي، لن يحدث لك ما لا تريدينه، ستعودين لبيتك في الصباح الباكر!

وأمرت ابنها المعتوه بأن يأخذ زوجة السجين المنكودة لتغتسل وتأكل لتعود لبيتها. لم يتوقف الابن عن البكاء الذي يهز جثته المتورمة، و لم تتوقف المرأة عن البكاء:

- ماذا فعلت يا ربي، ما الذي فعلته لينتهكا عرضي في السجن!؟

وعلى ولولة المعتوه ونحيب المرأة الخافت بدأت صبيحة تدخن بنهم مرتعشة اليد وهي تفكر بما في العالم من ظلم ومظالم لا تريد الآن أن تسميها ولا تحاسب نفسها عليها. أخذت جرعة ثقيلة من كأس الويسكي وجرت نفسا عميقا من سيكارتها وخرجت منها دون أن تدري بصوت خشن وجارح:

-عفوك يارب!

وخلال غفوتها القصيرة على الصوفا رأت رأسها مقطوعا ومرميا على سجادة الصلاة ومع ذلك كانت تصرخ:

- بنيت مصلى تحت عمارتي وأطعمت ثلاثة أيتام؟

- لن يعادل عشر عشر عشر ذنوبك!

- اتوب...

- فات الوقت.

ورأت عبدا غليظا يسخن على نار سقر سفودا طويلا محمرا كالجمر واثنين آخرين جلسا على صدرها وفتحا ساقيها فصرخت كالمذبوحة وفزت على هدهدة ابنها المعتوه صائحا مثلها وقد سال لعابه على وجهها.

* * *

كان عزيز السجين الأخير بين رجال قضوا سنوات طويلة من العذاب،

فقد دخل السجن حديثا بعد القبض عليه في وكر حزبي مع مطبعة.. خجلا كان من ثقل جسده حين حمله رفاقه إلى داخل القاعة بقدمين متورمتين من الفلقة ويدين محلولتين بسبب التعليق الطويل. لم يكن عزيز يعرف أحدا من المساجين، فقد كان عضوا صغيرا في خلية فلاحين مهاجرين للمدينة، عامل شبه أمي لا يهتم حتى بشكل النسيج الذي ينتجه، وفيما عدا حماسه لكرة القدم وأغاني فريد الأطرش، ضيق العمل الطويل والسعي اللاثب وراء لقمة الخبز حياته بين العمل وخدر المساء والنوم. لم تهمه النظرية ولم يستطع الوصول إليها حين شرحوها له. ببساطة تدفق الدمع من عينيه حين عرف عن يوم سينتهي فيه ذل الحياة الحالية ويأتي رجل ملتح قوي الشكيمة، يحطم خزائن الأغنياء ويوزع الأموال على الفقراء ليجعلهم سادة العالم. وبدا له، وهو يوزع أول الوريقات، أنه يفعل شيئا كبيرا، أكبر حتى من قيمة حياته. انضمامه للجماعة أعطاه رفعة لم يعرفها من قبل. لذلك تحرج حد التعرق حين صافحه خليل لأول مرة مرحبا به باسم الرفاق ووضع له فراشا ليستريح عليه بعد جولة التعذيب. لم يفاخر بحداثة عذابه، بل كان يدفع نفسه إلى الشفاء بسرعة ليكون واحدا منهم. في الأيام الأولى لوصوله بقي يئن ويتلوى طوال الليل كأنه مازال على خشبة التعذيب التي تركها قبل أيام. ثم يبدأ بالصراخ حتى يوقظه الخفر بجانبه فيسأل على الفور عما قاله في نومه، حتى إذا ما اطمأن نام مبتسما من شعور عميق بالامتنان. ولذلك تقبل أية مهمة أوكلت إليه بطواعية رياضية، فأنسته رغبته في الاندماج في الجماعة المهمة الموكلة إليه، وهي أن يعرف مسار البريد الحزبي من السجن إلى خارجه، ويكتب تقريره باختصار وحذر ويضعه بين حجرتين في المرحاض ليأتي المنظف ويأخذها إلى إدارة السجن .

كان يعادل تجسسه عليهم بمزيد من الامتنان لوجوده، وهو العامل شبه الأمي، بين كتاب وفنانين وأطباء وقادة.. يبالغ في تبجيلهم ويبدي لهم طاعة تصل حد التملق ويغض الطرف عن كل ما يخل بصورتهم المهيبة.. هذا الشعور الذي يشبه الصلاة رافقه إلى السجن، ولذلك بدت هذه الوريقات التي يكتبها لإدارة السجن عابرة صغيرة مثل وظيفة لا بد منها.

مرت أيام حتى كاد ينسى المهمة، فاستدعته إدارة السجن ثانية لتريه من ثقب مفتاح: دائرة من الضوء في وسطها... امرأة، نعم امرأة، يا سفلــــه! إنها زوجته بهيجة، لم يكد يعرفها أبدا لفرط هزالها والثياب الممزقة على جسدها وإلى جانبها رجل لا تبدو ملامحه يفك ذكره قرب أذنها بالضبط.

- سيموت الأطفال جوعا إذا استمر بقاؤك في السجن وما من طريق أمام هذه المسكينة اليتيمة المقطوعة عن أهلها إلا طريق واحد لكي توفر اللقمة لأولادها: المبغى!

ببضع سطور كتب تقريره الأول عن انهيار رياض وعن موعد في الأربعاء الأول من الشهر القادم وترك الوريقات في المكان المطلوب بين حجرتين في المرحاض. كان العرق ما يزال ينضح من راحة يده التي حملت الورقة حين اقترب منه خليل ووضع يده على كتفه:

- هل أنت متزوج!

غص عزيز بريقه ثم انفلت صوته فجأة :

- نــــعم متزوج ولي بنتان وولد، لم...

لم يستطع أن يضبط صوته المباغت العالي مع هذا الرجل الذي يزن كلماته قبل أن يقولها.

- هل هددوك بزوجتك؟

لم يكن في نظرة خليل إليه ما يوحي بالشك.. فقد قلص ضوء الساحة عينيه وارتسمت على فمه ابتسامة أب يتحدث مع ابن غر، ومع ذلك تقلقلت الكلمات في فم عزيز وأفلتت فجأة:

- لا، لماذا؟

وبدا فاقد التوازن كأنه على حافة الاعتراف.

- قد يستدعيك يعقوب هذه المرة ووسيلته هذه المرة امرأتك.

- أعرف امرأتي جيدا. بنت فلاحين أصيلة لا يمكن...

وغص بكلماته وهو يتذكر كلمات يعقوب المنذرة وقد علق الكابوس في ذاكرة النهار: امرأته بثوب أحمر شفاف وحمرة تلطخ الوجه والشفتين وهي تستجدي المارة وراء قدر من الباقلاء. يتلفت حوله خوفا من انكشاف هواجسه للآخرين.

* * *

الحدث ينضج في داخله وهو يقطع الكورنيش الطويل متحاشيا النظر إلى مكان وقوعه في الجهة الأخرى من النهر حيث خفتت الأضواء في بيت الوزير. (ستكون القصة بوليسية إذا وضعت السفاح مكان الراوي .. ما أحتاجه هو واحد من أبطال دستويفسكي الحائرين بين الخير والشر ولتكن الجريمة استطرادا)! وفكر في أن يبرر سخط الراوي على من حوله ممزوجا بذلك الخوف والتردد بين هذه الحياة الرخية التي تجذبه دون أن يدري وبين إحساسه المضخم بأنه لايرى سوى مسوخ، وأنه آت إليهم ليمتلئ بالقرف ويكشفهم (دووون رححححمة)! قالها من بين أسنانه. دمدم ساخطا وهو يتعثر بخطاه على طول الطريق الخلفي الضيق محاورا الحدث الذي ينضج في داخله بأجوائه

الدقيقة وحواراته.. تذكر بلوعة أنه ترك ياسمين حتى دون أن يودعها،(يا إلهي! ماذا فعلت؟).. مع إحساسه الجارح بالذنب أدرك أنه يحبها، وبين يقينه وتقديره تذكر وجهها وهي تلومه على سطح اليخت وقد ترقرقت دموعها (أهذا أنت، أنت يا وليد تفعل ذلك، وأمامي!؟). هل رقصت فعلا، وهل ذهبت برفقة المخرج السينمائي أم المقاول الذي كان يتابعها مصفقا وهو مقع على ركبتيه (هز يا وز!). آسفا يدرك الآن أنه يحبها بالتأكيد. يحبها أكثر حين لا تكون معه، يشعر أن شيئا ضائعا فيه يريد أن يستقر بوجودها، ولكنه لا يعرف كيف يحب. روحه الملولة تنفر من التكرار ومن القيود التي تفرضها عليه هذه العلاقة. ولوقت طويل فكر بعذر أو كذبة يبرر بها فعلته الشنيعة. السكر؟ قالها في المرة السابقة وحذرته. كيف إذن؟ فجأة قفزت الجثة من قاع النهر إلى مخيلته. السمك الشره كان يفر من تحت السترة الرمادية وهو يحك غلاصمه، واليدان المكبلتان والصمت العجيب الذي يكلل الجثة الخارجة من القاع، وذلك التشوه الفظيع للوجه الذي أكل السمك ملامحه. أكان الأمر حقيقيا؟... حين غادر الشارع الطويل المشجر وصعد الجسر ورأى أضوية المدينة المفروشة تحته أحس لأول مرة بأنه هو، وأن الوقت محدد، الساعة الثانية عشرة والنصف..وحدته القاسية أعطته شيئا من وضوح الموقع والقصد: القصة.. لاحقته وهو يقطع الكورنيش الطويل ماشيا ومحاولا استرداد الوقائع التي مرت و ذاته التي غابت في دوخة السكر... الصمت بقي بعد ذلك راعشا دون أن يعلق أحد على ما حدث، وكل ما حصل لاحقا، الضحك والقبلات المختلسة، والشرب المتسارع، والأحاديث الخالية من الروح والمعنى. كان ممسوحا بتلك الجثة التي لم يذكرها أحد أبدا ولم يسأل أحد: لمن هذه الجثة وما علاقتها بالقصر الشاهق المغلق النوافذ؟ سيدقق في

تلك اللحظات القليلة التي أعقبت الصرخة ويتناول بجمل قصيرة لماحة هواجس كل واحد وقد قطعته الظلمة عن الآخرين وعن جو المواطآت السائد، ثم ابتسامات التطمين الشاحبة والفزع التالي حين ينكشف الضوء عن الجثة.. كل شيء تجمد.. الضحكة المغناج للمرأة السكرانة التي قبل ظهرها العاري في الحمام بقيت تتردد بين الأبواب والنوافذ وقد غامت خلفها الصور التي رسمها مستشرقون مروا بهذا البلد في نهاية القرن الماضي وصوت كأس زجاج سقط على الأرض وساح منه النبيذ والمخرج السينمائي وبطلته الموعودة (هز يا وز) وقد توقفت أرجوحتها في الهواء... وصوت الوزير وقد قال ((لا!)). سيصفي حسابه مع نفسه ومع هذه الطبقة التي كرهها...

- سيصفونك أنت قبل أن تفعل ذلك. تذكر ما حدث لإبراهيم. مجرد تأويل لكلمة في جريدة... تعرف الباقي.

- لن أذكر اليخت ولا الجثة في النهر إنما سأستبدلها بيد مقطوعة وجدت ملقاة على السجاد حال عودة الضوء للمحتفلين.

- والمكان؟

- لن أذكر القاعة العباسية التي تعني مكانا محددا، ولا تلك اللوحة الكبيرة للخيول التي غرقت في غبارها.

- سأستبدل الوزير بتاجر أدوات احتياطية.

- بلاهة. هو نفسه كان يلعب هذه اللعب قبل أن يصبح وزيرا!

- سأحيل الواقعة لزمان ومكان آخرين...

ودائما يخرج الرقيب البارد من داخله غامزا بعينه أو ماطا شفته أو متمتما بهدوء(قديمة!) سيعرف المعنيون أنفسهم عبر الأزمنة والأمكنة.

***

كان يعقوب خائفا من فترة الهدنة هذه، ولم يملك جوابا حين سأله الرئيس عن سبب التوقف. كلاهما يعرف أن وراء هذه الهدنة ضربة مدوية ولذلك قرر الرئيس الضربة الوقائية، في معقلهم، وكلف يعقوب بالمهمة دون أن ينظر في وجهه:

- لديك أسبوعان!

شرح يعقوب خطته للصبي الذي أصغى إليه بتنبه طفولي ورهبة من الحماسة قبل القيام بمهمته الخطرة.. سلمه خرائط الوصول إليهم عبر الممرات الصحراوية والشعاب الجبلية، ولقنه ديباجة الحديث الطويل الذي سيكسب به ثقتهم بعد صلاة الغروب وأعطاه اسمه المستعار (عمار).

وحين طلب إعادة المسرحية من أولها، جلس الصبي راكعا في مواجهة الشباك. عمود الضوء الذي يحركه غبار الملفات أنار وجهه الطفولي وخده المحمر بالعافية وزغب لحيته الشقراء:

- لا أريد المغفرة يا سيدي، بل أريد الشهادة .

-...

- ما من دليل أقدمه على حسن نيتي سوى هذا..

-...

- رأس فاسقة...

-...

(يشبه الملائكة تماما) فكر يعقوب وهو ينظر إليه من وراء طاولته وقد جلس على ركبتيه وشبك يديه في ضراعة. قبله وربت على كتفه بإحساس خفي بالذنب لأنه يرسل صبيا بعمر ابنه محمود في هذه المهمة الخطرة. وبهذا الإحساس وضع رزمة النقود في يده المرتعشة.

بعد خروج الصبي وفي لحظة بين تقريرين أحس يعقوب بحموضة محرقة فتذكر جوعه وطلب وجبة الكباب الثابتة ليتناولها على طاولة جانبيه وهو يقلب التقرير ويمضغ لقمته على إيقاع هواجسه. وعندما بدأ الدوار واستعصت عليه الحلول (نظرته كانت غريبة مرتابة حين سأل عمن يسرب لهم أسرار حركته. ما الذي يثير شكوكه)؟ كلما رفت عيونه من النعاس داهمته المخاوف والشكوك بتواتر وسرعة لا مهلة فيها (الموكب؟ أيعتقد أنني وراء تسريب الخبر.. ولم يتجه الشك إلي بالذات، وأنا أجهل تماما خطوط تحركه؟). علاقته بوليد إذن؟ هو الذي أوصاه بأن يعيده من منفاه (ليكون شاهدا على ما سيحدث وليكتب دون أن يعرف سيرتي كما سأرسمها له)... فجأة اكتشف أنها الساعة الثانية صباحا فأخذ كأسا مترعا بالبراندي وألقى، جسده على سرير ملحق بمكتبه وسط رفوف السجلات، يتنفس الغبار المثقل بسير الناس وأسراهم وذنوبهم الحقيقية والمفترضة، وحالما وضع رأسه على الكنبة داهمته الهواجس ثانية:(بماذا يفكر الآن؟ ليتني أعرف ما الذي يثير ريبته بحيث يصر على التحقق من الأمور بنفسه..قف قف! الأمر أذن متعلق بإخفاق الكمين. من الذي أخبر العدو فأفلت في اللحظة الأخيرة؟ ما من أحد غيرك يا يعقوب يعلم بمكان ووقت الموعد... كيف يمكن إقناع هذا العقل الشكاك بأنه هو نفسه لا يعلم.. لا بد أنه...)... من كثرة ما فكر بعقل الآخر بدأت شكوكه تتجه إليه بالذات..ثمة خطأ أو خطيئة.. ماذا فعلت؟ لم أفعل شيئا يستحق ريبته هذه..أبدا أبدا لم أفعل! من أين التسرب إذن يا يعقوب!؟...) تكاثرت المخاوف واحتمالات العقاب وبدأت كل قسوة أفعاله تتجه ضده كلما تعب وغاب حس الواقع إزاء خدر النوم... بعد

كأس ثان حلم بأنه فقد صوته أمام محقق غاضب يصرخ عليه دون صوت، وكان هو المحقق أيضا... وحين صحا من وطأة الكابوس بقي يدخن على السرير وقد تغطى حتى الصدر بالشراشف المدعوكة، يرتشف وحدته هذه بعمق وهدوء وهو يهيئ ذهنه ليكون الشخص الآخر الذي سيقابل وليد في شقته ليقول له أخطر اعترافاته.. وسيبدأ بذاك الصبي المتردد الذي يشبهه يوم التحق بمهنته هذه وينتهي برجل وصل إلى الموقع الذي لا منصب بعده غير الموت. يدري أن شيئا يدبر في الخفاء لنقل صلاحياته إلى ابن عمه مجيد بعد موجة المتفجرات الأخيرة، ومع ذلك أمر نفسه بأن تهدأ موقنا أن الزمن بيديه. لدقائق بقي في الفراش يفكر في... في لا شيء. أراد أن يهم إلى مكتبه مسرعا للبحث بين التقارير عن شيء يدبر في الخفاء، ثم نهر نفسه ((مالك مستعجل على الكوارث؟!)).، وهرش ما تحت خصيتيه وهو يرتشف بعمق كسل اللحظة الحاضرة مراقبا من النافذة المدينة التي بدأت تطفئ أضواءها تباعا لتنام، وأضوية السيارات وهي تنعكس من المرآة على سقف الغرفة، وستائر الساتان وقد حركتها ريح خفيفة حين لفتت انتباهه حقيبة اليد الصفراء الكبيرة التي نسيها الصبي في غرفته فنهض من السرير بسرعة ليناديه ((ما اسمه، ما اسمه؟))، وقبل أن يتذكر اسم الصبي الذي دخل غرفته بارتباك ... اهتز كل شيء من دوي انفجار رفعه عاليا حتى سقف الغرفة ثم امتلأ الفضاء حوله بأزيز شظايا المرآة، حادة تصفر بكل الاتجاهات، وقد عكست ببريق حاد ألوان العالم الذي انفجر...ثم غابت الأشياء في استواء عجيب...

***

شهق وهاب بعد أن رفع الشرشف الأبيض فباغته جسد محروق مثل شجرة تدخل الأنابيب كل جزء فيه لتقطر الحياة الباقية:

- هذا كل ما تبقى من يعقوب!؟

بكى طويلا وبحرقة طفل أمام السرير وقد وضع رأسه بين يديه غير راغب في أن يرى هذا الكائن الملفوف المسود المتورم العاجز عن أي فعل أو قول. أكان يعلم بما سيحدث حين أيقظه وهو نائم بملابسه الكاملة في مكتبه وقال له وهو يقدم له قهوة الصباح:

- لقد أتعبتك يا يعقوب، ولا أريد أن ارتشف كل عسل صداقتنا القديمة، خذ إجازة حتى تمل من الراحة وعد إلى مكتبك متى شئت.

(لم لم يذهب)؟ بين النشيج والصراخ قال للطبيب المختص الذي جاء من أمريكا :

- إعمل المستحيل لإنقاذه، حتى لو لم يبق منه غير هذا الرأس.. ففي هذا الصندوق المحكم كل ذاكرتي.. فيه كل أعدائي وأصدقائي وما يحاك ضدي!

عين يعقوب السالمة هي الشيء الوحيد الذي أغمض ودار محجرها دورة كاملة من نقر الإصبع على جمجمته.. هز رأسه وقد تقلصت ملامح وجهه بحدة مزمعا على أن يقول شيئا، لكن الكلمات استحالت عليه ... قبل وهاب جبهته منشجا في البكاء وغادر.

- جثة.. جثة سوداء.. هذا ما بقي منه؟

يردد وهاب مختنقا بصوته وهو يضرب المقعد الأمامي بقبضة يده:

- كان سيفي وذاكرتي، وقبل ذلك أخي.. لقد ضحى من أجلي بكل شيء.. سعاداته وعائلته وآخرها حياته. ومع ذلك لن أستطيع أن أجازيه

بجنازة لائقة، لأنه ببساطة لم يمت بعد.. جثة تتنفس وتفكر، ولاشيء آخر، مجرد، جثة سوداء.. هذا ما تبقى منه؟!

ثم التفت ثانية إلى الطبيب الذاهل وقال له بجزع:

- خذه معك إلى أي مكان يمكن أن تتحقق فيه المعجزات لإنقاذه!

لم ير أرصفة الشارع والساحة العامة والقاعدة الرخامية لتمثال الاستقلال وقد تغطت بأسمال الجائعين، لأن صورة تلك الجثة المتفحمة والعينين الدوارتين وسط رأس كالجمجمة لم تفارقه أبدا:

- أنا الهدف القادم!

فارقه الموت وهو يستعيد تلك اللحظة التي رفع فيها الشرشف الأبيض وتركزت مخاوفه، هنا، في أن تصبح تلك الجثة المبتورة الأطراف جثته المعروضة لشماتة الشامتين. فتح النافذة ليتنفس وقد ثُقل الهواء عليه.

- الحرب يا سيدي؟

-...

- لقد فسدت الأمة سيدي الرئيس وهي مشغولة بحرب بعضها. ستهدم المتفجرات كل ما فيها إذا لم تأخذ أنت المبادرة. لا تعتمد على ناسك فهم مشغولون بالركض وراء لقمة خبز تافهة.. تكاثر الناس ففاقوا ما يزرعونه وكبرت كروشهم كلما ازدادوا كسلا وفسدت أرواحهم من الأنانية والهموم الضيقة.. أنظر إليهم!

من وراء نافذة السيارة وسحابة الغبار يستمر سلسال المهاجرين المتصل على جانبي الطريق.. يتفرسون في الموكب محاولين بعيونهم الجاحظة البلهاء رؤية ما وراء الزجاج المعتم.

- وما الحل في رأيك؟

- الحرب يا سيدي، هذا القدر المؤلم، لا بد منه.. لتخليص البلد من هذه الكثرة الكاثرة التي تأكل ولا تفعل، ولتخليص الباقين من همومهم اليومية الضيقة، ولتخليص البلد من حرب بعضه ما من حل سوى الحرب.. لابد من اختلاقها إذا لم تكن قادمة لوحدها.

ففي فترات السكون الملتبسة يحس وهاب أن عظمته بدأت تتقلص، لذلك يبحث عن أعدائه فيما وراء اليقين اليومي.. في الأيام العادية كان يتسلى بغارات مفاجئة على مصلين في جوامع وسياسيين قدامى يلتقون في مقاه يتحدثون فيها عن احتمالات تغيرات كبيرة، أو طلاب عقدوا اجتماعات خلال سفرات جامعية أو قبائل رفضت تسليم محاصيل الحبوب للدولة. أحيانا يرسل تهديدات مبطنة وغامضة لدول صغيرة مجاورة لكي يشل تفكير أعدائه بالترقب وفقدان الاستقرار. وفكرته من وراء ذلك بسيطة، فهو يؤمن بالحظ أكثر من السياسة. والحظ بالنسبة له امرأة، مثل المرأة التي تجلس بين ساقيه، تستسلم للمغامر والمغتصب. لذلك تغيرت سحنته من الفضول الساخر إلى الاهتمام الذي يعقد الحاجبين حين طرح الفكرة مجنون يعرف أكثر من عاقل: ((الحرب إذن))!؟

* * *

لم تكن الحرب حين أعلنت جديدة على اللواء محمد العباسي ..فقد تركت ميادين القتال علامات ثابتة: الحز الأبيض الذي تركته الشمس تحت كاسكيته، السمرة الداكنة لرجل عاش في العراء والبشرة الخشنة التي دخل الغبار في مساحاتها. وتشكو زوجته:

- أشم في جسده رائحة خشب محترق!

وقد نقل الحروب إلى بيته فزين مدخل الحديقة وزوايا البيت بأصيصات ورد صنعت من مظاريف مدفعية فارغة. وعلى رف الموقد خوذة اخترقتها رصاصة:

- كان رأس داعيكم في هذه الخوذة حين أطلق القناص رصاصته. لما لم تجد شيئا يستحق الذكر خرجت الرصاصة من الجانب الآخر.

وقد تغطت جدران البيت بصور الدورات العسكرية التي تَخَرَّج منها وأوسمته وشهاداته. ولذلك تستقبل زوجته ضيوفها بنكتتها الشهيرة:

- أهلا بكم في مقر اللواء المدرع السابع!

عاش العباسي الحروب في أيام الهدنة كأنها امتداد لألعاب طفولته .. يتخفى، يتسلل، يركض إلى الأمام أو إلى الخلف، ينبطح، مع فارق أن اللعبة أصبحت حقيقية.. حتى مع زوجته وأطفاله يتحدث بجمل قصيرة قاطعة كأنه يعطي إيعازا لدورية انتحارية، وخلال النوم ينقل المعركة إلى السرير فتتصلب قدماه ويرفس كمن يدخل حقل ألغام أو يصرخ على جنود غادروا مواقعهم أو يخبط بيده معطيا المدفعية إيعازا بالقصف.

يكرهه كل الحكام بسبب عنجهيته الصامتة ونظرته المتجهمة وهو يسمع توجيهات القيادات العليا ، وقبل ذلك بسبب نفوذه بين المراتب، ولكنه مثير للعجب والريبة معا ، لأنه لم يستثمر نفوذه هذا للقيام أو المشاركة في أي انقلاب، ويشاع عادة بأن وراء هذا التمنع إلحاح زوجته (نفذ انقلاباتك في سريرنا) !ورغم ذلك كان كل الحكام بحاجة إليه بسبب خبرته الطويلة في حرب الجبل و قيادة لواء المدرعات السابع.

خلال الحروب تنام زوجته، وهي ابنة دبلوماسي قديم وثري،تنام على الصوفا في الطابق الأسفل لتفتح الباب عند عودته المفاجئة من الإجازة أو لتستقبل الخبر السيئ لا سامح الله. شاحبة تلوب داخل البيت، حين تسمع عن معركة تتمتم الدعوات. وحين يعود و يروي للضيوف بعضا من مفارقات المعركة، تصغي له بعينين فزعتين وأنفاس سريعة وصعبة

وتضربه على صدره غاضبة (لم فعلت ذلك؟).

فيما بعد تعودت غيباته الطويلة وتعودت أن تشغل الفراغ بالدعوات والولائم واعتادت أن تقاوم مخاوفها بالتنكيت مشيرة للأعشاب النامية:

- استغلت غيابه.

وتتذكر موقعه الدائم خلف منقلة الشواء مبعدا بقية الضيوف عن المنقلة:

- النار هي مهنتي الدائمة في الحرب والسلام.

أسعد فترات حياتها معه هي الأعوام الثلاثة التي نقل فيها إلى السلك الخارجي كملحق عسكري في مدريد: بيت فاره في الحي الدبلوماسي على قمة تل يطل على تلك المدينة الساحرة التي لا تنام الليل. سلسلة لا تنقطع من الحفلات التي تكون فيها داعية أو مدعوة، تتخطر فيها ببدلات متغيرة مكرزة إنكليزيتها ببطء وأناقة وتوزع ابتساماتها بين المدعوين حريصة على أن تحفظ أسماء زوجات الدبلوماسيين. وكان اللواء العباسي يتابع أخبار البلد عن طريق البريد الدبلوماسي والصحف غير سعيد بكونه بعيدا عن الحروب الداخلية والانقلابات.

لم يفاجأ اللواء محمد العباسي حين أعلنت الحرب، فمثل الجميع كان يدري أن الحرب قادمة، مقتنعا بأن أية حرب وعلى أي عدو أمر لا بد منه لإنقاذ البلاد من التفكك والمتفجرات. كان في بيته محالا على التقاعد، مشغولا بتقليم ورود حديقته حين بدأ القتال فقال لزوجته:

- أراهنك إنهم سيأتون اليوم ليعتذروا كما في كل مرة عما سبق ويطلبون عودتي!

وما أثار قلقه قبل كل شيء هو البرود الذي تقبلت به الزوجة عودته

إلى الجبهات. لم تشهق خوفا ولم تتمتم مستعيذة بالله من المكروه الذي سيصيبه، بل تقبلت الأمر ببداهة أكثر منه استسلاما لقدر.. بهدوء شديد وخطوات رخوة أخرجت بدلته العسكرية المكوية والمعلقة منذ زمن وبدأ بارتدائها حين رن التلفون:

- أخبريهم إني قادم!

لم يسأل عن سبب الحرب ولا هوية العدو، فقد أحال ذلك للسياسة التي كانت آخر اهتماماته كعسكري محترف. كان واحدا من خمسة جنرالات استدعتهم القيادة لبحث خطة الحرب التي خاضها مرارا ،ضد المتمردين في الجبل، وأسوأ ما كان يتوقعه هو أن يبدأ القائد الجديد، مثل الذين سبقوه بأن يفرش الخارطة على الطاولة، لأنه يعرف أن القائد الجديد لا يعرف من الخارطة أكثر من الحي الذي يحيط بقصره، ولا يعرف من الأسلحة غير مسدسه الكولت. لكن مهنته تحتم عليه أن يسمع (التوجيهات) كأنها دليل عمل وينساها عند العتبة الخارجية. وفي طريقه الى القصر قرر أن لا يخوض نقاشا طويلا، ويكتفي بتحديد مطالبه الثلاثة قبل أن يتسلم المهمة:

- أن يختار مساعديه بنفسه!

أن يعطى حرية تصرف في الميدان!

أن لا يسأل عن الذخيرة!

وأن يعطى للهجوم الأخير أربعة جنود مقابل كل واحد للعدو!

* * *

لم تكن هذه الكيلومترات القليلة التي رآها وهاب على الخارطة تهمه عن جد، فغريزته العميقة تقول له أن هدف الحرب هو في النهاية

السلطة التي يقبض على رمانات كرسيها. ولذلك أبقى ابن عمه مجيد بعد أن صرف بقية الجنرالات إلى جبهات الحرب:

-أنت الوحيد الذي أثق به ليأخذ مكان يعقوب خلال فترة علاجه في الخارج.. ستكون درعي وسيفي وعيني الحذرة إذا غفوت!

هز مجيد رأسه مطرقا وهو يصغي للرئيس دون أن ينظر في عينيه. لم تكن المهمة جديدة عليه، فبحكم عمله كان يطلع على كل التقارير حول تحركات المتآمرين، ويشارك في التحقيق إذا كان التحرك حول الرئيس. ولهذا السبب اشتد الصراع بينه وبين يعقوب. هو يتهم يعقوب:

- كل هؤلاء الذين اعترفوا واعدموا على يديه كانوا خرافا للذبح، لَبَّسهم التهمة وأجبرهم عليها، بينما القتلة الحقيقيون مازالوا أحياء، مختبئون في أوكارهم يبيتون الجريمة بأسلحة أخذت من مخازنه.

من جانبه يسرب يعقوب صوره الفاضحة للرئيس:

- كيف يمكن أن توضع حياة الرئيس ومفاتيح بيته بيد عربيد مثله يهتم بأي... اكثر من سلاحه؟

يستمع وهاب بطول بال باسم وفي دخيلته يستمرئ هذه الوشايات لأنها تتجه إليه.

في الليل المتأخر ذهبا معا لحمام البخار، وبينما يسلم وهاب جسده للمدلكات لينزعن عنه ملابسه وتلفه اثنتان منهن بالمنشفة البيضاء التفت متتبعا الهم الذي يزحف إلى وجه مرافقه كلما خلا لنفسه قليلا.

- تفكر بالمهمة الجديدة؟

مهنته أولا، ثم العلاقة القديمة علمت مجيد أن لا يخفي أي سر، مهما كان خاصا عن ابن عمه الرئيس.

ولذلك أجاب على الفور:

- كما قدرت..

- خائف منها ؟

اعتاد وهاب أن يسأل بصيغة أجوبة مؤكدة، وما على الآخر إلا أن يؤكد تقديراته.

- خائف؟ ربما يا سيدي.

لم تكن الصداقة الطويلة وحدها وراء هذا الود، ولا علاقة الدم والقرابة، إنما هذه الروح الرياضية التي يطيع بها أوامره و الاندفاعة الصافية التي لا تتبجح ولا تنتظر منفعة. وما يحبه فيه اكثر ارتعاش غمازتيه مثل طفل وهذا التوتر الذي يجعل عروق رقبته تتحرك وهو يصغي أكثر مما يتحدث، معترفا بذنوبه وبعدم قدرته على تغيير طبعه الحاد الذي بدا يربك التوازنات السياسية.

- أنت تعرف أن أمن الدولة أعقد من شجار في شارع.

- لذلك لا أليق بهذه المهمة.

يعرف وهاب مقدما رد فعله العصبي هذا.

على العكس لا أثق بأحد غيرك لمهمة كهذه. ولذلك اخترتك أنت. وبالمناسبة:

- مازلت تخفي عارضة الأزياء في بيتك ؟

- مازلت

- أهلها قلبوا الدنيا بحثا عنها.

- هي نفسها نسيتهم.

- ماذا أحببت فيها ؟

- نفسيات! لا تنس يا سيدي أني قضيت حياتي في المدينة أعزب مهملا. هي حولت بيتنا إلى جنة صغيرة.. كنت أعود من المعسكر متربا مبلولا بالعرق فأجد البيت نظيفا مثل مرآة، وملابسي نظيفة وطرية والحمام ساخن والبانيو مليء برغوة معطرة.. لم أعش حياة عز كما مثل هذه الأشهر الستة.

- أتعتقد يا مجيد أن السلطة تستحق كل هذا العناء؟

- أنت أعرف يا سيدي فما أنا إلا جندي.

- توتر من الصباح حتى المساء لأنك مسؤول عن كل مصيبة وكارثة في هذا البلد الذي لا يحمل غير الكوارث.. أحيانا أراها عقابا مستمرا.. تعاقب بمقدار ما تعاقب..عقاب في الدنيا، والأسوأ في الآخرة إذا كان هناك رب حقا. أتعتقد إنه موجود حقا ويراقب أفعالنا ليوم الحساب؟

- سيكون حسابي عسيرا آنذاك: جمرة على عانتي مقابل كل صبية نكحتها تصور يا سيدي!

- أحسدك يا مجيد.

- تحسدني، علام؟

- على كونك جندي لست مسؤولا عن مجاعة الجائعين أو فتنة المتآمرين وقد تكاثروا ولا عن الحرب على حدودنا ...

- سنموت معا يا سيدي وربما أموت قبلك إذا وقعت الواقعة.

نام وهاب على بطنه مسلما جسده للمدلكة ومحدقا في أصابع يده وقد فاجأته كما في كل مرة (ماذا فعلت؟).

* * *

الحرب قادمة بالتأكيد! الكل يعرف ذلك عدا العدو الذي سيهاجم. وقد تأكد هاجس الناس حين ظهر الرئيس على ظهر حصان يتدلى السيف من حزامه وهو يتفقد الحدود. وحتى أقاصي القرى كان بشير الحرب يقطع الفيافي رافعا راية الدم والنار نافحا بوقه معلنا:

- نفير عام!

وبأوامر بسيطة انتظم الشعب كله: موظفو الدوائر الذين لم يطلقوا في حياتهم رصاصة، طلاب المدارس الذين استبدلوا تسريحة ألفيس برسلي برؤوس محلوقة حتى الصفر، الكسبة الذين سلموا مفاتيح دكاكينهم لزوجاتهم، العاطلون في المقاهي وقد مضهم الضجر، الجائعون في المخيمات وقد منوا أنفسهم بقصعة الجيش وبجنة الاستشهاد.. كلهم ارتدوا بدلات المغاوير المبقعة. وفي كل فسحة وسط المدينة وفي ضواحيها تسمع هدير صرخاتهم:

- لا نسوان، لا دخان، بل حديد، بل نيران !

تهز أرجاء المدينة الذاهلة.

ومنذ الصباح الباكر ينخرط الشعب كله في طوابير تركض في الشوارع، بينما مكبرات الصوت المبثوثة في كل مكان تهدر بأناشيد الحرب:

- مرحبا، مرحبا، يا معارك المصير!

وقد غير التدريب القاسي المستمر منذ الصباح حتى المساء شكل الناس وملامحهم، فبرزت عظام وجناتهم وعرضت فكوكهم وأخذوا يسيرون وقد كزوا أسنانهم وصدورهم مندفعة إلى الأمام وقبضاتهم مشدودة يريدون أن يلكموا عدوا لا يعرفونه. وبعد جولات التدريب بدت الحرب، أية حرب، وعلى أي عدو أمرا لا بد منه و حلاً معقولاً للخلاص

من كل المشاكل التي لا حل لها: المجاعة المستفحلة والتفجيرات التي شملت كل شيء. ولذلك صدق الناس بسرعة تلك الديباجات التي تصف دخول مرتزقة العدو للقرى الحدودية واغتصبوا الصبايا القاصرات وبقروا بالحراب بطون الرضع وعلقوا الشيوخ على الأشجار بعد أن أعدموا صفا طويلا من شبان القرية بالرصاص.

- القصاص القصاص!

تردد الطوابير المذهولة المخدرة الذاهبة الى الجبهات.

طوال هذا الوقت كان سليم يراقب الطوابير وهي تمر من أمام بيته بإيقاع ثلاثي ثابت يقاطعة الهتاف :

- لا دخان، لا نسوان...كلنا جنود، عالعدوان...

فيشعر أن إيقاع الأقدام الذي يهز الأرض حوله يقطع عليه إرادة التفكير ويلغي فرديته بالذات فيلوج في غرفته ذاهبا عائدا وقد تعب من السؤال (من هو العدو، وما العدوان الذي حدث؟)، لذلك سلم لهذا الشيء البديهي اللاعقلاني الذي يطوقه بالهتاف وبالإيقاع الثلاثي. لم يكن قادرا إزاء هذا الهوس الشامل على أن يقول كلمة احتجاج حتى ولو أمام زوجته، ففي الحقيقة تاهت عليه الفوارق بين الخطأ والصواب. وما يزعجه هو هذا الإلحاح الذي تسأل فيه الزوجة عن ابنهما نزار:

- أين ذهب؟

- كيف لي أن أعرف؟!

في نهاية اليوم الثاني دخل نزار فجأة إلى البيت بالصورة التي كان الكل يعرفها ويخشاها، ببدلة عسكرية مبقعة مترهلة على جسده النحيل

ورأس حليق يشبه جمجمة ميت. شهقت الأم حين قال الولد ملقيا قراره النهائي وقد أولاهم ظهره:

- أنا ذاهب؟

- ذاهب! (صرخ سليم وهو يهب إليه كمن يوشك أن يصفعه)إلى أين؟

- للجبهة!

قال نزار ببداهة ساخرة من الوالد الذي يسأل هذا السؤال الذي لا معنى له، فملابسه وهيأته لا تدل على أنه ذاهب لمدرسة.

- أية جبهة؟

- الجبهة.. الجبهة ذاتها التي يأتي منها العدوان!

وغادر مدركا أن من العبث مناقشة أب يدقق بكل شي ويطرح أسئلة لا معنى لها في هذا الوقت الفائر.

خرج سليم هاربا من تلك المناحة باحثا عن شيء لا يعرفه تاركا خطاه تقوده الى حيث الموعد الثابت مع وليد والشلة.

سيول الشاحنات وطوابير المتدربين والمتطوعين تقطع عليه طريقه.. يتطلع في الوجوه البارزة العظام التي حمصتها الشمس وتراب الساحات.. كلهم صبيان يشبهون ابنه نزار؛ وكلما عاد خائبا استقبلته الزوجة المنفوشة الشعر والمنفوخة العينين بذلك العويل الذي لا يقطعه غير المخاط.. يبربر ويشتم وقد صك أسنانه بغيظ وقد حملها مسؤولية إفساد هذا الصبي الأرعن المهيأ لارتكاب أسوأ الحماقات وقد اختلط عليه القرف مع الشفقة عليها.

صرخت الأم وقد أغلق بوجهها باب البيت وصرخ سليم بوجهها لتكف عن البكاء وبقي يرتعش ساعات ماسكا رأسه بيديه وهو منكب

على طاولة الكتابة دون أية فكرة. ومن إحساسه المؤلم بالعجز حتى عن إقناع ابنه انبثق القرار الذي يحدث قبل أن يقرره: أن يخرج من البيت وفي دخيلته يدرك إن كل ما حدث هو المقدمة التي لا بد منها لكي يخرج للشلة ذاتها وللزاوية ذاتها وللخمرة التي لا بد منها لمواجهة هذا العطش الذي يجرح فمه وحنجرته.

هدير الحشد الذي يودع الجنود إلى الجبهات وصوت المذيع الذي يتردد فوق سماء المدينة تابعه وهو يصعد الدرجات هاربا من شيء يطارده. خائفا من وحدته وسط الحشود التي قطعت طريقه مرات وصل سليم الى شقة وليد. ولم يكن سليم، الذي وصل إلى شقة وليد وهو يلهث قادرا على الإصغاء لهذا الخليط العجيب الذي تحدث عنه وليد بين القصة المتخيلة والحفل الحقيقي:

- أقول لك إني تعرضت لحادث خطف حقيقي البارحة، وكان الخاطف امرأة. وأنا أتحدث معك الآن أكاد أشك أن كل ذلك حدث حقا. ومع ذلك أنظر إلى ظهري! هذه آثار مخالبها.

لم ينظر سليم ولم يسأله عن المرأة المقصودة. ورغم أنه يستمني هذه الأحاديث ويحسد صديقه على عزوبيته التي تجعله ممتلئا بالحيوية والمشاكسة واللا إستقرار، إلا أنه يعرف أيضا أنه يبدد كثيرا من الوقت على علاقاته النسائية على حساب قراءاته وعلى حساب القضايا الجدية. هذا اليوم لم يكن لدى سليم أى استعداد لسماع كل ذلك.. فقد ترك في البيت مناحة حقيقية قبل أن يغادر. لذلك بدا له هذا التباهي بطرا مملا إزاء ما يحصل له في البيت .

- مغامراتك التافهة هذه وفرها للقصص واستمع إلي لساعتين فقط

إذا أردت أن تنقذ صديقك من جنون حقيقي!

- المشكلة ذاتها ؟

-... تركت في البيت مناحة حقيقية...

لم يسمع وليد بقية الكلمات فقد قطع حديثهما هدير الجمهور وصوت المذيع في مكبرات الصوت:

- الدم وحده يتكلم الآن... بوركتم أيها الذاهبون الى الوطن...

- أريد كأس عرق ثقيل وآذانا تصغي إلي!

قال لوليد حالما فتح الباب.

- ما هذا كله ياسليم؟ هل بدأت الحرب فعلا؟

- بدأت هذه المرة من بيتي.

قالها سليم وهو يصب لنفسه كأسا مترعا بالعرق ويأخذ جرعة حادة دون أن يقضم الخيارة:

-...

- ابني نزار.. حين تدق أبواق الحرب، لن يسمع أحد صوتنا. سنضيع بين الجنود وتصبح كلماتنا بلا معنى.

- ضد من هذه المرة...

دق جرس الباب.

- لو أدري أنك قادم لأجلت موعدها.

بتثاقل مصطنع نهض وليد سائرا إلى الباب يخط الأرض بجواربه دون أن يرتدي نعلا، بينما بقي سليم يراقب حركة الأخيلة وراء ستارة الممر ويتسمع بضيق صوتا نسائياغاضبا و موشوشا:

- لم تقل لي عندك ضيف...

-لديه حديث خاص معي.

-...

- الآن...

- لا أستطيع...صديقي هنا...

يعرف سليم مغامرات صديقه النسائية. ويحسده في دخيلته على وسامته..بشعره الكث المشوش والشاربين الدقيقين والعينين الوقحتين يجذب النساء بمقدار ما يجذبهن بصوته وحركاته في مدرجات الجامعة. ويحسده على عزوبيته التي تبدو له السر وراء هذه الروح الممتلئة بالحيوية التي تجعل أفكاره تثب إلى ألف مكان وزمان في اللحظة الواحدة، وحيثما وثبت تترك قطرة من ضوء. ولكنه يكره ميل صديقه القديم للتباهي بعلاقاته النسائية. كأن القصد من وراء هذا التباهي إثارة غيرته هو المكبل بزوجة لا يحبها وأولاد كأنهم خلقوا لإزعاجه كلما أحس في داخله بجذوة للكتابة. ود سليم لو يحسم الأمر في الباب لأن لديه حديثا طويلا مع وليد ويريد أن يقضي الليلة عنده، لكن...

-لا يذهب خيالك للسوء تعالي لتتأكدي بنفسك..... صديقي سليم روائي وشاعر... ياسمين؟

سلمت عليه بعصبية زائدة.. جميلة ممتلئة ينضح وجهها بالفضول، ولكن في حركاتها توتر امرأة منكوبة، لذلك شعر سليم بالشفقة وهو يتصور مآل علاقتها مع صديقه الملول المتقلب. كانت مربكة لأنها قطعت بدخولها حديثا خاصا ولذلك حملت أكياسها للمطبخ فسأل سليم بصوت خافت:

- أليست هي...؟

- بلى هي صاحبة المشكلة إياها.

بهمس حذره سليم من اللعب مع سكرتيرة وزير يشطب الصداقة والشعر بجرة قلم إذا تعلق الأمر بموقعه في الدولة..

- حذرتها، لكنها مجنونة لا تأبه، كأن مصائبها لا تكفيها.

قالها بصوت خال من أية عاطفة كأنه يتحدث عن قطة الجيران.

- نستطيع أن نواصل الحديث أمامها حتى وإن كانت تتحرق للفراش.

- لا.. أفضل الخروج بحثا عن حوذي أحكي له قصة كآبتي..

- سأخرج معك، ولتتعلم الصبر لتعرف أن هناك أمورا أهم من ممارسة الحب..

-أنا خارج.

قال وليد وهو يمد رأسه من نهاية الممر دون أن ينظر إليها.

- لدي حديث معك!

قالت بصوت مرتعش غاضب.

- ليس لدي الوقت لسماع حديث مكرور.. المفتاح في مكانه.

اهتزت ياسمين لأن الباب أغلق بقوة على الحديث الذي كانت تلوكه مع أرق البارحة الممض وهي تغذي حقدها عليه من كرامتها التي جرحت بقسوة خلال الأيام الأخيرة. طوال الطريق وهي آتية إليه كانت تنتقي أسوأ الكلمات وأكثرها تجريحا لتقولها له حالما يفتح الباب، ثم تلقي رسائله وهداياه وتتركه نهائيا..

- نذل كذاب جيكولو كهل...

قالتها من بين أسنانها وهي تنظر إليه يغادر باب العمارة نافخا دخان سيجارته الكثيف ملوحا بيديه وهو يتحدث بحماس:

- كذاب كذاب كذاب.

أسوأ خصاله وأفعاله تتدفق أمامها بسرعة وهي تراقبه يصعد السدة الترابية الموازية للنهر فيبدو جانبيا مثل شيطان شاحب تدلت منه خصلة شعر مشوشة: كل شيء فيه كاذب.. كلمات الحب المعسولة التي كان يقولها وقد وضع السيجارة المشتعلة على لحم يده، فقد انتهى الحب حالما شبع من لحمها وفضل عليها عارضة الأزياء البدينة، غيرته كاذبة وإلا فكيف لم يمنعها من الرقص كما توقعت، بل تركها لوحدها عند أناس غرباء دون أن يسألها عما حدث لاحقا ومن الذي أوصلها للبيت، شجاعته كاذبة فقد بدأ التنصل عنها منذ أن أخبرته بأن التلفون دق عليها عدة مرات هذا الأسبوع وسمعت أنفاس رجل كانت متأكدة من أن أحدا يتابعها. حتى حزنه ونواحه كاذبان لأنه لا يستطيع أن يتوحد معها ولا مع نفسه، بل يتكالب على هذه الشلل التي يدعي أنه يحتقرها...ليس فيه أي مظهر للنظافة التي كانت تنشدها، فرائحة الصابون في جسده لا تختلف عن رائحة وزير أو مليونير حديث النعمة. عندما غاب عن نظرها بقيت تدخن بتواصل في المطبخ وهي تتطلع من النافذة للنهر الذي يمر تحتها رتيبا بليدا لا مباليا تجرح إبهامها بأظافرها الحادة وتقضم شفتها السفلى وهي تغذي سخطها عليه:

- أكرهه أكرهه هذا الحقير.

قالتها بصوت عال وهي تلقي نظرة إلى المفتاح المعلق دون أن تغادر الشقة، (وأكره نفسي أكثر) قالت لأنها قبلت كل هذا الذل معه حين تركها وحيدة تتجول بضيق ونفاد صبر بين الشرفة وغرفة الضيوف بينما هو يلعب البوكر بطول بال غارقا في سحابة الدخان محدقا في أوراقه

كأنها غير موجودة.

- يريد أن يجرب.. هيه! يالها من كذبة؟

وطوال طريق عودتهما لم يقل لها كلمة اعتذار واحدة.. كيف تحملت كل ذلك وذهبت إلى شقته في النهاية دون أن تعاتبه، بل أعدت له الشاي لمجرد أنه جلس وراء طاولة الكتابة دون أن يكتب كلمة. فيه شيء مريض وشرير يفتخر بأنه لا يجيد وصف حديقة أو أشجار معرشة على الماء، فالطبيعة غائبة تماما عن قصصه وقصائده، ولا يكتب عن قصة حب إلا وينهيها بفاجعة. لا يحب أحدا هذا المهووس بنفسه المريضة، فما من ناس أسوياء في قصصه. الناس يبدون في كتاباته أشبه بأقنعة تخفي حقيقة أخرى، تماما مثله هو. الكائن الوحيد الجميل عنده هو السفاح الذي يبدو جميلا وأنيقا مثل موظف محترم في شركة طيران. من أين يأتيه الحب هذا الكائن الشرير المريض المسكون بالدم والعنف؟ كيف يمكن أن يكون سويا هذا السادي الذي يصف الأيدي المقطوعة في مزهرية ورد: يا إلهي كيف تغافل عن ذلك الغروب الجميل في النهر وانكب على وصف جثة تأكلها الأسماك! هي نفسها كادت تصدق الواقعة حين رواها بتلك التفاصيل المريضة. كيف أحبت هذا المريض؟ هرشت شعرها وهي تشهق... كيف قبلت أن تكون قوادته حين طلب منها أن تجلب معها صديقتها (الشابة الطريفة) وهي تدري أنه دنيء مع النساء؟!... لن تغادر الشقة حتى يعود وتصب عليه كل هذا الغيظ الذي يغلي في صدرها ولن تأبه بتوسلاته واعتذاراته مثل المرات السابقة حتى ولو... وفجأة لمحت سكين المطبخ أمامها جديدة براقة باردة النصل.

* * *

((قررت إنهاء حياتي هذا اليوم، آسف لإزعاجك)).. وضع قاسم فنجان الرسالة مع كل دفاتر الشعر التي كتبها لها في كيس وطلب من البواب أن يوصله لياسمين. يصفع الطريق بحذائه وهو يتخيل وقع الصدمة عليها حين تفتح الرسالة متأخرة في جو الحفلة الصاخب: ستتنحي عن الجميع في زاوية وترتجف يدها وهي تقرأ ثم ترفع يدها طالبة (صمت!) ثم تصرخ فتتوقف الموسيقى وتتجمد أقدام الراقصين وقد التفتوا جميعا إلى مصدر الصرخة (ماذا حدث؟) (لقد فعلها!)... سيكون الأمر متأخرا حين تغادر الحفلة مجهشة بالبكاء.. ترك الشارع الطويل المشجر ساحبا خطاه بعناد طفل وقد شد قبضتيه يلكم الهواء إلى جانبيه... على طول الطريق الذي قطعه يمتد سياج عال من الأسلاك الشائكة التي تحيط ثكنة عسكرية غامضة مكتوب عليه (احذر التيار الكهربائي!)، من خلف الأسلاك تأتيه صرخات المتدربين في الليل:

- لا نسوان... لا دخان...لا ألوان.. كلنا جنود... عالحدود

بملابسهم الكاكية المبقعة وسحابة الغبار التي تغطيهم وهم يضربون الأرض بإيقاع واحد. بدوا تحت كشافات المعسكر الحادة رجلا واحدا كرر بعناية. بينه وبينهم هذا السياج المكهرب. التحذير لم يشغل باله ولم يُغره، فقد فكر بمشهد الانتحار عشرات المرات ووضع الصورة الكاملة لما سيحدث وكأنه حدث فعلا. لم يكن ما حدث بعد ذلك بعيدا عن الوصف الذي كتبه وليد لاحقا:

لم يأبه أحد حين تجرع قاسم فنجان كأسه مرة واحدة ونفخ تلك الجملة التراجيدية التي حفظوها عن ظهر قلب:

- هذه هي ليلة قاسم فنجان الأخيرة!

سليم كان مشغولا بابنه الذي ذهب حتى بدون قبلة وداع، وربما...؟

طرد هاجسه مرددا بيتا لا يناسب الحدث:

- أضاعوني وأي فتى أضاعوا!

على عكس عادته لم يمتص كأسه بروية، إنما يعبها بسرعة مستعجلا تلك الضربة (تك) التي تضيع الأشياء في غيبوبة ناعمة حزينة. لذلك لم يأبه حين بدأ قاسم يقرأ قصيدة الرثاء بصوت مخنوق :

- نائما في القاع بسكون قارب غريق

تنحنح وليد وهو يصحح الأخطاء بصوت عال راغبا في دفع قاسم للوصول إلى أقصى حماقة ممكنة. وبذلك يحسم مع ضميره موضعا يعني علاقته بتلك المرأة الحاضرة هنا في هذه الليلة المتوترة:

- احسبي الخطوة التالية!

وضعي سلة الوهم في جانب الدرب!

أنت ذاهبة...

- ذاهبة (مرفوعة)!

صحح وليد ساخرا وأزاح وجهه نحو الجهة الأخرى مزمعا مواصلة حديث مختلف فقال قاسم ملوحا بأصبعه:

- استمع جيدا فأنت الذئب المعني بهذا المقطع:

على عتبة الباب يجلو أسنانه المتخلخلة دون شهية.

وحين ارتفع لغط الحاضرين بعيدا عنه، قفز قاسم من شباك البار المطل على النهر.. سقط على جانبه ثم نهض بصعوبة ماشيا على أربع مثل كلب ضال .. لم يتوقف ولم يلتفت حين سمع صوتا يناديه:

- ارجع يا مجنون...ستندم إذا فعلتها!

إنما تدحرج نازلا السد الترابي مترنحا من سكره وعناده وهو يردد بصوت مسموع:

- سيدركون لا حقا أن الأمر لم يكن مزاحا هذه المرة.

سار طويلا على المنحدر الترابي مميلا كتفه وهو يعرج بسبب ثقل السقطة على ساقه اليمنى وهو ما يزال يدمدم :

- ليس مزاحا، هذه هي النهاية.

بالكلمات يغذي عزيمته غير راغب في الالتفات إلى الخلف متخيلا وقع الصدمة عليهم واحدا واحدا إذا صحوا على حقيقة أنه فعلها في النهاية...

- وداعا!

قالها بصوت عال كمن يلقي قصيدة. وفقدت الأصوات اتجاهاتها واستحالت إلى همهمات حين استدار. ضوء القمر الشاحب أنار الماء والجزر الصغيرة والقوارب المشدودة إليها بلون الوهم. لا يدري لماذا خلع حذاءه وألقاه بعيدا فتسربت برودة الشاطئ الرملي من قدميه إلى روحه و التفت لأول مرة إلى الخلف بحركة إرادية بطيئة فرأى أضواء المدينة وقد نأت مثل خط من الشهب ينقطع خلف أذنه اليسرى. دون أن يقرر بدأ يخلع ملابسه بحركات آلية ثم برر الأمر لنفسه ((حرية أكثر...)). دخل الماء بخطوة طويلة وعنيدة ولكن لزوجة الطين أمسكت باطن قدمه. وللمرة الثانية التفت إلى الخلف فرأى المدينة تنأى عنه دون أية علامة إنسانية.. هذا الشعور بأنه وحيد منسي أعطاه أول دفعة إلى الماء وهو يرفع طرف بنطاله قليلا إلى الأعلى:

- تقـدم!

سيستبطئ الأصدقاء عودته ويأتون متأخرين للبحث عنه هنا.. لكنه ليس عبدا لهواجسهم. تقلصت عضلاته وتباطأت خطواته حين لسعت برودة الماء عانته، ومع ذلك نهر نفسه:

- حتـى النهـاية!

بدأ جسمه يخف وهو يتقدم نحو العمق بنعومة، ومعه خفت فورته بفعل دغدغة الماء وأصوات ضحكات أطفال يسبحون في مكان ما. خطوة أخرى ثم خف جسده وافلت القاع من قدميه. لم يكن يجيد السباحة، ومع ذلك حرك يديه لكن الماء أطبق عليه والتف حوله ففقد الاتجاهات مدركا أنه لا مخرج من الشرك.. خط الضوء على طول الشاطئ تقعر معه ثم استحال كتلة تقفز فيها وجوه لم يكن لديه الوقت لتسميتها. خبط الماء مرة أخرى لكن جسده انقلب إلى الأسفل. ثبت قدميه على القاع ممسكا به بكل إرادة الحياة التي باغتته فجأة مع ضربات مجداف على الماء، ورقصت أضواء المدينة في الدمع المترقرق من عينيه وقد أدرك أنه اخفق مرة أخرى في أن ينهي حياته. تمدد في مخاضة الماء القريبة من الجرف حين فشل في التقدم اكثر نحو العمق تاركا الماء يغمره حتى أذنيه على الرمل متسمعا للتيار يدوي في جمجمته لم يلتفت إلى المدينة رغم إنه يرى بطرف عينيه أضواءها الذائبة وقد نأت أصواتها عن أذنيه المغمورتين بالماء وركز عينيه على قبة السماء التي تحدبت فوقه بمجراتها بلا نهاية. لا يدري كم من الوقت مر عليه وهو يتحسس الرمل الذي يسند جسده يتآكل وينزاح بفعل الماء بانتظار انفتاح الهاوية.

الجزء الثاني

سحابة الدخان الكثيفة تلف الوجوه المكفهرة للضباط الذين تتبعوا العصا وهي تشير إلى العلامات البلاستيكية الملونة المثبتة على الخريطة: فرق وفيالق من جنود تجردوا من مخاوفهم وأحلامهم وتحولوا إلى أرقام و هياكل بلاستيكية على الخريطة المجسمة المضاءة بدائرة من ضوء شاحب. يلتقطها اللواء محمد العباسي بطرفي إصبعيه وينقلها إلى نقطة متقدمة، حقول ألغام معلمة برؤوس دبابيس سوداء دبابات ومدافع من لعب الأطفال.. كلها جردت إلى رموز صغيرة:

الوحدات التي تضم الضباط الموهوبين

الوحدات التي تستطيع أن تحقق افضل استفادة من الظروف الطبيعية والمناخ

الوحدات التي تستطيع أن تنفذ التوجيهات بصورة افضل

الوحدات الأقوى والأفضل تدريبا وتسليحا

والوحدات التي تجيد توزيع المكافآت والعقوبات.

مضى النهار المشمس ورياحه القليلة البرودة واللواء محمد العباسي ما زال في غرفة العمليات المدفونة تحت الأرض، يشرح خطته التي تتلخص باستخدام القصف والغارات الصغيرة استعدادا للهجوم الكبير على ثلاث جبهات. حين انتهى من شرح خطته طلب من الضباط أن تكون إجاباتهم تماما بحجم سؤاله (متانة التحصينات؟جاهزية؟ الآليات؟

خط الذخيرة الثاني؟)... كعادته كان قليل الحديث، يسأل أو يصدر أوامر شديدة الاختصار. يقطعها صوت جهاز الإرسال:

-القواطع جاهزة.. حول!

بعد الاجتماع خرج من الحفرة ففاجأته سماء صافية شطفت نجومها بماء رائق، ومع ذلك لم تنبسط أساريره، فقد أثقله الإحساس بأن هذا السكون والجو الصحو والنجوم الواعدة الغمازة هو الجو الأنسب لهجوم مباغت يقلب كل حساباته. رغم قامته المشدودة ومشيته الوئيدة كان يبذل جهدا عسيرا ليخفي أمام جنوده هذا القلق الذي يرافقه طوال هذه الأيام لأن المعلومات عن العدو وعن تحركاته كانت مجرد تخمينات غامضة. طوال الليل يبقى يصغي لتقاطع الموجات في جهاز الإرسال.. لغة غريبة ورموز غامضة وذبذبات لا تنقطع:

- الأمانة وصلت...نحن توجهنا إلى القبلة...التفاح ناضج...ستبدأ القيامة...الأنفال...

ولا تكشف استطلاعات النهار والطيران سوى سلسلة سطوح هندسية متتالية في القمم وسلسلة خطوط داكنة تشبه الخنادق على متون الجبال والشعاب الصخرية السوداء.

في الليل تختفي الجبال والشعاب في الكتلة السوداء الهائلة ولا تبقى من علامات العدو غير نيران راشة فوق القمم وقذائف تنوير كبريتية اللون تبقى عالقة في الفضاء ثم تنطفئ.. هذا الغموض طبع تقديراته بالسوداوية التي تتوقع هجوما في أية لحظة ومن موقع لم يتوقعه.ويترك هذا التقدير في داخله رعشة الموت القريب كأنه لم يخض الحرب من قبل. وكان يعالج قلقه بمزيد من الحزم الذي لا يعرف التردد. فقد كتب على كل دبابة كلمتين فقط (لا تراجع!)

قبل الهجوم الكبير أراد اللواء العباسي أن يبدد جو الانتظار الذي يكرهه ويخاف من تأثيره على معنويات جنوده بالطريقة التي تعودها: غارات صغيره وسريعة يقيس من خلالها قدرات ضباطه وجنوده وردود فعل العدو فيرد العدو بقصف شديد.

يبدأ القصف بهبدة الانفجار الأول البعيد، ثم تأتي القذيفة مثل فراشة من حديد تصفر بحدة وهي تفرم الهواء قاطعة بأجنحتها ومجساتها المدى، من وراء القطوع الحجرية الواقفة بوجه السماء الصافية مثل تماثيل القدر، فوق القرى المهجورة التي توقفت مداخنها ولم يبق من ساكنيها غير شيوخ جاوروا قبورهم وكلاب مقطوعة الأرجل ودجاج ينبش في الروث اليابس، قاطعة الأراضي البور التي تركت فيها المحاريث ساكنة وسط المروز، عابرة الأرض الحرام المزروعة بالألغام وقطع الملابس العالقة بالشوك، وتتقوس فوق الحفر والخنادق.. يتابع الجنود صفير هذه الفراشات القاتلة الباحثة عن أجسادهم فتلتصق الرؤوس بجدران الخنادق وتلتقي النظرات في تلك اللحظات التي يقترب فيها صفير القذيفة في نظرة تجمع التساؤل والتوسل والوداع، ويخرج الطلاب الملتحقون تواً من حفرهم، رغم التحذيرات، فزعين راكضين لا يلوون على شيء فتحصدهم الشظايا... قد تسقط القذيفة قريبا فيملأ ترابها والرماد طعامهم أو تنقلب القصعات على بطانياتهم وملابسهم مع هبدة الانفجار، وقد تسقط في مكان بعيد فيسترد الناجون أنفاسهم ودماء وجوههم، ولسان واحد يقول عنهم: نجونا هذه المرة!

مع القصف اشتعلت الجبهة بالهجمات والهجمات المضادة.. بين ساعة وأخرى يدق البوق فتسود حركة متقاطعة استعدادا لانسحاب أو

لسد ثغرة في موقع آخر أو لشن هجوم مضاد..لا يكاد الطعام يطبخ حتى يغادرون موقعهم قبل تناوله، ولا يكادون الانتهاء من حفر حفرة حتى يرتفع النداء:

- حركة!

وينفض عن الآليات النائمة في الحفر دثارها الثقيل فتدور جنازيرها في الوحل وتدور خراطيمها في حركة تبدو وكأنها لا تلوي على شيء....وبعد كل معركة، وقبل أن يتم دفن القتلى أو إجلاؤهم من ساحة المعركة، وبينما سيارات الإسعاف تجوب الطريق الترابي لنقل الجرحى الذين يقطعون السكون بصراخهم، يستعرض اللواء العباسي جنوده كما في ساحة العرضات ويوزع الأوسمة على الشجعان منهم مع ربتة على الكتف ثم يولي ظهره محدقا في الفراغ بعينين ضيقتين (لم تصل منها حتى ولا رسالة اطمئنان؟) ويسمع صيحة:

- رماة : جاهزية!

ويهتز قليلا عند سماع صليات إعدام المتخاذلين..

* * *

رغم الحرب والمتفجرات تواصلت المدينة مع غفلتها وأوهامها.. تغادر وجبات المجندين الجدد في الليل المتأخر من المعسكرات البعيدة دون أن يودعها أحد، وفي الليل المتأخر تعود الجنائز من الجبهات إلى المقابر مباشرة دون أن يخبر الأهل الذين يبقون بانتظار عودتهم القريبة. الراديو يتوقف بين فترة وأخرى عن البث العادي ليذيع بيانا مختصرا جدا (وحداتنا البطلة هاجمت العدو... وحداتنا البطلة صدت هجوما للعدو...) يصغي الناس للبيان ويكتفون بتعليق قصير:

- سيعودون إذن خلال أيام.

في النهار تهدأ الهواجس ويغرق الناس في الحياة اليومية. فالجبهات بعيدة جدا، لذلك لم يسمع الناس دوي القذائف البعيد، وحتى لو سمعوا سينكرون فالحرب بعيدة، بعيدة جدا كأنها في بلاد أخرى. ومنذ أن كشفت المسوحات الأولية عن كميات النفط المذهلة، تكالب الدائنون فأغرقت السوق بكميات مضاعفة من العملة الورقية التي تصدر كل يوم بطبعات جديدة وغير مدعوكة ملفوفة بشرائط نايلون وتحمل صورا جديدة.. منائر ذات قباب ذهبية، نسور تعض ثعابين، علماء من العهد الأموي أو العباسي، بوابات قديمة. بمجرد الدخول في مضاربة بيع سيارة أو قطعة أرض، أو رشوة أو سرقة صغيرة تتدفق النقود وتستحث نقودا أخرى. ومع فيض النقود تدفقت بضائع عجيبة في علب ملونة: تلفونات بمقابض ذهبية تظهر صورة المتحدث ومنها تشم رائحته، دجاج كهربائي يبيض حلويات مطلية بالشوكولاته، عطور نسائية تجذب الرجال من مقاهيهم ومن طاولات النرد طيعين متوسلين يبوسون الأحذية مقابل ابتسامة، أمشاط كهربائية تحول الشعر المجعد الجاف إلى خيوط من حرير أسود... والناس تدور في أسواق المدينة بانسحار.. ما من مناد على سلعة إلا ووجد جمهورا مستجيبا، وما من طابور إلا واستطال.. الناس الذين لا يملكون أنفسهم أدمنوا على امتلاك أشياء ليسوا بحاجة إليها.. البضائع الملونة الملفوفة بالشرائط أنست الناس أنفسهم وأحزانهم و تلك الحرب التي أصبحت بعيدة، بعيدة كأنها تجري في بلد آخر، لا يذكرهم بها إلا هذه المتفجرات التي تهز سكون ليلهم.

لكن صمت الناس الطويل انكسر بحادث مقلق، فعلى جدار أبيض طويل في مواجهة الساحة العامة رسمت بحبر أحمر علامة استفهام كبيرة وتحتها قطرة دم. جاء مجيد بنفسه مع حشد من مساعديه.. فحص الموقع من كل زواياه وتلمس الجدار والحبر الذي رسمت به العلامة وفي داخله كان يبحث عن حلقة غامضة تربط العلامة الحمراء بالمتفجرات التي تهز البلد:

-كل هذا وانتم مشغولون بمؤخرات قحباتكم! ماذا تنتظرون، أن يرسموا هذا الخازوق على مؤخرات زوجاتكم؟!

صاح مجيد بغضب وهو يلتفت لمساعديه الواقفين بارتباك حوله، فانتشروا بهمة مرتبكة وقطعوا السير في الساحة بكاملها ومسحوا علامة الاستفهام بصبغ شديد البياض مخلفين على الجدار فراغا موحيا.

صبيان المدارس وجدوا في الأمر لعبة تحد مثيرة، فرسموا علامات استفهام على سبورات الدرس قبل دخول المعلم، وعلى كل جدار أبيض داخل المدارس أو خارجها، ومنهم سرت العدوى إلى الجميع. بعضهم يرسمها بصبغ وخط معتنى به على جدار عريض في مدخل المحلة، وبعضهم بخط مرتبك خائف على جدار التواليت أو محفورا بدبوس على جلد كرسي في باص.

خلال أيام امتلأت جدران المدينة وواجهات المحلات بعلامات الاستفهام وانشغل جهاز الأمن والجيش بعمل دؤوب لا ينقطع ليل نهار لمسحها حيثما ما وجدت فيعيد المخربون كتابتها حالما يغادرون.

لم ينم مجيد ليلته الخامسة . محظيته لحظت ذلك في السرير: نقر كالعصفور المضطرب ثم قفز من السرير مرتديا ملابسه على عجل راميا

النقود على السرير وهو يغادر مبربرا مع نفسه.

جلس وراء مكتبه في الصباح وحالما نظر الى التقارير المكدسة أمامه طردته نفس الحروف المكتوبة بخط ناعم:

- أعطوها لمعلمي المدارس!

لم يكن قادرا على التركيز حتى ولو للحظات على التقارير المكدسة أمامه لأنه غير قادر على تجميع الحقائق والأسماء، وغير قادر على استنتاج حقيقة من حادثتين منفصلتين، إنما يعالج كل حالة بمفردها، فما إن يضع مؤخرته على كرسي المكتب حتى تداهمه صورة فتيان صغار استغلوا غيابه ليرسموا علامة استفهام أخرى على جدار، كأنهم بذلك يعنونه بالذات متقصدين السخرية فرفس كرسيه:

- ساختنق في هذا المكتب المليء برفوف الملفات مثل قبو عزرائيل !

وصرخ في الممرات:

- اخرجوا من توابيتكم!

خرج المساعدون وراءه وهم يشدون مسدساتهم ويزررون جاكيتاتهم على عجل.

يدور بهم في الشوارع كما في كل يوم دون أن يلوي على شيء. الشوارع التي حفظها شبرا شبرا من أيام بطالته، تعطيه إحساسا بالحرية والطلاقة، وقد بقي أمينا لها رغم مهنته الجديدة، يجوبها ويدخل مقاهيها، عارفا جلاسها وبماذا يتحدثون، وأيهم أمهر في رمية الزار. ورغم زحمة المدينة وكثرة ناسها امتلك ذاكرة فلاح يحفظ الوجوه والأسماء. ما إن يستوقفه وجه، حتى تتحرك ذاكرته بسرعة عارفة اسمه ومدينته وأقاربه وعمله واتجاهه السياسي، إذا كان له اتجاه.

كان غاضبا لأن جبهة الحرب لاتشبع وتحتم عليه المزيد من المجندين فيجوب الأزقة نازعا الرجال من دكاكينهم، من محلات حلاقتهم، من مقاهيهم، من غرف نومهم ويجمعهم في الساحات:

- إذا دخل العدو بلادنا سينـ... امهاتكم وزوجاتكم، من منكم مستعد لأن يكون قوادا بقرنين فليتقدم إلى هنا!

بعد فترة صمت وقف في المكان المخصص للقوادين كهل عصبي، لم يحن رأسه خجلا، إنما تلفت حوله باسما ومباهيا بشجاعته. بعد قليل تلفت مدرس رياضيات حوله بعصبية وتقدم خطوة، ثم تطلع للمسافة الباقية وتقدم ثلاث خطوات طويلة ليقطع ترددا في داخله ويصطف بجانب الأول. الثالث لحق به وتوارى خلفه. بقي مجيد يتطلع بذهول: أيوجد حقا أناس بهذه الوقاحة والخبث؟!

لكنه التفت للحشد:

- انتم الشرفاء إذن ومن سيدافع عن شرف نسائنا. أما أنتم ايها القوادون فستذهبون للصفوف الأمامية دون سلاح، في حين تذهب نساؤكم للمبغى.

بهذه الطريقة يصطف الناس أمام الشاحنات التي تنتظر المجندين، يدمدمون، ،يلوحون بايديهم احتجاجا، لكنهم يصعدون، وحين يستقرون داخل الشاحنة يحل عليهم الوجوم، فقد دخلوا نفق الموت...

المباغتة كانت فلسفته ومبدأه في التعامل مع الأمور. يتقدم أولا بوجه مرتخ سمح :

- أنت جليل طبله!

يقولها بيقين دون تساؤل.

-هل تتذكرني؟

- لا، من أنت؟

- أنا أتذكرك.. أنت من....

- صحيح، ماذا تريد؟

- أنت وقعت مذكرة الشيوعيين...إذن خذ يا طبلة! (ينطحه بين غضروف الأنف ومفرق الحاجبين)..هذه مجرد شوربة خفيفة قبل الأكل.

وفلسفة المباغتة علمته أن من يضرب الضربة الأولى يكسب المعركة. و كان بارعا في استخدام ضربة الرأس، ويستغل لحظة الذهول والدوار التي تليها بسلسلة ضربات متتالية حتى يسقط الآخر قبل أن يرفع يده.

داهم مقهى يجتمع فيه السياسيون القدامى مختطفا الجريدة من يد قارئ لا على التعيين:

- تختفي وراء الجريدة يا جبان؟! أراهن أنك ستغمز بعينيك من وراء ظهورنا يادساس، أو ترسم هنا (ضاغطا بأصبعه بين حاجبي الكهل المذهول) علامة استفهام.

بعدها داهم الجامعة متقصدا ذات الأستاذ الذي كتب في الجريدة (اقتصاد البلد يفتقر إلى التخطيط). هذا ما يقوله لتلاميذه كل يوم، ومنه يتعلمون خط علامات الاستفهام في كل المدينة. أمام أعين الطلاب جره من وراء منصة التدريس ووضع وجهه في مواجهة السبورة.

- كل علامات الاستفهام هذه وتدعي البراءة؟!

لطم رأسه بالسبورة تاركا جسده الهش مطروحا على الأرض وهو ينزف أمام طلابه.

مهنة الحماية علمته أن الزمن لا يرحم، لذلك ينبغي الرد على الفور مستخدما العنف كرد سريع وأحيانا قبل أن تقع الواقعة.

تزايدت الشكاوى عليه من وزراء ومديرين عامين وأساتذة جامعة، فكان وهاب يهدأهم:

- إحسبوها علي!

يصدق وهاب هذه الشكاوى، لكنه يحيلها لإخلاصه، فلسذاجته لا يعرف غير العنف وسيلة لإثبات هذا الإخلاص، ومع ذلك فهو غير قادر على أن يضحي بابن عمه لأنه لا يملك مثل الآخرين طموحات بعيدة أكثر من افتدائه لنيل رضاه. لا يفعل ذلك تزلفا ولا طمعا بمنصب، إنما بحكم شيمة أصيلة فيه، أن يدافع عن صديقه القديم وابن عمه الذي أصبح بالصدفة قائدا. هو الوحيد الذي يثق به وهاب لأنه غير قادر على الحكم ولا راغباً فيه. على العكس فقد علمته الخدمة العسكرية الطويلة أن يواري خرق مزاجه وراء رجل يفوقه رتبة.

حين يلومه وهاب يستمع اللوم قالبا شفتيه مثل طفل برم بهذه المهنة:

- لا أستطيع أن أغير جلدي فقد خلقت جنديا، أعدني كما كنت!

- مستحيل يامجيد، لا آمن رجلا غيرك على مفتاح غرفتي حين أنام، فكل الآخرين يبيتون لي طعنة.

باستمرار يتصل به فيخبره المساعد:

- خرج بمهمة.

عندما يعود يمازحه وهاب:

- متى تخرج الفلفلة من طيـ...؟

- سامحني ياسيدي فطيـ... لا يطيق خازوق القطيفة خلف المكتب.

كان مجيد في عز قيلولته حين ألقوا القبض على مجموعة طلبة وهم يخطون العلامة ذاتها على الجدار. سمع الضجة في الممرات وقد داهمه مغص شديد من أكلة كباب بارد. قبل أن يغسل وجهه نزل الى القبو بدشداشته ونعال الإسفنج والمنشفة على كتفه. وقف أمام المجموعة وقد أخفى بيديه شيئا خلفه. مط رقبته حتى طقطقت عظامها و تنحى الجميع جانبا.

- لن تعترفوا ولن تقولوا حرفا واحدا.. هكذا يعلمونكم في الأوكار؟

-...

- تعال أنت... لا، أنت الطويل الذي في الوسط!... تقدم خطوة!

شهق وهو يمد قامته وظهر قضيب الحديد عاليا بارقا للحظات ونزل مسددا الضربة نحو خط وهمي بين حاجبي الصبي الواقف أمامه وقد حل في وجهه تعبير يجمع الدهشة والتساؤل. ما من أحد، حتى ولا مجيد نفسه، توقع ما سيحدث، فقد طار الصبي في الفضاء وسقط على الأرض الكونكريتية بالتواءة حادة وخمد وسط بركة من الدم.. آنذاك سحب بقية الطلبة أيديهم عن عيونهم وقد ندت صرخة:

- آآآآآه...

في لحظات الصمت التي تلت تقدم واحد منهم:

- أنا سأعترف.

* * *

- كثير جدا مقابل أجر قليل. سبعة دنانير مقابل كل عملية إعدام.

ابنك يتقاضى نفس هذا الأجر يا أبا هاشم! أجرة حمال في السوق!

يتردد صوت أبوهاشم الجلاد في القاعة الخامسة، كما في كل يوم وقد أنهى قنينة العرق ونصب كرسيه عند باب القاعة مقربا وجهه من القضبان الحديدية ممسكا بيده القفل وقد ترك الضوء على وجهه الطويل الناحل ظلالا عميقة.

تتردد كلماته بحذافيرها كل يوم دون أن يصغي له أحد. كأن هناك اتفاقاً عاماً على التعامل معها كهذيان سكران:

-... كان للعملية في السابق متعتها و هيبتها: نستعد لها أنا وابني، كان عمره آنذاك اثني عشر عاما، قبل يومين.. نثبت العمود بحيث يسمع السجن بكل ردهاته صوت الضربات ويخيم الصمت على المساجين والسجانين، ننظف المنصة ونتأكد من حركة الدرفتين تحت قدمي المشنوق ونشحم الحبل ونجرب الباب، فأي خطأ سيخل بهيبة المشهد أمام رجال لهم هيبتهم. يربت المدير على كتفي : أبو هاشم، اعتمادنا عليك! فما من أحد غيري في بلد الأرانب يملك قلبا من حديد مثل داعيكم أبو هاشم. المكافأة كانت مجزية خمسة عشر دينارا.. راتب معلم لشهر كامل، ومعها بطل عرق هدية من المدير عن الرأس الواحد...

لم يكن نوما هذا الذي خيم على القاعة إنما صمت صاخب، فالجميع يترقبون دورهم في جولات التعذيب التي تصاعدت مع علامات الاستفهام على الجدران وعلى إيقاع الانفجارات التي هزت المدينة. لم يكن الجميع نياما، ففي المرآب المتصل بالقاعة وبين كدس من الأكياس، في عمق الأرض التي تلي قاعة السجن طرق كتيم:

- تك تك تك...

فقد استمر حفر النفق بسرعة وإرتباك يختلط فيه الخوف بالحماسة. ودون أن يقرر أحد أصبحت السرعة من عوامل النجاح الحاسمة. ما من أحد قال لماذا، لكن الموت القريب أيقظ حمية العمل، فمنذ أن بدأت علامات الاستفهام على الجدران، بدأت التحقيقات والاعترافات في التلفزيون حول مؤامرة شيوعية تبدأ بمظاهرات طلابية وإضراب عمالي تمهد لتحرك صغار الضباط يساندهم تدخل سوفياتي. ولذلك يستيقظ الجميع فجر كل يوم على صليات الرصاص التي تلعلع في الساحة العارية وراء الأسلاك الشائكة تذكر كل واحد من المساجين بأن من الممكن أن يأتي السجانون غدا ليخبرونه:

- ودع رفاقك وجهز نفسك للإعدام صباح الغد!

لذلك ضوعف عدد المشاركين في الحفر الذي استمر ليلا ونهارا دون توقف. الجدد فوجئوا بهذه الحفرة الغائرة وبدأوا عملهم بعصبية لا تعرف كيف تتكيف مع سرية العمل داخل المرآب وغفلة الجميع في القاعة. وقد أبدى قادر تخوفه لأن النفق ازدحم بأمزجة عنيفة قليلة الصبر:

- أمتأكد أنت من أننا سنصل الى مخرج؟

سأله أحد الجدد وقد ضاق صدره من هذا الجو الخانق الذي تختلط فيه الظلمة والغبار برائحة الجلود العرقانة والأنفاس الفاسدة وعطن الجذور. توقف قادر عن الضرب ومسح العرق بطيات كمه:

- إذا لم نصل فهذا يعني أننا انحرفنا قليلا، ولكننا لن نخرج من القطب الشمالي.

- قال ذلك بغضب لكي يقطع الطريق على هذه الأسئلة المتشككة التي ستزداد كلما توغلوا أكثر وأصبح التنفس أصعب.

من أين لك هذه الثقة؟

-أية ثقة؟

سأل قادر وهو يجمع التراب في الكيس. فهو لا يعرف الثقة التي يتحدث عنها هذا المثقف الناعم الذي يضايقه بكثرة الأسئلة. على العكس راودته الشكوك لأن أصابعه تتحسس إزدياد نسبة الرطوبة كلما توغل أكثر. وما من أحد مثله يتهجس خطورة ذلك، فأسوأ ما يتوقعه هو الإقتراب من مجرى مائي قد ينفجر في أية لحظة ويغمر النفق ومن فيه.

لكن الخوف الأكبر يأتي من هذا الكلل والشكوك التي تعتري رفاقه كلما توغلوا أكثر وأصبح التنفس أصعب. ولذلك يقطع أسئلة الآخرين بالغضب ومواصلة الحفر بعصبية:

-لم ننحرف حتى الآن. تلمس جدار المطبخ!

لم يفهم مروان هذا البرهان الغامض، ولا أتعب نفسه بالتدقيق، إنما اعتمد كليا على خبرة الآخر، ومع ذلك كان بحاجة لسماع شيء جازم يلغي مخاوفه، لكنه كان خائفا من خشونة الرد.

راقب مروان هذا الوجه المربع الحاد القسمات الذي يزيده ضوء المصباح خشونة وحدة.. منذ زمن وهما يتبادلان الحساسية ولا يتحاوران إلا بجمل قصيرة وحادة. في داخله لم يخلص مروان من إحساس ملازم بالقرف من رعونة وخشونة حركاته: الشراهة التي يتناول فيها حساء السجن البارد وتجواله الدائم وهو حافي القدمين وشخيره الذي يهز القاعة.. يستنكر الميانة التي يتعامل بها مع السجانين والنكات البذيئة التي يتبادلها معهم، يكره طريقته السوقية في تلفظ كلمات (البرجوازية) بتشديد الجيم وجر الياء و(البروليتاريا) بتقديم اللام على

الراء. ويدري أنه يسخر من اختصاصه كطبيب نفساني (أكثر تعقيدا من مرضاه) ويسخر من ثقافته بتسميته (ملك الديالكتيك)..خلال فترة السجن الطويلة لم يسمع منه مروان كلاما مفيدا حتى ضاق من تكرار كلماته وخشونتها، مع ذلك اكتشف مروان أن شحة مفرداته في الكلام تعادلها قدراته على اتخاذ القرارات العملية السريعة.. لقد قبل المشاركة معه في حفر النفق كنوع من التحدي له بالذات: لست ذلك الكائن الناعم الذي تتصورني! لكن كلما توغلوا في الحفر، يكف العمل عن كونه امتحان إرادة أو عنادا مع النفس ويزداد اهتمامه بفتحة النفق الأخرى كنافذة للإتصال بالحياة التي فاته الكثير منها. فقد قضى شبابه سجين صومعة والده الوجه الوطني والنائب في برلمان منحل. أمام رفوف عالية من الكتب والصور التذكارية يجلس والده على أريكة وثيرة ملتفا بعباءته.. هناك عرف السياسة وكلماتها الكبيرة (الإستقلال الناجز،نهضة الأمة، الدستور). وكان على وشك أن يأخذ مكان الوالد بين مريديه حين هزت أول القذائف القصر والبرلمان وبدأت دوامة الانقلابات والعنف التي حملته من تلك الصومعة الى السجن قبل أن يشارك في مظاهرة أو إضراب. ورغم أنه يناكد رفاقه هنا ويردهم من موقع الإعتداد بثقافته، لكنه يلوذ بالصمت كلما تحدثوا عن مشاركتهم في مظاهرات أو توزيع بيانات أوحياتهم في أوكار ويحسد رفاقه على تلك القدرة العملية الطيعة كلما واجههم موقف عملي، بينما كانت ثقافته مصدرا لعذابه، فكلما اتسعت افكاره ترتد عليه كالصداع حين تصدها جدران هذا السجن المقبض. وكلما توغلوا في النفق الهب فيه ذلك توقا مريرا وعصبيا الى الحياة التي سيمتحن بها افكاره.

استغرب قادر، وهو يناول مروان الإزميل والمطرقة، هذا القرب بينهما: هاهي السنة الخامسة، ومع ذلك مازال هذا المترف معه في القاعة، بل في هذا النفق الضيق! بشئ من السخرية (والرثاء راقب اهتزاز وجهه مع ضربات المطرقة والعصبية التي عض بها شفته واليد البيضاء الشاحبة التي غطاها التراب كأنها يد ميت حديث. لم كان ينفر منه؟ فكرته عن البرجوازية ونفسها القصير؟ كان واثقا من ذلك يوم استدعاه يعقوب لجولة خارج السجن: أراهنكم أنهم سيفرجون عنه بوساطة من والده وبتوقيع تعهد خفيف بأن لا يعاود العمل السياسي! هاهو الآن معه.. في نفس السجن وفي نفس النفق وربما كان أبو هاشم الجلاد ينتظره، هو بالذات عند باب القاعة.. هذه الرقبة النحيلة البيضاء... تابع قطرة عرق تنزلق بصعوبة ثم تستقر فوق حاجبيه. يغالب وجع أصابعه من ارتجاج الإزميل ووهن ذراعه وقد تصلبت وضغط إرادته وهو يسدد ضرباته. حاول قادر أن يأخذ المطرقة منه، لكنه تمسك بالمطرقة وبعناده ضد فكرة الآخر عنه: لست الكائن الهش:

- واحد اثنان ثلاثة...

* * *

داخ الرئيس وهو يتجول في المدينة بسيارته المدرعة فتواجهه العلامة حيثما ذهب:

- ماذا يريدون مني؟

قال للوزير الجالس بجانبه بين الغضب واللوم. فقد فعل ما بوسعه لإنقاذهم.. وزع عليهم الحنطة الكندية المعفرة مجانا ليعيدوا زراعتها، لكنهم لم ينتبهوا إلى التحذير وقد ظنوا العظمين والجمجمة الموسومة

على الأكياس شعار الدولة، فأكلوا الحنطة و بدأوا يتساقطون تباعا بعد أن رفسوا الهواء من حرقة النار في أمعائهم وتقيأوا سائلا أخضر. بعدهم بدأت تتساقط أبقارهم وهي تخور ناطحة الحيطان حتى الموت، ومعها دجاجاتهم وأسماك النهر الذي ألقوا فيه الأكياس (يا للغباء!).

استورد بيوتا جاهزة على شكل عمارات كاملة بتجهيزاتها الكهربائية وحنفياتها وبراداتها. تصل إلى الميناء وتنقل بالمروحيات إلى مناطق التجميع، لكنهم رفضوا البيوت متمسكين بخيامهم الرثة حيث يدوي الليل بشخيرهم وصراخ أطفالهم. لقد رفضوا عطاياه واختاروا خيام الجوع. عم يستفهمون إذن؟

وكان للوزير تفسير جاهز:

- العلامة تعبير عن فراغ ينبغي أن يملأ.

بسخط نظر الرئيس للناس السائرين تحت العلامات مختفين وراء أقنعة مستكينة مدلسة:

-لا تعجبني نظراتهم ولا هتافاتهم الباردة!

قالها بطريقة تلوم الوزير نفسه. ومن هذا الجزع تكونت فكرة الوزير:

- لا ينبغي انتظار الحب، ليأت على مهل، إنما تنبغي صناعته وفرضه على الناس فيتقبلوه كقدر، ثم قناعة حتى يصبح حبا صافيا!

هذا التحول حدث له، فلماذا لا يحدث للآخرين؟ وكان الوزير والقائد معا في رحلة صيد. من بعيد راقبه الوزير مفتونا بقامته وهو ينزل من أحد التلال واضعا بندقيته على كتفه. بطلقة واحدة أسقط الغرنوق من سربه. (رجل بهذه الوسامة والحيوية جدير بأن يجعل الحكم مغامرة مستمرة بلا رتابة) وحين اقترب تقدم منه بولَهٍ:

- لقد تابعت سير الرجال العظام، واحدا، واحدا، ووجدت أنه ما من واحد منهم إلا وله عيد ميلاد يحتفل به رعاياه ليعبروا عن حبهم له. لم هذا التواضع يا سيدي، لم لا تمنح الناس فرصة للفرح بك؟ !

الإطراء أيقظ الطفل الخجول داخل الصياد الذي أسقط الكلب السلوقي الغرنوق الدامي بين قدميه:

- أنا كما تعرف من عائلة بسيطة لم تسجل يوم ولا عام ميلادي.

- وما الضير، المهم هو الرمز، سنفكر في يوم ربيعي ولد فيه النبي نفسه، وستكون الصحراء مكان المعجزتين!

لم يقل الرئيس نعم، وهز رأسه حائرا فالتقط الوزير ذلك الصمت بداية حملة لملء الفراغ.

من بين مئات الصور اختار صورته الطويلة التي التقطت من موقع منخفض لتبرز طول قامته ورأسه الغائر في سماء ربيعية وقد وضع يده على مقبض السيف. وزعت الصورة بثلاثة أحجام أمام الدوائر والمعسكرات والمدارس والجامعات، ثم مداخل الأسواق ومفارق الطرق وفي الساحات العامة، وفي داخل غرف الدوائر وصفوف الدراسة. فيما بعد جربت الطريقة نفسها في البث التلفزيوني، فحتى خلال البرامج العادية تنسل صورة القائد واقفا بطول قامته ممسكا بمقبض السيف بسرعة خاطفة يصعب التأكد منها. لكن حاسة غامضة تلتقط الصورة وتحتفظ بها في أعماق الذات حتى بدأت الصورة تظهر في أحلام الناس، بل إن البعض يؤكد بأنه فتح التلفزيون في الثالثة فجرا فظهر الرئيس وهو نائم في سريره يحلم نيابة عن الشعب الغارق بالكوابيس بوطن جميل ومهاب .

..على أغلفة الكتب المدرسية، على وجه العملة وطوابع البريد. لم يكن الوزير نفسه وهو يهندس توزيع الصور في الفراغات يسعى إلى الحب، بل إلى الشماتة. يدفع فيه الغرور وحب الذات حتى نهايته فأمر بوضع صورته وهو واقف على طوله ممسك بقبضة السيف على دفاتر الدراسة وقناني الرضاعة والساعات اليدوية...

الناس الذين وصلتهم الأوامر بالغوا في تغذية هذا الجنون فعلقوا عشر صور بدل الواحدة أمام أبواب بيوتهم، وبينها صورة الابن الذي قتل في الجبهة.. فعلوا ذلك دون حب، إنما بنوع من النكاية به وبأنفسهم، كأنهم يعظمون عارهم كلما عظموه.

يعرف الوزير ذلك، ولكن فكرته لا تقوم على الحب، إنما على التكرار الذي يزرع الصورة في لاوعي المواطن بحيث تقفز صورة الرجل الممسك بقبضة السيف كلما قال أحد(هو). وقد أراد الوزير الوصول إلى نتيجة مؤكدة بان هذه الصورة ستبقى حاضرة في ذهن المواطن حتى عند غيابها، وبعد تجارب عديدة تأكد من أن هذه النتيجة ستتحقق إذا تكررت الصورة أكثر من خمسمائة مرة في اليوم، ولكن بتواتر وسرعة، ولتحقيق هذه الفكرة افتتح في عيد ميلاد القائد شارع جديد يحمل اسمه يخترق المدينة من وسطها.. شارع عريض وشديد الاستقامة تقطعه خطوط بيض وعلى جانبيه أعمدة شامخة تنتهي بتيجان فوق كل منها صورة القائد واقفا على طوله ممسكا مقبض السيف وينظر للعابرين بحزم مكابر. حددت سرعة السير الدنيا بستين كيلومترا في الساعة بحيث تقتالى صور القائد في أعين العابرين في ضربات حادة تخترق البصر وتنفذ إلى الذاكرة في إصرار لا مرد له ولا يستطيع العابرون الذين أغلقت عليهم الطرق الأخرى الإفلات من وقع الصورة والركون لفكرة داخلية.

أحب القائد هذه اللعبة المتتالية: يغادر مكتبه في ساعة غير معلومة ويأمر موكبه بالسير بأقصى سرعة ممكنة فتتكرر صوره أمامه يتابعها بعينين نشيطتين من وراء زجاج سيارته ويبتسم بغبطة وهو يرى نفسه هنا وهنا وهناك وفي جوانب الشارع وعلى مداخل الأبنية، كأنه يتكرر في مرايا متقابلة:ويزداد حضوره في كل مكان حتى وإن غاب هو نفسه. في أحلامه يرى طابورا لا نهاية له مصطفا بملابسه العسكرية في حالة استعداد تام بانتظار أمر منه. يحدق في وجوه الجنود من منصته العالية فيكتشف أنهم صورة مكرورة منه، وأحيانا يحلم بأن وزراءه جلسوا حول طاولة اجتماعات طويلة جدا ينظرون إليه هو الجالس في صدر الطاولة بانتظار أن يقول كلمته. ولم يكونوا في حقيقة الأمر إلا هو مكررا حول الطاولة..لم يكن التكرار مملا ولا مخيفا له، إنما يرضيه حين يريه مدى تغلغل سلطته.

لم يتطلب الأمر إلا أوامر قليلة وشيئا من الحزم حتى وجد الخوف استجابة من نفوس كأنها كانت تنتظر الإيعاز، فقد استطالت سجلات التشريفات بأسماء شعراء عموديين، لا يعرف أحد من أي عصر أتوا حاملين قصائد مطولة في مديحه:

ماذا أقول بمن حطت له قدم
في موضع وضع الرحمن يمناه
...
رجل أنت والجميع جوار
...
يركع الشعر والكلمات حين تمر
...

قامة تشبه المحال وسيف براق

...

قلها فنأتي عذارى

أيها الفحل...

ما من مغن أو مغنية، إلا حور كلماته عن الحبيب الأول والأخير، لتعنيه اسما أو ضمنا، وبعد الاصطفاف المدرسي يتقدم طلاب مختارون لإلقاء كلمات تمجد (الأب والمعلم) مستشهدين بكلماته، وتكرس درس الإنشاء لأفضل من يصفه وهو يزور المدارس ويوزع الدفاتر والحليب على أبنائه.

المتكلمون في المناسبات تفننوا في إيجاد أعظم الألقاب له:

النساء يسمينه (الفحل) وأئمة الجوامع (الوهاب) وجياع المخيمات (المنعم) والشعراء (الرمز) بينما كان هو تواضعا منه يكتفي بلقب بسيط (أنا)!

المهندسون قضوا ليالي طوالا يرسمون قصرا بأقواس وأروقة تليق بعظمة سلطته والأساتذة الجامعيون يعقدون الندوات والمؤتمرات حول واجبات الرعية تجاه حاكمهم. والوزير نور الدين مدفوعا بمزيج من الخوف والكراهية أراد أن يوصل هذا الجنون إلى نهايته فيغلق بصورة القائد كل مجالات الرؤيا.

* * *

بانتظار الهجوم الكبير أسند قاسم فنجان ظهره بقوة إلى جدار الخندق ليكتب في دفتر صغير مقاطع غائمة كالشفرة يسميها (مذكرات من تحت الأرض):

صحوت من غفوة تلي الموت في تلك الجزرة فوجدت الموت فوقي تماما: بعينين شديدتي السواد مثل مغارتين وفم باسم فوقه شاربان مستقيمان: أنت سكران هنا والكل في الجبهة!؟ بجانبه رجل يحمل دفترا سجل فيه مواليدي وحرفتي ومكان سكني. كل شيء بعد ذلك مضى مثل حلم سريع، لا ليل فيه ولا نهار. في معسكر التدريب السريع، قال لنا الضابط (لا وقت لدينا، فالتدريب سيستكمل على الحديدة الحارة).

أحب قاسم الحراسة التي تمنحه الوقت الوحيد للتأمل، وأحب العريف مراد:

- أريدكم أن توقظوا الموتى من غفوتهم حين أقول (استعد)!

حين دوت أول القذائف تذكر قاسم فنجان المرأة أين هي الآن، في هذه اللحظة التي تصفر فيها القذيفة في هذا الصباح الباكر؟ ماتزال في فراشها بنصفها السفلي شبه العاري في نفس السرير العريض (سريري يتسع دائما لاثنين)، أكيد أنها رقصت وسكرت ليلة البارحة وستنام اليوم لوقت متأخر وستفتح عينيها لتتلمس مكان رجل بجانبها، مكاني: الحرب عاشقتي الولهانة.. مشطت في الليل شعرها الأسود الممتد على طول خنادقنا، وملأت ليلنا بالرصاصات الخلبية.

لم تنم حبيبتي من الشبق فقد صبغت بالدم شفتيها وأشعلت بالحرائق صدرها و مسدت ذنبها الطويل وخطت الأرض الحرام عابرة حقول الألغام.

من بين كل هذه الطوابير المعدة للموت جاءت إلي: أنا قاسم فنجان

المجند رقم ٥ ح من سرية المشاة السابعة والعشرين :

- أحبك!

قالت وهي تنحني علي في قاع الخندق!

تقطع القذائف المتباعدة سياق فكرته فيفتت خوفه بحديث لا يتوقف:

- أوصلتها لباب البيت (في أمان الله!) فأمسكت بيدي بأصابع كالكماشة (أين؟)...

- يا حمار!

صاح به سعيد مردان بسخط وهو يفرك ما بين ساقيه من الهياج.

- دخلنا بيتها على أطراف أصابعنا مثل اللصوص، وقد خلعنا أحذيتنا حتى لا يسمعنا أهلها، وصعدنا متسللين إلى غرفتها في الطابق العلوي...

- سكرانة كانت؟

- طينة... أدارت لي ظهرها: افتح السحاب !

-افتحه بسرعة!

صرخ سعيد مستحثا.

- هل تصدق أني لم استطع ذلك؟

- ثول!

- لم أفعل ذلك في حياتي... أعني هذه هي المرأة الأولى التي تأمرني بذلك أمرا. كل سابقاتها كن خائفات..ألح عليهن فيرفضن خجلا أوخوفا...في النهاية يستسلمن.

حواسه المتهيجة من الخطر ايقظت في مخيلته مغامرات جنسية لم

يعشها أو محورة يرويها لأثارة الآخرين وبها يسخن بها خصيتيه وتغريه هذه الدهشة المتلهفة التي يقابله بها رفيقه في الخندق سعيد مردان الذي يكرر أمامه:

- حرام أن يموت في هذه الحفرة إنسان مثلك قرأ كل هذه الكتب وأحبته كل هذه النساء.

عندما تكثف القصف واقترب، نام قاسم فنجان على جنبه مرتكزا على كوعه يلوك لبانته بسرعة ويتوقف فكه الأعلى كلما دوت قنبلة جديدة. يجاوب عن أسئلة زميله الذي يستحثه لمواصلة الحديث بغياب تام:

- هل هي جميلة؟

- جميلة.

تلفت قاسم حوله باحثا عن شيء يشبهها: ((جميلة مثل قبر)).

مع كل رصاصة أو قذيفة يمد قاسم رأسه من الخندق ليرى ما هناك فيجره سعيد.

- مالك!؟ سقطت بعيدا، لا تقلق! قبل أن يشتد القصف، قل كيف نمت معها ؟

-نمت طبعا، طبعا،مرتين،مرات..

-هي التي أمرتك بذلك.

لم يكن سعيد مردان متأهبا مثله، إنما يلف سيجارته بأناة منتظرا أن يغلي إبريق الماء على الجمر. فالخدمة العسكرية الطويلة علمته حرفة القتال بلا حماسة ولا خوف منتظرا بلا شغف الرصاصات الخلبية الثلاث... بدأ يصب الشاي لرفيقه في الحفرة متحكما بحركاته ومشغولا تماما بهذا الآخر:

- هي التي نامت فوقك طبعا؟

- بم بم بم.

- هي.

-وأنت مجرد عبد مطيع؟

- أنا...

- وأهلها؟

-بم بم

-سألتك عن أهلها؟

- بم!

- نيـــــام

- بم!

- تسمح لي بجولة ثانية.

قفز سعيد مردان من الخندق قاطعا المسافة العارية محني الرأس وقد صفرت فوقه القذيفة، ركض متعرجا نحو المرحاض الذي صنعت جدرانه من أكياس التموين. أغلق عينيه عن كدس الغائط وقد فاض عن الحفرة متمسكا بصورة المرأة المعافاة على الجدار: لا ليست زوجتي! نهر مخيلته واستحضر بضغط عينيه صورة المرأة السكرانة. مد يده ليفتح السحاب... قاطعه صفير القذيفة... بعيدا، أبعد، إلى الشرق! بم...

- لن تزعل ؟

- أزعل، لم ؟

- أخذتها من الخلف مرة ومن الأمام...

- من هي؟

- هي، السكرانة التي كنت تتحدث عنها؟

-هل أنت خائف؟

-خائف؟

رد سعيد كمن يسأل نفسه دون سخرية من سؤال الآخر. لا يستطيع سعيد أن يعد السنوات التي قضاها جنديا على حافة الخطر. كان يرتشف شايه بأناة وهو يدخن غير آبه بالرصاصات التي تصفر فوق رأسه ولا التراب الذي يهيل من جدار الحفرة بسبب القصف الذي يهز الأرض. ولكن من الصعب القول إنه لم يكن خائفا.. ففي الساعات القليلة التي تسبق الهجوم تتدفق ذاكرته بعجالة عجيبة: أمه وقد فرغت توا من صلاتها وبدأت تقلب وجهها بالدعاء له كما وعدته، ابنة عمه وقد أعدت الشراشف البيض لعودته من الإجازة، معمل الحليب الذي كان يشتغل فيه. لكنه لم يطرح على نفسه أسئلة عسيرة الحل مثل هذا الشاب الذي يشاركه الحفرة عن سبب الحرب ومن هو العدو.. كان يطفئ الأسئلة بجواب وحيد:

- إنه الواجب!

ويركن للا أبالية جندي ينتظر الأوامر من فوق.

- بم بم بم... ت ت ت ت...

- هذه قواتنا تصدهم .

- متأكد؟

- نعم وستعود لها معافى، وربما بإصابة خفيفة. ولكن حافظ على ذكرك.. ستحتاجه للمعركة الأهم !

- لا ترفع رأسك خارج الحفرة! هل ستتزوجها إذا...

- بم بم بم

- سنموت يا...

- سألتك هل ستتزوجها؟

- بم بم بم

- حذار من أن تخدعك فتتزوجها! هذا النوع...

- بم بم بم!

- طبعا.. اقصد مستحيل!

- الحب!؟

- بم.

نفض الاثنان التراب الذي تساقط من حافة الحفرة بفعل القصف الذي اقترب وأخذ قاسم يلوك لبانته بعجله. وهو يوشك أن يختنق من رائحة التراب والبارود. حين مد رأسه خارج الحفرة أوشك أن يتقيأ من شحة الهواء والرؤية وقد اختلط دوي القصف بصفير الشظايا وهي تشق الهواء باحثة عن اللحم الآدمي، وبنداءات عالية تطلب نقالة الإسعاف وقد صم الآذان صراخ عجيب لم يصدق إنه صراخ آدمي. دوااااررر، دواررر، دوااااااار، ثم تداخلت الأشكال واهتز استقرار المكان وأصبحت الأصوات أجساما كبيرة.

- جنون!

- هذه هي الحرب.

- بم بم

- إذا كانت تحبك عن حق فستفعل ذلك بالتأكيد، وربما تثمر الوساطة فيسرحوك.. أهرب، أهرب بسرعة!

* * *

لم تنتحر ياسمين، كما هددت مرارا ، ولو ذكرها أحد لسخرت من حبات الأسبرين العشرة التي ابتلعتها . ولم يعتزل وليد عند أخواله في الريف متفرغا لروايته.. كلاهما بقي يتردد على الحفلات مترصدا الآخر وقد حل الانتقام محل الحب. استبدلت ياسمين قبة مشوشة تزيدها طولا وعمرا بشعرها السرح الطويل، وعادت إلى فستان القطيفة الرماني الضيق القصير الذي كان وليد يكرهه لأنه يحولها إلى (امرأة لكل الرجال). تتصنع اللامبالاة، ولكنها تتابع بنظرات سريعة متوارية وليد مختبئا مع عارضة الأزياء أو ابنة السفير نصف الأجنبية فترص كعب حذائها بالأرض (طيييب! إذا كان الأمر هكذا سترى!)..تأخذ صديقه المخرج السينمائي أو المقدم التلفزيوني الذي يسميه وليد (الدمية) إلى زاوية خافتة الإنارة من الحديقة ممسكة كأسها بيد ورافعة سيجارتها بأطراف أصابعها إلى الأعلى، وتميل بصدرها إلى محدثها هازة خصلة شعرها بانفعال وهي ترى نفسها بعين مشاهدها وتتهجس انفعالاته (هذا الأناني المغرور الذي لا يطيق ولا يتخيل إحدى نسائه وقد غادرته إلى غيره)...وحين تلتفت تكتشف (يا للنذالة!): أن المشاهد الوحيد الذي كانت تمثل أمامه هذه المسرحية الخطرة لم يكن ينظر إليها لأنه مشغول مع المذيعة التلفزيونية القصيرة القامة التي تشب على قدميها لكي تقترب منه:

- أعجبتني الحلقة الأخيرة من برنامجك عن شعر البادية.

لم يكن قد شاهد هذه الحلقة ولا أية حلقة أخرى، لكنه تعلم فن الإطراء من ياسمين التي اعتادت أن تميل بجسمها إلى الخلف كلما رأت حجرين متراكبين ولطخات فرشاة في قاعة عرض وتطلق آهتها الطويلة الهامسة:

- ألل‍ـــــــــــــه!

وكان وليد يجرها بقسوة:

- ما الذي يعجبك في هذه التفاهة؟

فترد عليه وهي تواصل النظر بعينين ضيقتين:

-لن تخسر شيئا إذا أعطيت إنسانا دفعة للعمل، فأن تفعل شيئا خير من أن لا تفعله.

منها تعلم هذا الكذب المهذب وأضاف إليه نكهته الخاصة (بهذا التاج الأسود ستسرقين سحر الليل، ضحكتك حركت النبيذ في كأسي، لبؤه الليل). كان يستخدم الإطراء مدخلا للنساء السهلات المنال، ويلجأ إلى الاستفزاز والهجوم حين تستعصي عليه امرأة جديدة. ولكنه اعتاد أن يداري حرج البداية بكذبة لينة تقوده لكذبة أخرى. حين يحس بظل رجل آخر يراقبه يردد عبارة هاملت (بدودة صغيرة من الكذب ستصطاد سمكة كبيرة من الحقيقة) ويعلل نفسه بأنه جاء ليكشف الكذب الذي يستخدمه الجميع ويصدقه الجميع ويعرفه الجميع دون أن يجرؤ أحد على تسميته. وقد بدا له الكذب، مذهلا كشيء جديد يستعمله لأول مرة. فيما بعد استعذبه وما عاد يستخدمه للحاجة إنما للتسلية، وحين يتجاوز كأسه الرابعة يغلف أكاذيبه بعاطفية شفافة تجعل صوته أبح خافتا كمن صدق كذبه.

بالممارسة اكتشف أن النساء مللن الجو البروتوكولي المداهن الثقيل في هذه المحافل ويبحثن دائما عما هو جديد ومثير، ولذلك كان يروي لهن طرائف قام بها صعلوك صباه متباهيا بأنه سكن نزلا للبغايا، يقرأ لهن قصائده الأولى فيتصدقن عليه من طعامهن، وكان يسرق الكتب ويبيعها لزملائه ويدور في الأزقة ليتحاشى دائنيه الكثر، و تحت وطأة

الإفلاس كتب قصيدة عمودية في مديح دلال البيوت من أجل أن يعفيه من إيجار شهر كامل.. طرائف لا تحد استعارها من صديقه قاسم فنجان ونسبها لنفسه، لكنها توقظ حواس النساء على شيء غريب فترتفع حواجبهن من الدهشة:

- معقول! أنت تفعل ذلك؟ سلوككم عجيب أنتم معشر الشعراء!

يتنبه فجأة للحركة الأنثوية التي ارتشف بها عطر المذيعة التلفزيونية واللهجة المرحة، ومع ذلك واصل الحديث خائفا من فسحات الصمت القصيرة :

- أين ستأخذينني؟!

- لقاء صحفي...

- وبعده؟

- بعده سيذهب كل منا إلى بيته...

-علام اللقاء إذن؟

- أليس لديك موضوع تتحدث عنه؟أفصح ماذا تريد بالضبط!

- كأس نبيذ؟

- فقط!

- هو الذي يفتح الاحتمالات الباقية

... بدا له الطريق الضيق فوق السدة الترابية الذي تعرش الأشجار على جانبيه مثل كهف بلا نهاية فالتفت للمرأة.. تبتسم بتحدي وقد التفت ساقاها من توتر تحاول أن تخفيه وهي تتخيل ما سيحدث لاحقا:

-لست خائفة ؟

-خائفة ! ممن؟

وكان عارفا تماما بما سيحدث لاحقا: سيفتح الباب ويدخل قبلها ويفسح الطرق(للأميرة في بيت الفوضوي الفقير) ثم يساعدها في نزع الشال عن كتفيها كما فعل مع ياسمين للمرة الأولى (أين هي الآن؟)...يقبلها بعد كأس نبيذ يحل توتر الأعصاب...ثم؟...علاقات بلا حب وجنس بلا أجواء وافترا قات دون لوعة.. دورة تشبه الإدمان تريد أن تعوض جرح كرامته بعد أن تركته ياسمين. (قحبة، غادرت حتى دون أن تلتفت!) .. غيرته دفعته لأن يتمادى في السكر ويواصل الشرب من قدح ثقيل إلى جانب سريره وهو يتلوى في الفراش لا تفارقه صورتها وصدى ضحكتها وهي تغادر الحفل برفقة صديقه المخرج.. يتابعها بمخيلة حادة، دقيقة بدقيقة: ها قد أطفأت الإضاءة الحادة في البيت وأشعلت الشموع وهي تترنم بلحن لفردي وتفتح جهاز التسجيل ثم تصب كأسين...ستطلب من ضيفها أن يفتح سحاب فستانها الضيق:

- القحبة!

ثم تبدأ المداعبات التي تحبها قبل دخول السرير... ويكاد يختنق وهو يتابع أصابع رجل آخر تسير على تلك (المنحنيات الخطرة) التي سارت عليها أصابعه. حين يلتقيها عن قرب في اليوم الثاني يقول لها ضاغطا أسنانه:

- ماذا قال لك الوزير البارحة؟

تبتعد عنه لاوية كتفها بغنج فيلاحقها هامسا في أذنها:

_أكيد أنه اشتكى من عقدة زوجته النحيفة الجافة البشرة ومن ضيق عقلها ومزاجها النحس وقال إنه يحلم بامرأة طليقة مثلك...

- المخرج السينمائي هذه المرة ؟! إذن ستكونين بطلة فلمه القادم.

حين تصرخ بوجهه طالبة أن يكف عن ملاحقتها وإلا...

- بهذا ستختصرين الزمن وتتحولين إلى عاهرة قبل نهاية الصيف..

- وأنت؟

- أنا رجل، لن أخسر شيئا.

- والكاتب؟

- هو الذي يجذبني لسيرك الدعارة هذا. يريد أن يسجل.

قالها مشيرا لرأسه بحركة دائرية من إصبعه.

- كلهم قالوا ذلك في البداية....

كان يطمئن نفسه بأن حياته وسط الشلة لن تحطمه مثل الآخرين ويرسم لنفسه حاجزا من المنطق يفصله عنهم (أنا أنا، وهم هم)، ويجد في داخله أسبابا من داخله، كونه بالطبيعة إنساناً ساخطا متذمرا غريبا حتى عن نفسه، وكلما مسته يد الشبح الذي يطارده يدمدم مع نفسه ولكن بصوت مسموع (اعرف ذلك، أعرفه تماما).. إنه ذاهب إلى نهاية هذا الشوط بقرار مسبق تاركا الأمور تسير على حالها وفق خطة والى نهاية سيقررها لاحقا، ويطمئن نفسه بحاجز هذا الضمير الذي يلاحقه إذا ما خرج عن الطريق. وفعلا كان يتنبه فجأة: (حقا.. ما الذي جاء بي إلى هذا المكان!؟). لو أن أحدا اخبره قبل سنوات قليلة بأن تلك الحياة القاسية التي عاشها كبوهيمي متشرد يجوع من أجل أن يشتري كتابا يقرأه في نفس الليلة بينما تتلوى أمعاؤه من الجوع ومع ذلك يمني نفسه مع كل سطر يكتبه بثورة في الشعر، لو أن (القحبة) التي جذبته إلى هذا الفخ والواقفة أمامه بارتخاء قالت له قبل سنوات: (علام كل هذا

الشقاء فحياتك مرسومة في النهاية مثل الآخرين؟) لفزع وبصق بوجهها. ولذلك يرد عليها:

- لدي ضمير مشاكس يعاقبني بلا شفقة، أما أنت، أنت ابنة هذا السيرك وستعودين إليه.. حتى هيأتك صارت تشبههم.

نكاية به تغادر ياسمين الحفلة مع رجل آخر مطلقة صرخات ناعمة وفضائحية وهي تمثل دور المرأة التي كانت تغار منها، المرأة اللامبالية المستعدة لأن تكون ملك أول رجل يصادفها. بدا الأمر صعبا عليها في البداية بسبب إحساسها بكرامتها التي جرحت لأنها تنام مع رجل لا تحبه. كانت تتشبث بوليد وهي عارية ممددة على السرير بانتظار الرجل الآخر.. تتخيله وليد وهي تغمض عينيها كأنها تسمعه وهو يدعوها لممارسة (فلسفة الإشراق) على السرير وتحس دغدغات لسانه على بطنها وهو يدفع حبة الكرز على طول الخط الممتد بين نهديها حتى شعر عانتها. تشرق وينضح الدمع من عينيها قبل أن يهبط عليها جسد رجل ثقيل، فتصك أسنانها غيظا وتشتمه بصوت تكاد تسمعه:

- نذل، نذل، نذل!

... لاحقا خف إحساسها بالقرف مما تفعله واكتشفت إن هذه المستهترة التي مثلتها كانت موجودة في داخلها بجوار المرأة المحتشمة الخجولة.. سجينة بانتظار الظرف المناسب. وحين اكتشفت الغانية في داخلها بدأت تعتاد عليها فتموج بطنها بليونة بعد أن انحلت عضلات جسدها التي صلبها التحفظ وكفت عن عض شفتها ووجدت نوعا من الاستجابة والإثارة وهي تجاري الهزات العنيفة وغمغمات الرجل المتعرق اللاهث فوقها.

وكلما قطعت شوطا زاد ازدراؤها لوليد وشماتتها به، وأصبح وجوده ثانويا وباهتا كلما صعدت درجة أخرى باتجاه السلطة والمال. ما عادت تتملقه بالإعجاب ولا تصفق حين يقرأ قصائده في هذه المحافل، لأنها تعلم مسبقا أية قصيدة سيلقيها أولا، وتعرف مغمضة العينين الطريقة التي يغمض بها عينيه تدريجيا كلما توغل في القصيدة وخبطة يده وهو يقول (ضربة في الفراغ) وتقلص أصابعه كمخلب نسر وهو يقول و(أنشبها في فؤادي).. لذلك تنظر إليه برخاوة مستهترة وعلى فمها ابتسامة ساخرة تقول: قديمة!

وبدوره كان يتحاشى نظرتها حين يقرأ لأنه يعرف أنها تعرف وفي نظرتها شيء يقول: ها قد تساوينا!

فيصك أسنانه بغيظ: (هي التي جذبتني لهذا الشرك وربما بدفع منهم، وإلا فمن أين لهم أن يعرفوا بقصة جثة الغريق حتى قبل أن أبدأ بكتابتها ؟!). يرتجف حين يتذكر كيف جرته إلى هذا الفخ (القحبة):

-اللـــــــه!

..قالتها ممطوطة متلاشية حين ألقى قصيدته (إنانا) و بكت ثم نسيت حزنها حين رقصت معه واتكأت عليه وهي تسير معه حتى ساعة متأخرة من الليل ثم واعدته في الليلة التالية عند الوزير و.... وقف للحظة وقد الصق وجهه بالزجاج البارد محدقا تماما بالشبح المتواري بهدوء بين ظلال الحديقة (لا ينبغي أن تلوم أحدا غيرك)، فقد عشت على الكذب وستموت فيه.. يقول ذلك وهو يمتص رشفة أخرى من المطرة التي لا تفارقه. كان مستعدا لهذه النهاية قبل أن يلتقيها: الإسراف في الشرب افقده مضاء حسه، وأعطاه بدلا منه الكسل والتثاقل والتعالي والإدعاء..

يعزي نفسه بأنه يعيش هذه الحياة لحين وأنه مدرك تماما ما يفعله ثم تأتي لحظة التواضع التي تقول كل هؤلاء الذين تراهم أمامك فكروا بمثل ما فكرت به: المخرج السينمائي الذي لا يلتقي امرأة إلا وقال لها (ستكونين بطلة فلمي القادم) والكل يعلم أنه لم يخرج فلما منذ أن أصبح المصور الخاص للرئيس، الرسام التشكيلي الذي لا يرسم إلا وفق طلبات المشترين وحجم وألوان صالوناتهم والشاعر الذي أصبح وزيرا يكرهه الشعراء.. لقد دخلوا الحياة بكل مخالبهم وأسنانهم وخرجوا بلا مخالب ولا أسنان....تدريجيا غابت لحظات اليقظة المفاجئة حين توارى الشبح وراء أشجار الحديقة وغادرته لحظات القرف التي تدعوه لأن يغادر الحفل لوحده دون أن يودع أحدا ويمضي سائرا في الشارع وحده ضاربا الأرض بكعب حذائه... لم يعد يفعل ذلك، إنما يهدئ غلواء روحه باستحالة تغيير الأمور حين يكون كل شيء فاسدا حوله، وبدأ يشرب خمرته دون ماء ولا ثلج ولا يشعر بالراحة إلى أن يصل إلى ذلك الدفء اللذيذ والحنان الذي يجعله يتقبل كل إنسان وكل فكرة ويكتشف، يا للسخف، إنه عقد الأمور اكثر مما يجب وإن الحياة والناس أهون والطف مما تصور وينبغي أن يتقبلهم كما هم فتصبح استجاباته دائما مجاملة وسهلة، ولكنه يغلفها بعاطفية شفافة تجعل الدمع يترقرق في عينيه. وكلما راوده شبح صباه ينشه بيده مهدئا (ليس هذا بذي بال، سوف أجد حلا، سأفكر في الأمر لا حقا):

- تعالي يا بلقيس أين كنت البارحة؟ تبدين بهذا الفستان مثل زهرة من الجمر. ما قصة الحب الجديد؟

كان في ذروة سكره وانكساره في ممرات الحديقة حين أمسك يد ياسمين ليوقفها:

- أريد أن أقول بضع كلمات قبل أن اختفي نهائيا!

تمنعت ياسمين أول الأمر خائفة من أن يكسر شيئا من عنادها وترجع الأمور إلى ما كانت: شجار وبكاء وهرش وجه (تفعلها أمامي؟) وتهديد بالانتحار، اعتذار مكرور: (أنت لم تفهميني، لم يكن الأمر اكثر من مداعبة عابرة، كنت ثملا ولا أعرف ما فعلت)، أحاديث معسولة ولعب بالكلمات (أنت آخر قصائدي)...ثم تتكرر الدورة، ومع ذلك ذهبت معه من باب التحدي. وهي تقود السيارة كانت تراقب وجهه بسخرية ورثاء ورأسه مسدل يريد البكاء فلا يواتيه.

- لن أحضر هذه المحافل مرة أخرى!

ضحكت وهي تعرف أنه، سيعود غدا صاغرا لأنه غرق في العسل حتى أذنيه. توسلها أن لا تتركه وهو لا يدري أن وقت الإصلاح قد فات وأن الشيء الوحيد الممكن هو النسيان. كان بإمكانه أن يعرف ذلك بمجرد لفتة ليرى من نافذة السيارة أن نجوم السماء فوقه تذكره بليلة لن تعود وأن مصابيح الشارع على جانبيه تذهب إلى الخلف في ظلمة الليل.

إحساسها بالشفقة كسر آخر عاطفة بينها وبينه. ولكي تقطع آخر خيوطها معه قررت أن تتزوج هذا المليونير البدين الذي له ملامح طفل وقح العينين والذي عرض عليها الزواج بعد أن أوصلها للمرة الثانية إلى منزلها دون أن ينظر في وجهها:

- لك الوقت لتقرري!

- سأفكر.

قالتها بابتسامة تجمع الدهشة والسخرية.

نصائح الأقارب:

- لا تكوني بليدة مثل أختك التي بددت حياتها في الدراسة في

الخارج... أنت تجاوزت الثلاثين وغدا إذا ما سمنت لن يأتي الخاطبون، وستكونين محظوظة إذا عثرت على رجل أرمل في الستين يريدك مربية لأولاده...

- امرأة بهذا الجمال والزينة ستكون مثار ألسنة المتقولين التي لا ترحم.. تزوجيه واستري نفسك!

النصائح اللجوجة جردتها من أحلامها السابقة ومن حصون إرادتها ففكرت بنوع من السخرية والاستسلام: مالها فكرة جيدة؟ لم يتقدم لها أي رجل سابقا بهذه اللهجة المتوسلة:

- فقط اطلبي وسيكون كل شيء تحت قدميك!

فكرت بأن تجرب ولو مرة في حياتها العيش مع رجل طيع تمارس عليه سلطتها وتكونه حسبما تريد. تبني بيتا حسب ذوقها وتؤثثه دون تدخل منه، تقيم الولائم والحفلات في الوقت الذي تريد وتختار الضيوف الذين تريدهم وتستبعد من تريد دون تدخل منه.. باختصار ستكون سيدة البيت الحقيقية. قبلت الزواج منه لمجرد أنه أعطاها إحساسا بالأمان لكونها محمية بالمال الذي يصنع المعجزات.

حين أعلن الخبر في إحدى الحفلات تقدم وليد وانحنى بحركة مسرحية قائلا للعروس بهمس يجمع الغضب والسخرية:

- اهنئك على بلوغ هدفك.. المال والغباء معا!

جرته من يده لزاوية بعيدة وقالت بنفس الغضب الساخر:

- معه ربحت نفسي والحب معا.. فلأول مرة اجد رجلا يحبني بحق ويتركني افعل ما أريد... معك خسرت نفسي تماما.. أنا التي تأتيك ولم تأتِ لمنزلي سوى مرة واحدة: (بيتك انظف مما ينبغي، كأن انسانا لم

يلمسه)...آتيك في أوقات فراغك حين تريدني أنت وأغادر حين تريد أنت أن تخرج لشلتك في المقهى. ألبس ما تحبه أنت لا ما أحبه أنا.. في الفراش كنت أنا التي أتحرك فوقك وأنت نائم على قفاك مثل باشا تركي. حتى عندما تدلعني تدعوني (ياسميني).. مع هذا الرجل سأكون ياسمينة نفسي.

- واهمة.. ستكونين مجرد ديكور يستخدمك لإخفاء أصله كخياط لا يضبط مواعيده وورقة تتيح له دخول المجتمع الذي يحتقره.

.. مع ذلك، ومع شكوكها بصحة ما قاله وليد ذهبت بالتحدي إلى نهايته وتزوجت الرجل. وبدأت تجد الحب من تواطؤها مع ذاتها..

في البداية أحبت فيه الطفل السمين الذي ينفجر بالضحك مثل قذيفة مدفع مع أبسط نكتة، وكانت تدل ضيوفها على حسناته:

- انظروا إليه! ألا يبدو كطفل حين يضحك؟

صرفت جهدا لتعليمه الأكل بملعقة بدل غرف الطعام بأصابع يده وتناول طعامه بروية وهدوء دون أن يغمغم أو يلهث أو يطقطق أسنانه وأن لا يتجشأ بصوت عال أو يروي نكاتا فاحشة أمام النساء. وكان يتضايق من نظراتها المتفحصة الساخطة التي تتابعه كلما تحدث مشيرة بإصبع مشدود (خفض صوتك، إ فتح أزرار جاكيتك!) وكلما خرجا معا تشحط بين أسنانها:

- كم يضايقني هذا الكرش!

وتشد رباط عنقه حتى تكاد تخنقه:

- قاربت الخمسين ولا تجيد شد رباط.

- الناس يسمعونك، لا ترفع صوتك كأنك في معمل خياطة!

فيرد عليها بصوت جهوري فاضح:

- كفي عن مراقبتي.. أنا كما أنا!

في الشهر السادس من زواجها منه اكتشفت صعوبة ردم الهوة الكبيرة بينها وبينه، فحين تبدأ الأحاديث الجادة عن الباليه الأخير وفالسات شتراوس وذكريات أيام الدراسة في الكوليج دي فرانس ينفصل هو عن المجموعة ليلعب النرد صاخبا بأعلى صوته:

-الذنب ذنبي لأني لعبت مع غشيم مثلك..طير!

وأحيانا يختلي مع مجموعة من الأصدقاء طاردين النساء بعيدا عنهم ليتبادلوا النكات الفاحشة التي تفجر الضحكات كالمدافع.

كانت تهرب منه، بالبحث عن موهبة تدفن فيها إحساسا بالعار. بعد دورة تدريبية تحت إشراف استاذ قبرصي تعلمت السيراميك وانهمكت بالطين ومساحيق الزجاج في ورشة في حديقتها. تكدست الجرار وقطع السيراميك في مدخل البيت الأمامي وممرات الحديقة والسلالم وكل حجرات البيت. كان زوجها يسخر قائلا لضيوفه:

- أخاف أن أضر... فتتكسر الجرار حولي... منذ فترة أنام مع الجرار بدلا منها.

وبدأت تكتشف الوحش المهان خلف ذلك الطفل البدين الضحوك الذي لا يتورع عن ضربها حتى تتورم عيونها ثم يقضي الليل متوسلا قرب فراشها حين عزلت فراشها عن فراشه عاد إلى قحباته علانية لإذلالها، وهددها بالقتل حين هجرته، ثم بدأ يروي عنها حيثما ذهب نكتة تقول بأن رجلا مدمنا على المومسات تزوج بعد أن تعب من المباغي. وفي صباح اليوم الثاني بعد دخلته سأله الأصدقاء كيف كانت ليلته الأولى فقال لهم إنها النعيم نفسه لكنني ارتكبت خطأ مع زوجتي، فبحكم العادة مددت يدي بعد المضاجعة إلى جيب سترتي ودفعت لها دينارا. الأصدقاء ضحكوا وسألوه هل حل المشكلة بالاعتذارعن عاداته السابقة، فأجابهم: ليست هذه

كل المشكلة، إنما في كون الزوجة أعادت له نصف دينار بنفس التلقائية.. هذه النكتة كانت تعنيها بالتحديد من موقعها كعشيقة منكوبة وموظفة بارزة عند وزير مشهور بعلاقاته النسائية.

في أحاديث المطبخ، حين تجتمع النساء بعيدا عن الرجال اللاهين بالبوكر، يسألونها عنه فتتجنب الحديث عنه قائلة وهي تنش الماضي بيدها:

- لا تذكروني، سأتقيأ قرفا من نفسي!

وآنذاك تنهال عليها النصائح:

- لا تخرجي من بيت الزوجية خالية الوفاض.. أجبريه على أن يسجل البيت الذي أنت فيه باسمك!

- لاحقيه على المؤخر حتى لو وصلت الأمور للمحاكم!

- لا تردي المبلغ، فهو شعرة من جلد خنزير!

لكنها لم ترد مبادلة الحب بالمال وفضلت الخروج خاسرة لأن ذلك يناسب كرامتها كامرأة منكوبة. ولكي تؤكد حيثما ذهبت بأنها تفعل ما تريده وليس ما تمليه عليها الحاجة. و تردد دائما بأنها لم تعد تؤمن بالحب ولا بالصداقات البريئة، بل إنها تكره حتى رائحة الرجال التي تشبه رائحة مدبغة. ومع جرعة ويسكي ثقيلة ونفس دخان وصمت قصير تعترف بصوت مبحوح خشن بأنها خدعت بقسوة، وأنها سيئة الحظ مع الرجال وستبقى حتى النهاية هكذا: زوجة ظل لا حق لها بطفل بدين يرضع من ثديها. لكن هذا المزاج المكتئب الساخر لن يمنعها من أن تتسلى بحيث لا تترك حفلة أو سفرة يقوم بها مسؤولون وأغنياء تفوتها، ولن تترك رجلا جديدا يدخل الشلة إلا وتعرفت عليه وتتباهى فيما بعد بأنه غازلها أو أنه تخرج إلى الحياة من تحت يديها وإنها تركته بسبب غيرة زوجته الدميمة.

* * *

ثلاثة توابيت ربطت فوق بعضها وغطيت بقماشة كانت تخفق مع سرعة الريح (جناحا باردا يترك ظله على وجوه الأحياء). على الأرض الخشبية للشاحنة تمدد الجرحى وقد نضح الدم فوق بياض الضمادات مثل ورود قانية. أحدهم يئن ويتأوه بوهن مع اهتزاز الشاحنة دون أن يأبه به قاسم فنجان :

خذ دفتري.

واعطني الأنين الذي لا يقول

خذ قلمي واعطني وردة الدم

خذ الفكرة واعطني نقطة النهاية

الأحياء تكدسوا على المصاطب الطولية وعلى الأرض ينكتون ويغنون بفوضى لا تنقطع فلأول مرة يعودون في إجازة قبل أن يبدأ الهجوم الكبير.

-لا تأمن النساء.. تأكد من المرأة قبل الزواج!

-ستدعوك زوجة الضابط للدخول بعد تسلم البريد، لا تفوت الفرصة!

-الحمام قبل كل شيء، ثم إليها. انظر شاحنة تحترق!

خذ الماء واعطني الحريق

خذ...

الكلمات تطرق سمعه واهنة ومنفصلة عن معناها، فقد كان مشغولا بالمشاهد ب (وردة الدم فوق الضماد، والجريح الندي يلامس خاصرتي، ها أنا).. سلاسل من تلال رملية فوقها سقوف المواقع العسكرية المدفونة وقد أطلت منها رؤوس جنود مضهم الانتظار والخوف بين القذيفة والقذيفة، يبحثون في هذا العراء المالح عن شيء له دلالة غير الموت:

- أي واحد منهم أنا؟

.. قال قاسم فنجان وهو يرفع عجيزته قليلا لينفصل عن حديد الشاحنة البارد متهجسا انفجار اللغم:

أترك اللغم واعطني لحظة السهو قبله!

تقطع الشاحنة فيافي الموت مسرعة إلى مصير موحش.. إحساسه بأنه يغادر الجبهات إلى المدينة الآمنة يزيد من خوفه وهو يَقطر الزمن المتبقي له للوصول إلى المدينة الآمنة .

أترك اللحظة الآتية!

لهفته إلى المدينة تقطعها مشاهد الموت على طول هذا الطريق الترابي المرشوش بالنفط الأسود: الهياكل المحترقة للسيارات التي فجرتها الألغام وحولها تناثرت خوذ القتلى و وجزماتهم. ومع ذلك سيصل إلى المدينة غدا قبل الغروب. سيذهب إليها أولا.. بعد الجسر مباشرة سينعطف إلى ذلك الشارع المشجر الضيق.. يدق الباب ويقف هكذا..آخذا هيئة رجل متعب وصبور. لن يلقي نفسه عليها ولن يكشف لهفته، إنما يقف مع ابتسامة مسترخية تاركا لها أن تحزر: من هذا الرجل النحيل الذي احرقت شمس البراري وجهه؟

أترك الأسئلة

وخذ القبلة الهاربة!

لن يسألها أولا عما يريده ولن يطلب منها نقودا حتى تسأله هي بنفسها، وقد تضع النقود دون درايته في بدلته العسكرية المعلقة.

فجأة انحرفت الشاحنة باستدارة حادة، وقد قطعت طريقها كتله هائلة وثقيلة من دخان أسود، غابت وردة الدم وأنة الجريح ووجه الرجل الذي قال له:

- سأبقى في الحمام يوما كاملا...

غاب الطريق المزفت وغابت البراري بانتظار الفاجعة. فقد بدت الشاحنة النائمة على جانبها فوق الطريق المزفت، تتدفق النار مولولة من نوافذها. لم ير قاسم المشهد فقد كان مأخوذا بالمدينة التي ألقي فيها. إنها مدينته، ومع ذلك لا شيء يدل عليها، فقد شقها شارع عريض تنيره كشافات حادة من أبراج تمتد على جانبيه، ومن هذا الشارع العريض تتفرع طرق متناظرة على جانبيها صفوف من عمارات متشابهة كالعلب بنتها مديرية إسكان عائلات الشهداء. طويلا بحث عن بيت ياسمين وبحث على الشرفات عن ثوب معلق يدل عليها، لكن ضوء الكشافات يخز عينيه ورائحة زيت محترق توشك أن تخنقه وما من شيء يحترق سوى هذا الضوء الحاد الذي ينير الأبنية والوجوه بلون الشحم. يتوقف ليسأل.. سيخ ذوو جدائل طويلة ولحى مشبوكة في عمائمهم، فلبينيون عراة الصدور بمآزر مريشة، زنوج زينوا صدورهم بأسنان مدببة..ما من أحد منهم يفهم ما يقوله. ابن الجيران هذا لم يلتفت إليه إنما استمر يمارس عادته السرية واقفا ووجهه إلى الجدار. يفز على صرخات تنبه إلى جريح يتلوى بين الجثث، ومع ذلك تواصل الشاحنة سيرها. وكلما تتالت هذه البقع السوداء زادت مخاوفه من أن يتيه في هذه القفار الموحشة التي تصفر فيها ريح حارة مغبرة ولا علامة فيها غير شجيرات العوسج وقد علقت بها قطع من ملابس الجنود الذين قتلوا.

سيفلت بالتأكيد من هذه المصيدة وسيصل إلى المدينة قبيل الغروب غدا. بعدها سيدخل على الشلة في لحظة الخدر وهم يتداولون اسمه (اين هو الآن يا ترى؟) يفاجئهم مثل شبح خرج من قبر وسيصغون إليه بعيون

منبهرة وهو يحدثهم عن الأهوال التي رآها وبالتحديد الضابط نبهان:

يتفقد كتيبته برأس مقطوع

واحدا واحدا دون اسم

واحدا واحدا

دون راية

كتيبة موتى

لن ينفعل وهو يروي لهم قصته حين دفنه تراب القصف ثم خرج ثانية مثل ميت حي. سيدركون أنه نضج كثيراً خلال حياته الثانية. لن يصرخ طالبا الإصغاء ولن يضرب الطاولة بقبضة يده.. سيستمعون اليه كما يسمعون ميتا عاد من الحياة لأخرى وسيتحدث بهدوء رخيم تاركا للصمت بين الكلمات ان يأخذ مداه.. لقد أنضجه الموت، سيقولونها وقد دهشوا وستبدأ المفاجأة الحقيقية حين يقرأ مذكراته الشعرية:

حملتني حبيبتي الحرب كما الريشة

على المدى المصفر وفوق حقول الحنطة المحترقة

تصفر القذائف فوقي

وتدوي الانفجارات ويصرخ الجرحى تحتي

ويهزني المدى:

إنـــتبه!

وأنا ثمل بالسكون

وبجثتي الباردة.

آخر ما رآه ثلاثة أطفال حفاة على تل ترابي لوحوا بالتحية للسيارة.. فعلوا ذلك دون حماسة إنما استرسال مع ما فعلوه طوال الأيام

الماضية. بعدها دخلت الشاحنة في متاهة عريضة من رمال رمادية غطت الطريق المزفت وآثار عجلات السيارات.

-ما من مدينة في الأفق.

قالها وهو يتطلع من وراء الحاضر فلا يرى غير الصحراء ذاتها: متتالية لانهائية مملة من صحون مترامية تدور حول الشاحنة وتلتقي حوافها بالسماء المغبرة. ومن توهمه وخداع البصر تلوح له في نهاية الأفق كتلة رمادية تشبه المدينة ثم تقترب سلسة صخور رمادية أنشبت أشكالها في الرمال باحثة في الفراغ حولها عن معنى لوجودها. وبعدها تبدأ الصحراء ثانية ملقية حضورها على همته وتوقه. لم يجد المقهى ولا النهر الذي يهدر تحت شرفته، والشلة التي جاء يقرأ قصيدته أمامها جلست في العراء.

يارفاق العراء

يارفاق المتاهة وسط الغبار!

لا يسمعونه وقد أولوه ظهورهم غير دارين بالحريق حولهم.

نام الجنود وسكنت صرخات الجريح وبقيت الصحراء وحدها تدوي تحت عجلات الشاحنة. وكلما طالت المسافة تركزت فكرة أن المدينة التي ينشدها تاهت أو أنها لم تعد موجودة وقد أكلها الحريق.

* * *

بكى الغفاري طويلا لوحده بعد أن شاهد من فتحة ضيقة بين ستارتين في مخبئه نعش أمه يمر تحت النافذة وما من أحد أمامه أو خلفه غير عم عجوز وصبيين.. ماتت بأحلام مبتورة.. ففي البداية كانت تحلم بأن تزوجه ابنة عمه وترى أولاده، ثم كفت عن ذلك واكتفت بحلم بسيط: أن تراه قبل أن تموت...

إحساس دائم بالذنب يطارد الغفاري حيثما ذهب أو فعل لأنه سبب كثيرا من الأذى لعائلته، فقد قتل شقيقه الصغير تحت التعذيب لأنه يجهل فعلا مكان اختفاء شقيقه. عذبت وأهينت أمه لأنها لا تملك صورة له يريدها المحققون، وما من واحد يمت إليه إلا وخضع للتحقيق والتعذيب.. محمل بعبء كل هؤلاء وأولهم والدته وهو يلقي آخر نظرة إلى باب البيت المغلق على ذكريات طفولته:يكاد يسمع خفقات نعال أمه على السلالم وهي تنزل من السطح حاملة رغيف الخبز الحار من التنور ثم تعبر باحة البيت المشمسة بقامتها النحيلة المشدودة ويسمع صوتها وهي تلهث من جهد النزول وتفوح منها رائحة العرق والخبز، ويوشك أن يحس قبضتها على معصمه وهي تجره خلفها إلى سوق الخضار ثم تشد أصابعها لتبقيه معها هو الملول الذي يريد أن يهرب من ذاك البطء الممل الذي تنتقي به الوالدة خضارها. لن يفلت أبدا من يدها وهي تجره خلفها من السوق عبر هذا الزقاق ودكان اللبان والبقرات الواقفات عند منعطف الشارع.. بأي معنى يمت كل هذا إليه هو المختفي هنا يراقب رجال السلطة الذين انتشروا في زوايا الشارع على أمل أن يضعف ويأتي لألقاء نظرة الوداع على جثة أمه. كأن هذا الباب الذي خرجت منه قبل قليل جثة الوالدة اغلق على آخر صورة من الحياة السوية التي كانت تمت إليه، ولم يبق منه غير هذا الكائن السري الذي يقضي كل وقته في المخابئ السرية المسدلة الستائر الخافتة الإضاءة بين الرشاشات والمسدسات المركونة بجانب وسائد النوم.

غادر الوكر إلى موقع العملية وقد صبغ شعره رماديا وارتدى نظارة طبية وجلس في الباص وسط زحمة الركاب وقد صك ساقيه على الحقيبة المتفجرة.

فوجئ، كما في كل مرة، بسيل الناس الذاهبين إلى أعمالهم بهمة غافلة أو يتفحصون البضائع في الأسواق ببال خال غير عابئين بما يجري في جبهات الحرب الواقعة على حدود مدنهم أو أقبية التعذيب تحت أقدامهم، ولا بوجوده الخطر بينهم والقنبلة اليدوية نائمة في راحة يده، ولا بالعبوة التي تجهز للانفجار القريب. من الأوكار المحاطة بالريبة إلى مواقع العمليات حيث يأخذ الزمن إيقاع ساعة التفجير..هذا هو العالم المتبقي للغفاري. حزينا ومخذولا أراد أن يوقظ الناس من غفلتهم بالمتفجرات نازعا عقرب الثواني من الساعة ووضع لاصقا على الساعة الثامنة والنصف، الموعد الذي يصل فيه هذا المحقق الذي قتل اثنين من رفاقه ليشرب قهوته قبل أن يبدأ العمل، غرز دبوسا في زجاج الساعة بذلك الحذر الذي يجعل العرق ينضح من جبينه بينما يخيم صمت لاهث على بقية المجموعة... انفجار في مدخل الإذاعة وفي بناية وكالة الأنباء وفي مقر سري للمخابرات في أحد فنادق الدرجة الأولى، مركز إرشاد سياحي، دار استراحة لضباط الشرطة، بنك للقروض، حاجز للتفتيش عند مدخل المدينة.. موجة الانفجارات تتابعت، رغم أن التلفزيون يعرض كل يوم اعترافات مسلمين بلحى طويلة قالوا إنهم تدربوا في إيران وأفغانستان و شيوعيين غادروا السجن توا ويهيئون لغزو سوفيتي و ضباط كبار يهيئون لانقلاب عسكري يعيد الملك من منفاه...

لكن الناس واصلوا غفلتهم قائلين وهم يسمعون أصوات الانفجارات:

- بعيدة!

وهم يزدردون ريقهم.

* * *

في هذه الأيام بالتحديد عاد يعقوب بعد شهرين من العلاج وعام ونصف عام من الدراسة والاطلاع في بلدان عديدة. مستقبلوه ومنهم زوجته وأولاده فوجئوا بالتغير الكبير وبالمعجزة التي حققتها الجراحة الألمانية. فقد غطيت التجاعيد القديمة والجروح الغائرة في وجهه بقناع من لحم أخذ من فخذيه فأعطى وجهه بياضا شاحبا وهدوءاً غامضا.

روحه لم تشف من وطأة الانفجار فقد شقها أخدودان من فراغ بارد تتحرك في إحداهما لحظات الانفجار الخاطفة حين دارت الغرفة واندق ظهره على جدار واجه النافذة التي تطاير زجاجها حوله. شكوكه حول الانفجار تأكل روحه فيعض شفته مبيتا ثارا مؤجلا لمن كانوا وراء الانفجار. الأخدود الثاني غامض ومربك يتخلل فترة التخدير الطويلة التي عاشها في المستشفى حين كان يفتح عينيه بالكاد فيرى رجالا بملابس الأطباء وقد أحاطوا سريره في دائرة مغلقة يستنطقونه فيجيب دون أن يذكر السؤال أو الجواب. وأسوأ ما في الأمر هو النهاية حين صحا من البنج وطلب المرآة: لن ينس أبدا السخط الذي سيطر عليه حين فوجئ بالقناع اللحمي الأبيض الشاحب الذي يمت إليه والكمادات على العين التي اقتلعت والشق الطولي الذي يشطر جبهته وحاجبه ثم اليد البلاستيكية الملساء التي حلت محل يده المبتورة التي أمسكت بالحقيبة قبل انفجارها.. كثيرا من الضغط الداخلي وكثيرا من التمارين المتعبة حتى تقبل التغير باعتباره قدرا مرا. وخلال فترة

الدراسة والاطلاع تعلم فن الاختفاء وراء نظارة طبية داكنة تغطي الشق الطولي الذي شطر حاجبه الأيسر ووجنته و العين الزجاجية التي حلت محل عينه المقتلعة. في مكتبه الجديد الأنيق اختار طاولة عريضة في زاوية الغرفة القصية حتى لا يضطر لمصافحة الداخلين بيده البلاستيكية وحين يتحدث أو يصغي يميل مقدما نصفه الأيسر نحو المقابل لكي يراه بعينه السليمة ويسمعه بأذنه السليمة ويخفي نصفه المصاب بإضاءة منضدية واطئة.

بعد استراحة يومين جاء يعقوب لوهاب وحال دخوله إلى مكتب الرئيس نهض وهاب ووضع الوجه المربع بين راحتيه وراح يقلبه باحثا عن ملامح صديق صباه. لم يصدق لأول وهله أن تلك الجثة المتفحمة التي غادرته على سدية عادت إليه ثانية، ولم يصدق أن هذا القناع الذي يبتسم ويتحرك بتثاقل هو يعقوب الذي عرفه. فلا يدل عليه للوهلة الأولى إلا شعر احمر قصير كالنار ورأس مربع كصندوق مغلق. جلسا في الشرفة الملحقة بمكتبه ووضع أمامه شهادات التقدير التي حصل عليها وحصيلة دراسته وإطلاعه على التجارب الأخرى:

- الأمن ليس مجرد مديرية للعقاب، إنما قضية استراتيجية تتعلق بها كل أمور الدولة، لذلك ينبغي أن تكون للأمن عين وذراع في كل جوانب عمل الدولة.. من الاقتصاد إلى الجامعة إلى السلك الدبلوماسي إلى محلات الحلاقة وبيوت الدعارة...

اختفت الابتسامة الساخرة المداعبة من فم وهاب وهو يسمع صديق صباه يتحدث بمفردات كبيرة ليست بدون معنى، وللحظات تنبه إلى إنه

لم يعد يصغي إليه مطرقا بامتنان دائم، إنما يتحدث دون أن ينتظر سؤالا وينظر في عينيه مباشرة وهو يقول:

- لذلك ينبغي أن لا نعتمد على الكادر القديم المكون من القتلة والعاطلين الجهلة.

وقد شرح للقائد خطته التي تقوم على تحويل كل مواطن إلى مخبر أو متعاون على ثلاث درجات: محترف،عامل بالمكافأة، متطوع.

داخ وهاب من كثرة الشروح والخطوط البيانية فقال حاسما الموضوع:

-لا أوافق على الكوة التي تقترحها، فلو تراجعنا قليلا سنعطي الأعداء علامة ضعف.

أراد يعقوب أن يعترض، لكنه تراجع في اللحظة الأخيرة مدركا أن الطاعة مفتاح نجاحه وصعوده.

-أنت محق يا سيدي، لا ضرورة لهذه الكوة، ينبغي أن لا نظهر ضعفا حتى وإن كنا ضعفاء حقا.. الناس سيعتادون قسوتنا كلما وزعنا الموت باعتدال على الجميع.

-اسمع! أتعتقد أن القسوة تفقد سطوتها إذا هي استمرت دون توقف؟

- ليس رأيا يا سيدي، مجرد خوف!

-لكنه رأي سديد.. فأسوأ ما في الحزم هو أن يتحول إلى عادة.

-هذا ما أردت قوله بالضبط، لا بد من أن نقدم الخوف على جرعات بينها فترات استراحة.. هكذا علمتني المهنة.

-الأفضل أن نصعد الوتيرة ونجدد الأساليب.

- رأي سديد جدا، فقد تفتح الاستراحة ثغرة لا يمكن التحكم بها.. التصعيد إذن والتجديد!

- ليكن العقاب شائعا ومعلنا ليعرف المواطن ما ينتظره إن هو وقف ضدنا.

-بالتأكيد!وإلا فما فائدة العقاب إن لم يكن تحذيرا للآخرين!

قبل الذهاب إلى حمام البخار حسم وهاب النقاش الطويل:

- أثق بك كما أثق بنفسي، لك الحرية في أن تفعل ما تشاء!

وفي الحال بدأ يعقوب، الذي حمل لقب (الدكتور)، يعقد اجتماعات أسبوعية لمديري الأقسام. لم يكن الغفاري شاغله الوحيد، إنما كان ذريعته ووسيلته لإعادة تكوين الدولة بكاملها، ولذلك بدأ خطته بتوزيع استمارات تفرض على كل مواطن تجاوز الثانية عشرة من عمره أن يتحدث للدولة عن أدق شؤون حياته، ابتداء من ميلاده ودراسته وهواياته مرورا بميوله السياسية السابقة والحالية، ثم وابرز أصدقائه وأصدقاء أصدقائه واهتماماتهم وميولهم السياسية... في البداية بدا العمل روتينيا مملا للكادر القديم، لكن يعقوب شرح الأمر بوضوح:

- لا يهمني صدق أو كذب ما يكتبه المواطن، ولا مدى جدية المعلومات، المهم هو أن يتعود المواطن تدريجيا على البوح بأسراره للدولة ويصبح مستعدا للتعاون!

وبدأ بتوظيف آلاف المخبرين الجدد: طلبة جامعة لم يجدوا فرصة للعمل أو ضبطوا في علاقات جنسية سرية، معارضون تساقطوا خلال التعذيب وأعيدوا إلى أحزابهم السابقة، موظفون تورطوا في حالات

اختلاس، شبان باحثون عن السلطة، ملالي وقارئات بخت، دلالات، حلاقون، سائقو تاكسيات، أصحاب بارات.. لم يرهم يعقوب ولم يعرفهم إلا من خلال السجلات.

يهتز يعقوب قليلا حين تدوي الانفجارات دون أن ينظر من النافذة ويواصل العمل منكبا على أوراقه وخرائطه، كأنه بذلك يهرب من وطأة الإنفجار الذي شق حياته. على إيقاع المتفجرات وضع جدول عمله اليومي محددا الأولويات بدقة رجل أعمال متمرس ومن خلال جهاز الدكتافون الذي أدخل إلى الأقسام حديثا يتابع عمل الأقسام مخاطبا كل موظف حسب اختصاصه وانهمك مع سكرتيره الأنيق في ترتيب الملفات وجدولتها. لا يقضي كثيرا من الوقت مع زبائنه المكبلين أو المعلقين في الخطاطيف، إنما يتابع العمل من خلال خطوط بيانية ونسب ورسوم إيضاحية برع في تصويرها المستشار الكوري الذي جلبه معه....في فترات استراحته القليلة يأخذ فنجان قهوة ويكتشف، وهو يشبك يديه خلف رأسه، بأن العمل أصبح مملا قياسا بأيام البراءة حين كان يأخذ طابع المغامرة والاقتحام، وكان كل شيء يتصل به مباشرة حيث يعرف طريدته بالاسم وبالوجه ويرى بعينيه ما يحدث له ويسمع أول اعترافاته. أما الآن فقد حلت بينه وبين العمل حواجز ميتة من الورقيات وكتابنا وكتابكم وسلسلة من الموظفين الذين يقومون بالعمل بحماس ولكن دون همة. ولم تعد العمليات متعة بذاتها إنما خطوة لهدف آخر هو أن يكون له موقع وركيزة في كل شعبة من جهاز الدولة وكل شأن من شؤون الحياة بما في ذلك التنظيمات المعادية. وكانت التفجيرات له مبررا وحافزا. وحين

استكمل جهازه قرر البدء بالهجوم. وشرح خطته لمساعديه الجدد:

-سيحقق المتآمرون هدفهم إذا بقينا في حالة الدفاع، وسيكون المواطن محايدا أو شامتا مادامت المتفجرات لا تمس أمنه الخاص، علينا أن ننتقل إلى الهجوم..

وحالما رأى علامات التحفز على قبضات اتباعه صحح بابتسامة ساخرة:

- سنهاجم المواطن النائم!

* * *

مـهندس بـارد الدم أراد أن يوصل الشنـاعـة إلى منتـهـاها فـاختـار عـمارة سكنية مزدحمـة في واحدة من شرفـاتهـا سيدة بدينة تلفتت يسـرة ويمنة قـبل أن تنشـر الملاءات البـيض على الحبـال، وفـي نافـذة مـجـاورة مراهقـة تقلد حركات شادية أمام عشاق مفـتـرضين في البناية المقابلة، وفـتح العجـوز القادم من السوق بخطوات بطيئة الباب توا و رمي متعبا سلة الخضـار... كل شيء كـان يجرى بتلقائيـة دون أن يلتفت أحد لهذا الرجل الذي مسح صلعته وهو يعبر الشـارع حاملا عدة مصلح كهرباء، ثم فـتح باب الكراج ليدخل سيارة وضع تحت مقاعدها مـائتا كيلوغـرام من ال(تي أن تي) وقنينة غاز وصـاعق...في المسـاحـة العارية المضـاءة في سـرداب العـمـارة حسب الأمـر بدقـة مميتـة: في المرآب المغلق وبين زحمـة السـيـارات فـي المسـاء تكفي هذه العـبوة مع عـصف الانفـجار لتقـويض البناية من أسـاسـهـا.. توصـل لهـذا الاسـتـنتـاج وهو يضـرب دعـامـة كونكريتـية براحة يده... بأصابع دقيـقة كملاقط التشريح. وضع عـقارب التـفجـير على السـاعـة ١٢، وهي السـاعـة التي يمتلئ فـيـهـا رأس العجـوز إياه ببـخـار الكحـول فـتـدمع عـيناه وهـو يراقب أولاده الحـائمين حـول فلم السهـرة، وتمتد يد العريس لتـوقظ الشهـوات الحبيسـة في جسد عـروسه، و يكون فـيـهـا الطفل قـد حلم بأن الملاءات حملتـه إلى غـابة تحلق أسـمـاكـهـا على أزهار بحـجـم الصـواني.. هذه الغـفـلات مـرت سـريعـا فـي خـيـال

المهندس الذي غادر مرآب العمارة إلى سيارة تنتظره في زاوية الشارع..
لم يسلم على الرجل الذي ينتظره، إنما أخرج الهاتف النقال:
- الأمانة وصلت!

* * *

كان يهوى ويهوى بلا قرار ويصرخ دونما صوت حينما انشقت الأرض تحته فاستيقظ وليد من النوم. لم يفتح عينيه خائفا من برق سيخطفه أو فراغ عار سيطويه.. وحالما تلمس الفراش بأصابعه أحس بوطأة صداع ثقيل وأصوات مدوية... بقع بنية ذات حواش نارية خضراء كبريتية سبحت بين جفونه حالما فتحها. شعر بحرقة في معدته وحموضة في حنجرته. قبل أن ينهض حاول أن يتذكر ما حدث أمس وأين هو الآن.... أول ما عرفه هو أنه نائم على بطنه، أين؟ من فوق قماش المخدة الأصفر اللماع رأى خيطا من ضوء يأتي من فتحة بين الستائر الثقيلة ورأى بنطاله وسترته مرميين على كنبة وأدرك أنه مازال يرتدي قميصه وربطة عنقه وجواربه بينما نصفه الأسفل عار تماما ومس فخذه سائل لزج على الشرشف الندي. لم يتذكر من حفلة البارحة إلا شيئا واحدا: دخل حمام البيت فوجد ظهر امرأة عار ينسدل عليه شعر أسود كثيف. هل قبل ظهر المرأة؟ هل حاول فتح سحابها في الحمام، وهل صرخت وصفعته؟ غير موقن من ذلك.. مع ذلك ابتسم بخجل (ماذا فعلت من كوارث يا أحمق؟) تذكر المرأة التي كانت تقود السيارة وهو شبه نائم إلى جانبها يرى مصابيح الشارع تمر بين عينيه... بعدها؟ لا يتذكر من هي تلك المرأة وكيف التقاها وكيف وصل إلى هنا وأين هو الآن. تسلل من تحت الغطاء والتقط بنطلونه ثم والحذاء بحذر لص كأن أي صوت

سيفجر الفضيحة المختفية وراء هذه الستائر، وحين فتح الباب وجد الخادمة الفلبينية واقفة تماما وراء الباب بانتظاره. بعربية ركيكية كأنما حفظتها عن ظهر قلب:

-السيدة خرجت باكرا للدائرة، وهي تعتذر... قهوتك جاهزة.

تحدق في هيأته بشيء من السخرية، ولذلك تجنبها وغادر البيت.

أراد أن يسترد شيئا من وضوح النهار البسيط المشمس لكنه لم يستطع التأكد من جدية الأشياء حوله.. كل شيء كان رجراجا وغائما وما كان قادرا على السيطرة على حركاته حتى إنه بالكاد استطاع أن يمسك فنجان القهوة في المقهى الذي جاءه طلبا للصحو. بدا كأنه يتعلم حركاته الأولى وهو يخلط السكر بالملعقة ويرفع فنجان الشاي إلى فمه. رفع رأسه إلى الشمس القوية الواضحة والبيوت القديمة التي مالت بمشربياتها على النهر السائر بهدوء وثبات وقال لنفسه:

- انا وليد القاضي، هنا في مقهى جبهة النهر والساعة الآن هي الثانية عشرة وخمس وعشرون دقيقة ظهرا!

نظر حوله للموظفين المتقاعدين الذين يلعبون النرد وقاماتهم منحنية تكاد تلتصق بالطاولة ولهذا الجندي العائد من الجبهة في إجازة، يلوب غير قادر على الجلوس بإنتظار شيء ما، ربما هو الموت الذي سيوافيه غفلة. تذكر فجأة قاسم فنجان الذي لاحقه طوال سهرة أمس وقد خيل إليه قبل قليل إنه رآه في شاحنة عسكرية متربة:

- أوهام، أوهام!

قال وهو يسند ظهره بقوة إلى مقعده ليسترد بعضا من وقائع أمس، وقبل ذلك يسترد نفسه من تلك الوقائع. كل شيء كان واضحا حين

أخرج القلم والدفتر مزمعا أن يبرر ابتذال روحه بالصراحة الجارحة: القاعة العباسية بنافورتها والماء الذي يعيد تكوين المشاهد في صورة أقرب إلى الوهم، مائدة الطعام الطويلة والنادل الطويل الأصلع الدقيق الحركات حد الموت والذي لم يقل سوى همهمات غير مفهومة متسلحا بابتسامة تخفي شيئا من الكراهية، النساء الثملات الجالسات على الأرض يستمعن إليه وتلك المراهقة التي قالت لزميلتها حين انتهى من قراءة قصيدته:

- أعجبتني فيه ثقته بنفسه!

والوزير الذي لم يستطع الجلوس على مقعده لحظات. غص وليد بريقه وهو يتذكر كيف أخذه بعيدا عن بقية المدعوين.. تعثرت الكلمات في فمه وهو يقرب وجهه إلى وليد بنظرة الصديق المحذر:

_لا يصح أن تكتب أشياء كهذه الآن، هناك دم يجري على الجبهة وأنت تكتب عن ثدي أمك، والرمانة المرة!

بدا لوليد خائفا أكثر مما هو مخيف، ومع ذلك نقل إليه الخوف فوعده:

- سأكتب غدا.

سينفذ وعده ويكتب الآن متجاهلا الوزير الذي لم يتوقف قبيل الانفجار بدقائق عن إزاحة الستائر مختلسا نظرات قلقة إلى الخارج ويبدأ بوصف جو الوهم الخادع في الضوء الحليبي المزرق والسجادة المكسوة بطواويس ناعمة والرجال الذين التموا حول الوزير عند البار والنساء يضحكن بخفوت، حين دوى الإنفجار.... مادت القاعة واهتزت الثريات والضوء وغامت الوجوه.... كلا، سيتجاهل الانفجار الذي هز القاعة والضوء المنكسر وزجاج الثريات والمشاهد وسياق الحركات، ويبدأ كما رسم

بدخول قاسم فنجان المباغت الدامي.. يترنح من دوار رصاصة أصابته ويسقط وسط حلقة الراقصين وقد غرز أصابعه الدامية في السجاد. يجمد المشاهد بعد سقوطه ويلمس الشخصيات بجمل موحية وخاطفه ويترك القتيل موضوعا للتخمينات . القصة عنه ومهداة له اعتذارا.

بدأ جملة الاستهلال ب(صرخة) ثم تباطأ مستذكرا صديقه الصحفي الذي سجن لمجرد كتابة تساؤلات عن معرض باذخ أقامته الوزارة لرسامة هاوية، ولآخر الذي عذب لأنه كتب عن توماس مان ومواقفه من النازية والحرب. تذكر كل تلك المقالات التي تخون الكتاب الصامتين أو الذين يكتبون عن معاناتهم الفردية في حين ينزف الجنود دما على الجبهات... سيغير الجو إذن، ولا حاجة للحديث عن قاعة عباسية. تنفس بصعوبة ونقل مقعده بعيدا عن هذه الشمس الدبقة فصعدت فوضى المقهى والدوار الذي يمنعه من التركيز على أية فكرة واضحة، لذلك غادر المقهى (إلى أين)؟ مازال الوقت باكرا على اجتماع الشلة. ذهب إلى شقته وهو خائف من شبح يلاحقه (أين وليد القاضي)؟ حين جلس وراء مكتبه و شرع بالكتابة اختلطت عليه ردود الفعل وافتقد السيولة التي ينشدها، لذلك غادر طاولته ودخن السيجارة الأخيرة وأخذ رشفة قهوة باردة ودار داخل الشقة المغلقة الستائر يبربر مثل وحش حبيس:

- أين أنا؟

فقد تذكر الجميع ونسي نفسه في أجواء القصة:

- أهرب أيها الأرنب!

ضاق بالهواء حوله عندما أتعبته وسائل التحايل على فكرته. توقف أمام الورقة فوجد أن كل ما رآه ما يزال في داخل رطب ومعتم..

تلك الصور والانفعالات لا تؤلف الآن فكرة أو موضوعا، إنما تجليات بنت لحظتها خبت مع وضوح النهار. حين وقف أمام نفسه إكتشف أنه لم يكن يناطح عالما خارجه، يمكن وصفه بسهولة، إنما عالم في داخله.. وهاهو يواجه نفسه المهتزة الضعيفة.. وهو أمر سيمر كما في كل يوم بخفة ريشة.. ثم وجد مفتاح الكتابة (رسالة متأخرة لقاسم فنجان) اعتذارا عن صمت غير مبرر كان قد اختاره.. كتب (قادم إليك..) مرات عديدة وفي كل مرة يمزق الورقة ويبدأ صفحته الجديدة بنفس الكلمة (قادم إليك)... وكان التعثر في اللغة تعثرا امام موقف جديد يخترق كل قناعاته السابقة. عليه وهو يكتب أن يتنازل عن جزء كبير من ذاكرته: الأصدقاء الذين اعتقلوا وعذبوا بسبب ما كتبوه أو فكروا فيه والأحاديث المتوترة المخنوقة لشلة المقهى (سيفهمون فيما بعد، سأشرح لهم ما عنيته).. علل نفسه بأن ما هو مقدم عليه هو الخطوة السابقة لآخرين لا يقلون عنه يأسا، وربما ينتظرون منه أن يتقدم. استعار من الوزير عبارته (هناك دم يجري الان على الجبهات).. الدم القاني الذي يسيل خيطا رفيعا.. يعبر الخنادق وحقول الألغام وترددات الروح وكبرياء الفرد والرقباء على ضميره واللائمين الواقفين بين الكلمة والخندق، والأفكار المجردة التي آمن بها وقصيدته الواقفة المرتعشة على حافة المشهد والكلمات الأنيقة الي اراد اختيارها.. كل ذلك اخترق بخيط سريع من الدم. وحالما قطع آخر خيط من تردداته وجد بإنتظاره عالما جاهزا من كلمات حادة وحماسات مفتونة وصور وتشبيهات تأتيه قبل أن يستدعيها.

* * *

حين دخل وليد البيت وجد سليم يراقب رحلة في أعماق الماء: لون أصفر وكتل إسفنجية وصخور وشظايا واسماك ناعمة والغواص يغور باحثا عن شيء ما:

- جئت أتحدث إليك لا لأراقب التلفزيون!

- تحدث!

كان وليد قد شرب كثيرا وتردد كثيرا بين الذهاب للحفلة أو زيارة صديقه النحس ليخوض معه حوارا قاسيا. وحين دخل وجده كما تركه قبل شهرين في زاويته ملتفا بعباءته وقد طالت لحيته واستتب حزنه حتى أصبح جزءاً منه واحمرت جفونه كمن فرغ توا من نوبة بكاء وعلى شفتيه بلل خفيف. هم سليم بالنهوض لكن وليد أعاده إلى مكانه ووضع أمامه زجاجة عرق:

- قلت ربما نفدت ذخيرتك؟

- ونادى الزوجة بنفس الود القديم:

- هات كأسا يا لميعه!

صب لنفسه كأسا وسحب نفسا من سيجارته ومد ساقيه.

- إيه، كيف الحال؟

- كما ترى.

- مازلت مضربا عن الكتابة؟

- وجدت ما هو أمتع.

- أمتع من الكتابة.

- نعم.. أقرأ سيرة جعفر الصادق...

قالها وهو يتجرع كأسه جرة واحدة دافعا الأمور لنهاياتها الخطرة وقد

تفصد العرق من جبينه. وكان وليد يراقبه بنظرات جانبية متقطعة وهو يدفع الحديث يريد أن يكشف تحت هذا الصمت المصطنع عن شيء يمور تحته، يريد أن يصل مع سليم لصفة مختزلة لما فعله: خيانة، كذب، زيف.. حكم قاطع يسهل عليه ما يخشى تسميته. وقد جهز دفاعه مقدما.

ومقابل ذلك يعرف سليم لأي سبب جاء وليد بعد انقطاع أشهر: ليعرف رأيه بما كتبه في الأيام الأخيرة من الاعترافات والمراجعات التي كتبها في الصحيفة في الأيام الأخيرة. جاءه وهو يعرف مقدما رأيه بكل ذلك، ومع ذلك جاء ليخوض جولة من الدفاع والهجوم، وينقل الهجوم والدفاع من داخله على الخارج، وبكل ما يملك من لؤم قرر سليم أن يقطع عليه هذا الطريق، لآن شيئا لن يثنيه بعد أن وضع قدمه على هذا الطريق.

- لديك شئ تقوله لي.. لم هذا التعذيب؟

- مادمت مصرا إلى هذا الحد سأقول لك!

سحب وليد ساقيه واعتدل في جلسته وسحب نفسا في حالة استعداد لسماع شيء يعرف انه جارح .

- لقد اعتقلوا الدكتورة!

هبط رأس وليد على صدره في سقطة تجمع اليأس والمباغتة. كان يعتقد أن عزلة سليم لن تتيح له متابعة أخبار كهذه.

-....

- أنت تعرف ؟

- جاءتني والدتها إلى البيت.

- واعتذرت؟

- واعتذرت؟

- معقول!

- أنت تعرف جيدا من هي؟

كيف لايعرفها؟ منذ شبابه اعتاد أن يذهب إلى بيتها ليقرأ لها قصائده. يتذكر تماما الطريقة التي تأخذ منه الأوراق بعد القراءة وترتدي نظارتها، تماما كموظفة بنك حريصة على أن تدقق الأشياء قبل أن توقع، ثم تبدأ القراءة الثانية، ووليد ينتظر رأيها كتلميذ في امتحان، ثم تخلع النظارة وتتكئ إلى الخلف (ماذا أقول؟). لن تبدأ بالمديح أبدا، وكان وليد يدافع عما كتبه بعصبية، متهما إياها بعدم تفهم مزاجية وغرابة الشاعر، لكنه يقرأ القصيدة لاحقا منحيا كبرياءه ليحذف ما لم يعجبها، وربما يمزق القصيدة كلها. وقد أهداها أهم رواياته لأنها كتبت بفكرة منها، وفكّر ذات يوم أن يحبها بعد طلاقها من زوجها، لكنه تراجع خوفا من قوة شخصيتها. ما يدهشه فيها اهتمامها بثقافات لم تخطر بباله: الرياضيات، الفلسفة، الموسيقى، وحتى الإقتصاد.

- وتعرف تماما مايفعلونه بالمساجين هذه الأيام؟

- أعرف.

قالها وهو يتجرع كأسه بعصبية ثم يغمض عينيه ويتصالب قليلا.

- تتصور لو أن هؤلاء...

قالها كأنه يتحدث عن قطاع بشري آخر.

-.. لو أمسكوا السلطة سيكونون أكثر رحمة من جلاديهم الحاليين؟ السلطة غالية على من يمتلكها، ومن أجل الحفاظ عليها سيستخدم أقسى الوسائل.

- إسمع يا وليد! أنت تعرف أن الأحزاب كلها لا تهمني، وكنت

دائما تتهمني بالهروب من السياسة، لكني أحدثك عن كائن محدد، يهمني مصيره أكثر من الآخرين. لعلمك أن ابنها الصغير هنا في بيتنا منذ أن اعتقلوا أمه، ويعذبني ضميري لأني لا أستطيع أن أفعل شيئا لأجله ولأجلها. لن أناقشك فيما تكتبه وفيما أنت ذاهب إليه، إنه خيارك، لكني أطالبك بشيء واحد قد ترضي به ضميرك إلى الأبد: أن تنقذ من الموت كنزا من الفكر يكلله شعر شائب.. الدكتورة!

- أتحثني يا سليم؟! أنت تعرف أن حذاءها يساوي ألف وزير...

بفعل العرق والإلحاح ودين قديم لامرأة شائبة قرر وليد أن يقطع التردد ويذهب إليه، إنه الوحيد الذي يستطيع أن يطلق سراحها بجرة قلم.. طوال الطريق كان يفكر كيف سيفتح الموضوع. حاول أن يستعيد بعضا من حمية الليلة السابقة: أنتم تسجنون كنزا فكريا يكلله شعر أشيب، لا يهمني الآخرين، إنما هي بالذات، سيبدأ بسؤال مندهش: هل صحيح... الأفضل أن لا يسوق الكلام على لسانه هو (هناك أناسا يتحدثون) والأفضل أن يستخدم كلمة (يلغطون). حين فتحوا البوابة الحديدية قرر أن لا يطالبه بإطلاق سراحها، إنما ينوه له (الأفضل إيقاف اللغط). ولكن كل شيء انمحى حين دخل الغرفة وبوغت باتساعها وبياضها الباهر.

- تأخرت كثيرا!

قال يعقوب معاتبا وهو يغادر مكتبه ويأتيه مائلا بعيدا عن الضوء مخفيا نصفه المصاب.

- تعال لتتأكد بنفسك أن المكان ليس مخيفا كما وصفوه لك... قد

تبدو لك الغرفة عارية وكبيرة أكثر مما يجب. انا أحبها هكذا، أحب الفراغ ورحابة المساحة. أنظر لهذه اللوحة: ماء ماء ماء... اللوحة الوحيدة التي نجت من ذاك المعرض العجيب، وبعده، بمممم.. إنفجرت القاعة والمعرض والماء! تعال أريك كيف ستكتمل اللوحة مع ما يليها... أنا الذي طلبت هذا القوس الزجاجي الذي يفصل بين غرفتي واستراحتي. اسماك من كل بحار العالم الدافئة في قوس زجاجي. شيء لم يفعله أحد من قبل؟

لم يندهش وليد من رحابة المكان ولم تستوقفه الأسماك الاستوائية التي تتحرك في ذاك الماء الصافي، كل خياله وذهنه يبحث ما وراء الجدران البيضاء، ما وراء الماء والأسماك، عن تلك الأقبية والغرف الدامية التي سمع عنها من شهادات المعذبين، ويتسمع خلف صمت الغرفة وعزف البيانو الخافت صرخات المعذبين في الأقبية وصليات الرصاص.. عن أناس عرفهم وأحبهم في مكان ما خلف هذا الجدار الأبيض.

- تعال لأريك أني لست الرجل الذي صورته في كتاباتك، رجل أمن مهمته انتزاع اعترافات المتآمرين...

انسحب الجدار الأبيض عن جدار آخر عبارة عن رفوف كتب رتبت بعناية دقيقة.

- هناك جدار آخر يليه وجدار آخر.. كل ما كتبه أدباء البلد وسياسيوه هنا على هذه الرفوف... لدي مفاجأة لك... على هذا الرف كل كتاباتك.. قصائدك ورواياتك وكتاباتك اليومية. أنظر! هذه كتبك الممنوعة! أظن أنك لا تملك نسخة من ديوانك الأول؟ نسخة بخط اليد غير مطبوعة! هل لك أن تكتب عليها بضع كلمات إهداء؟ الصديق بدل الأستاذ.... دعك من الكتب وتعال الى الواقع!

داخ وليد من سيل الكلمات والمفاجآة، وتعثرت خطواته في تلك الهاوية بين ما يراه ويسمعه وبين ما يسكن خياله.. خلف هذا البياض وزرقة الماء هناك أناس يعرفهم، مرميون في الزنازين يكاد يسمع صرخاتهم من مكان ما...

_أعرف بماذا تفكر الآن... خطأ خطأ خطأ، لا شيء من كل ذلك، سترى بعينيك! تعال! لا تخف! مجرد درجتين من ماء وأسماك... أترى؟ السحر بعينه.

للحظات بهر وليد بما رآه واستقامت قامته قليلا وهو يرى الشرفة الرحبة وحوض السباحة المضاء بالكشافات المسلطة علية وسكون الماء وحوله حديقة من شجيرات باهرة الخضرة، تحمل ثمارا في غير مواسمها، برتقال ورمان وكرز وثلاث موائد صفت حول البحيرة وزنجي بابتسامة ترحيب عريضة وبدلة بيضاء يحمل صينية مشروب بانتظار جلوس الرجلين.

- يشبه السحر، أليس كذلك؟

مع ذلك كان وليد يسير بخطوات متصلبة حذرة بانتظار مفاجأة ما وراء هذا الجمال الخادع المدوخ.

- مكان نموذجي لإلهام شاعر، ماء وموسيقى وسكون، وتحتك على مد البصر حدائق، حدائق حدائق... أين السراديب والأقبية التي حدثوك عنها؟

(لهذا جئت بي إلى هنا، لتنفي مخيلتي؟) مع ذلك لم ينبس بكلمة مترقبا المفاجأة.

بين المدينة والشرفة بقعة خافتة الإضاءة فيها بوابة حديدية وأشباح غرف: هنـــا... قال وليد لنفسه.

- أعرف لم جئت.. لا تفتح الموضوع أبدا (قالها يعقوب هامسا

بخوف وهو يتلفت حوله) فقد كبست في وكر حزبي مع مذكرة تشجب العنف والحرب وقعها عدد من المثقفين، بينهم صديقك الذي لا يهتم ابعد من حدود غرفته وأوراقه!

- أنظر كيف ينحدر الماء من الصخور.. شلال حقيقي أليس كذلك؟ تعال اجلس هنا واغمض عينيك واسمع خرير الماء!

حين جلس وليد وأغمض عينيه وهو يتخيلها وحيدة في زنزانة انفرادية في مكان قريب منه سمع صوت يعقوب هامسا كالفحيح:

- إنس الموضوع تماما لأني لا أستطيع أن أفعل شيئا. هناك قوة خفية تقود الأمور خارج إرادتنا وأنا نفسي خائف.. هل تصدق؟

ثم ارتفع صوته حين فتح عينيه:

- كل هذا من تصميم المساجين والمعتقلين. هم الذين تطوعوا وتسابقوا ليوفروا كل هذا الجمال، وكانت لهم حصة فيه. تعال انظر!... هذه زاويتي المفضلة:

المدينة بكاملها تحتهما هادئة ساكنه تحلم مثلك... مع ذلك سمع وليد صرخة، صرخة طويـــــلة....

* * *

في الزنزانة الضيقة الواطئة السقف جلسا قبالة بعضهما يتبادلان النظرات دون الكلمات وقد أنار الضوء الآتي من الكوة وجهين يشبهان اقنعة الموت.. يسمعان الصفير القصير الجارح للعصا وصرخات المعذبين التي تشق الآذان ويحسبان معا الوقت المتبقي لنوبتهما القادمة.

قريبين كانا الى درجة أن احدهما كان يسمع ضربات قلب الآخر. كل همهمة أو حركة يقوم بها الآخر تبدو علامة فاضحة. وكان هذا القرب

يباعدهما من الحرج حتى بدت الكلمات بينهما مستحيلة. كانا يسمعان الصرخات في القاعة المجاورة ويعرفان اللعبة التي تجري هناك.. فقد إعتاد الجلاد أن يسلي نفسه في كل ليلة بإخراج سجينين محكومين بالإشغال الشاقة. يطلب من الشيوعي أن يضرب بالعصى واحدا من جماعة السيد الحائري، وهو يهدر:

- رجعي، متخلف، طوباوي، إفيون الشعوب، لينقذك ربك!

ثم يربط الشيوعي على الخشبة ويعطي للملتحي المدمى، بعد إستراحة قصيرة، نفس العصا:

- الى الجحيم ياكافر يا زنديق!

كلاهما كان خائفا من ضعفه الذي سيدفعه لأن يبدأ بضربة مترددة فيحثه الجلادون لأن يضرب أقوى حتى لن يعود هناك خط للرجعة. تجنب السيد مصافحة خليل واكتفى بسلام مهموس وفي داخله شعور ملتبس.. فإيمانه يفرض عليه تجنب هذا الكافر الذي لا يكتفي بمعصية ربه إنما ينكر وجوده أصلا. في حين أن شراكة العذاب تلقي في داخله شعورا غامضا بالتعاطف مع رجل سيواجه الموت ولا يملك نعمة الإيمان برحمة الرب. ومع ذلك تجنب النظر إليه وهو يدور بعينيه متابعا الكتابات التي حفرت على جدران الزنزانة: ١١١١١، ١١١١١، ١١١١١١،... أين أنت يا امي؟ ياقريب الفرج! الشيوعية أقوى من الموت وأعلى من أعواد المشانق، صبر أيوب، لن يدوم الظالم، بريء وحق الله، الباقي ٥ أيام....يشعر وهو يقرأ ما كتبه السابقون على الجدار بخفقات الأرواح المعذبة الغامضة التي مرت:

- رحمتك يارب؟

قالها بصوت عال مركزا عينيه عند الكتلة المظلمة فوق رأسه وكان يطرد ضعفه بالأدعية، فينود وهو يكرر أدعيته بتواتر ليغطي مساحة الصمت المليئة بالصرخات والهواجس. خائفا من الألم والذل اكثر من خوفه من الموت. فقد بدا له الموت قريبا لليلتين متتاليتن حين نهض والده من سرير يشبه الماء، بقميص الوضوء الأبيض وبوجه شاب وقامة ثابته. مد له يده: تعال يابني، فقد طال عذابك! بعد ايام من العذاب في زنزانته الإنفرادية. كان الجلادون يقطعون صلاته ملقين عليه ماء المراحيض من كوة في السقف. مع الألم عذبه الحب. فقد جرحه حنين جارف لزوجته الثالثة التي لا تحب شيئا قدر النوم على صدره مثل طفلة وتسميه (أبونا). لقد تركها في شهرها الرابع، وربما ولدت الآن. مامن خبر عنها. يود الآن ان يحدث هذا الرجل الجالس أمامه عنها ويودعه وصية لها. يدري بحسن طويته وصبره، لكنه لا يؤمن رجلا لا يثق بربه.

- بإمكانك أن تضربني إذا أجبروك، لا تخف فجسمي ممرن على ذلك، أما أنا فسافضل الموت إذا أجبرت على ضربك.

قال له خليل وهو يتطلع إليه طالبا صداقته.

- حتى لو فعلت، فلن أطلب منك ما ليس بوسعك.

دعوات الرجل وصلواته اعطت خليل شيئا من الأمان لاحتمال وجود عالم آخر غير هذا العالم القاسي. ورغم إن منطقه المادي ثابت وقادر على رد السيد إذا طلب الحديث، لكن الله كان موجودا في داخله. لا يملك صورة او تصورا عنه، ولم يشغل به باله، إنما تعود أن يراه من خلال صلاة والدته، وصوت والده وهو يقرأ القرآن بعد الصلاة. وجود السيد اعاد له ذلك العالم الآمن.

وقد بادله السيد وهو يرتل أدعيته بتواتر هذه الصداقة الأمينة التي تجاور الموت:

- لم لا تستغفر ربك، فما زال باب الله مفتوحا وسأطلب لك الشفاعة عنده ؟!

- لم أفعل ما يتطلب المغفرة.

صرخات متواترة قطعت حديثهما ثم ثلاث رصاصات وهدأ الأنين الطويل. فارتفعت دمدمة السيد وتسارعت وهو يعتز بقوة مغمضا عينيه على ضوء ساطع وحين فتح باب الزنزانة انحنى على خليل بما يقرب التوسل:

- استغفره فأنت قريب منه!

- فات الوقت ياسيدنا.

* * *

انفجار البناية كان البداية، وبعده أصبح كل شيء منفجرا أو قابلا للانفجار: سيارة واقفة على الرصيف، عربة خضار في سوق مزدحم، قنينة غاز في مقهى، مصعد في عمارة، دمية أطفال منفوشة الشعر، تلفزيون كان يعرض لحظة انفجاره فلما عن أسماك المحيطات، حقيبة مدرسية في باص مليء بالركاب، صندوق نفايات في نفق لمرور الناس... لم تعد الأشياء بين الانفجار والانفجار، هي ذاتها.. فخلف مظهرها الودود الأليف الساكن يختفي دائما ذلك الجوهر النابض الذي سينفجر في أية لحظة. .المسافة بين الأشياء والناس أصبحت نفس المسافة بينهم وبين الموت الصاعق الخاطف المخبأ فيها. ولذلك تغير سياق الحركات التي تعلمها الناس منذ بداهات الطفولة.. الطريقة التي يدخلون بها المفتاح في الباب،

الخطوة الكتيمة التي يدوسون بها العتبة، شطحة العود على علبة الكبريت.. في كل حركة من هذه تعلقت حياة طارئة قد تنفجر في أية لحظة.. ووسط هذا العالم المتفجر أو الموشك على الإنفجار لا يريد يعقوب أن يصدق أن كل ذلك من فعل شلة مراهقين نذروا حياتهم للآخرة. لذلك كان ينمي الاحتمالات ويتلذذ بها حتى لو لم تطابق الحقيقة، وكلما بعدت عن الواقع زاد إحتمال تطابقها مع حقيقة أخرى متوارية، ولذلك يزيد عدد المتهمين والمشكوك بهم: شقيق العقيد الذي يعمل من منفاه في باريس على إثارة الضباط بتصريحات عن تسميم طعام شقيقه، أشقاء وزير الدفاع المعدوم يعلنون أن دم شقيقهم لم يجف بعد وقد تركوا قبره مفتوحا، شيوعيون في الجامعة نظموا حفلا خطابيا خلال سفرة جامعية في ذكرى استشهاد خالد العطوان....وكلما زاد عدد المشكوك بهم بحث عن متهم آخر متوار وراء المكشوفين، أقلهم إثارة للشكوك، أي أنه أخطرهم بالتأكيد.. سيكون هذا المتهم المتواري موضوع بحثه.. وكانت الفكرة المركزية التي حكمت تفكيره هي أن المتفجرات مهما تكاثرت لن تطيح بالدولة، إنما تغطي بادخنتها انفجارا بلا صوت سيطيح بالسلطة من داخلها . لذلك وجد وسيلة للنفوذ الى مخادع الضباط الهائجين الشبقين: النساء!

وهنا تبدأ مشكلة أخرى. فما عادت (صبيحة الساحرة) توافيه بآخر الأخبار والإشاعات، لأن المال وبناء العمارة وتحتها السوبر ماركت أصبح شاغلها الأول والأخير. وقد وشوشت له خديجه بأن الحاجة صبيحة نوت التوبة والحج وقد بلغت الخامسة والستين. وحتى قبل ذلك صارت تسر مجيد قبل أن تسره، وربما ستسره بما يريده هو. وما يريده هو أن يبقي أسرار الجيش له وحده. يستدعي يعقوب البنات بنفسه ويعلمهن المهمة:

- لا أريد أخبار الصغار من ذوي النجمة الواحدة والموس، فأخبار هؤلاء أحصل عليها من ندل البارات: وما من أخبار لديهم غير الذخيرة الفاسدة، وهزيمة اللواء الرابع وعلاقة المراسل بزوجة الضابط... اريد أخبار اللواء العباسي، أريدها من السرير.

- حاولت، إنه صعب جدا، لا يرتاد النوادي ولا يشرب أكثر من كأسين، وفي التاسعة والنصف يغادر، لأن إمرأته تنتظره. يحبها أكثر من نجماته.

- يستحيل! نبينا يوسف نفسه ضعف أمام إغراء امرأة، فكيف برجل عائد من الموت في إجازة؟ تعالي أريك كيف خلع واحد مثله نياشينه ونجماته ومسدسه ولباسه الداخلي أمام واحدة من زميلاتك....

- الثانية عادت بالشريط وعليه أغنية (بتونس فيك لوردة الجزائرية) بدلا من أسرار اللواء حسيب.

- لا يتكلم في أي موضوع سياسي؟

- هل سألتيه؟

- نعم، وكان جوابه: دعك من هذه الترهات وخلينا بما هو أهم وأثبت! مشيرا إلى ك...

- بعد الكأس الخامس؟

- والعاشر.

باختصار لم تعد صبيحة، ولا بناتها على وفائهن السابق، والأمر خطير مع ما تحمله من أسرار، لذلك لم يعتمد يعقوب على القوادات المحترفات، إنما بدأ يعمل على صناعة وتخريج قوادات وقوادين من نمط أرقى. صاحبة دار أزياء، صحفية مختصة بأخبار الوسط الفني،

مدير ناد عائلي، ممثلة شهيرة متقاعدة... وكانت عينه تدور حول هذه العاشقة الخائبة صاحبة الواحة. ومن الرجال كون شبكة جهنمية من شبان ساحرين مدللين احترفوا صيد شابات مدخنات يوارين حزنهن باجساد متلوية وأصوات مبحوحة من التدخين، سيحترفن صيد الضباط وبالأحرى صيد الأطفال المختفين وراء سلوك الضباط الخشن. يقرأ يعقوب التقارير المكتوبة بخط النساء السكرانات عن احاديث وعلاقات الضباط ويسأل: ما الذي يريدون أن يفعلوه بالتحديد؟من منهم بالتحديد يمكن أن يدير هذه اللعبة الدامية؟ وكلما فقد احتمالا أنشأ احتمالا جديدا، كما لو أنه يكتب رواية بوليسية مثيرة مصنوعة من عالم احتمالاته الواهم أكثر مما هي نتاج للواقع. وقد سيطرت شكوكه هذه على تكوين الدولة وحياة الناس فيها. فقد شغلت أجهزة الأمن والجيش بتنظيم المرور في الشوارع بحيث يسير الناس على خطوط مرسومة تحدد اتجاهات سيرهم ومناطق العبور والأماكن التي يمنع الاقتراب منها لأسباب أمنية.. في البداية أراد الناس التواصل مع عاداتهم الأولى مخالفين قوانين المرور الجديدة أو مبدين التذمر منها، ثم اكتشفوا وجود عيون إلكترونية مزروعة في المفارق، وإن هناك من يراقبهم خلال السير عبر شاشات خفية.. ولذلك بدأت خطواتهم متصلبة متعثرة حين يعبرون الشوارع متلفتين يسرة ويمنة.. ورغم تكاثر الأعمدة الحديدية التي تعني المناطق المحظور الاقتراب منها، إلا أن الناس اعتادوا فيما بعد المرور بينها راسمين تعابير من البلادة بحيث لا يبدو على وجوههم ما يثير الرجال الذين يراقبونهم من قمرات عالية معلقة فوق أعمدة عالية، كما اعتادوا السير في الممرات

الضيقة التي يصعب فيها وقوف اثنين للحديث في الشارع... لقد رسم كل شيء ليسير الناس كعابرين مسرعين في المدينة. ولا يأمن المواطن نفسه إلا عندما يدخل البيت ويغلق الباب بالمفتاح، وحتى داخل البيت تستيقظ مخاوف أخرى من آذان الكترونية بحجم حبة الحمص، بل ذرق عصفور يمكن أن تلصق بزجاج النافذة أو تدس داخل جهاز التلفزيون لتسجيل الأحاديث الخاصة أو التعليقات التي يمكن أن تصدر عن الناس حين ظهور القائد في التلفزيون وهو يزور دارا للعجزة، أو روضة للأطفال أو خندقا في جبهة الحرب.

يأخذ يعقوب سجينا اختاره بعد جولة تعذيب صعبة ليباهي بسطوته على الناس:

- اختر بيتا من هذه البيوت، أي بيت لا على التعيين، وساقول تاريخ كل واحد فيه من ميلاده وأعطيك شجرة عائلته وتاريخه السياسي، بأى مدرسة درس والمعلم الذي أثر فيه وكيف كانت درجاته، وما هي اهتماماته خارج الدراسة، وطبعا قبل كل ذلك ميوله السياسية!

-....

طبعا ستعتبر ذلك مبالغة بقدراتي وقدرات الجهاز الذي أقوده. لكي تتأكد أختر بيتا من هذه البيوت التي تفصلها عن الشارع بوابة خشبية، يليها ممر طويل ثم سياج حديدي وباب حديدي يحرسه كلب قفقاسي. مع ذلك أستطيع أن أقول لك ماهي المشاكل المستديمة بين الزوج والزوجة والخيانات التي يجهلها الإثنان، بل حتى أحاديث السرير.

-...

- أعرف بالضبط ماذا سيكتب غدا، وما الجمل التي سيحذفها من كتاباته، والرموز التي سيستخدمها وما يقصد من وراءها... أعرف أعرف.

-...

- أعرف لم تبتسم بسخرية: كيف إذن تحدث المتفجرات وكيف توزع البيانات؟ إنها مسألة وقت ياخليل، مسألة وقت لا أقل ولا أكثر. إذا لم يخبرني عنها واحد منكم فسيفعل ذلك واحد من أبنائكم.

***

انفجار جديد، في مدخل الإذاعة حين كانت تبث خطاب التهديد، وانفجار في وكالة الأنباء ومقر الحرس الخاص.. كل انفجار خطوة اقتراب منه.. هكذا فكر وهاب، فهو المعني الأول والأخير، بلحمه لا بسلطته. وكلما تزايدت العبوات واقتربت من المواقع الحساسة تأكد تماما إنه وحده المعني والمستهدف، وما هؤلاء الذين أصيبوا حتى الآن إلا تلميحات إليه. لذلك لم يذهب لمكتبه في القصر، ولم ينم في غرفة نومه. إحساسه بالخطر القريب أعطاه الحمية بمقدار الخوف.. لذلك ترك أوراق الدولة مكدسة على مكتبه وأجل اجتماعات الوزراء وكل المواعيد مع السفراء الأجانب وكرس وقته لهذا العمل الذي يتيح له أن يقلص المسافة بين القرار والتنفيذ ويراهما بعينه معا. أقام هنا مع يعقوب في هذا المكتب الزاهد.. بين رفوف السجلات المتربة يجلسان جنب بعضهما على طاولة ينيرها مصباح واحد ترك دائرة من الضوء على الورق المفروش. يستمع وهاب بقليل من السخط ولكن بانتباه متثاقل ليعقوب وهو يتلو عليه:

-...عبد الله مهران الملقب(الأشعري)،من حزب المهدي المنتظر، لا شركاء له في المحاولة، كان يتدرب لوحده في البيت. ألقي القبض عليه

وهو يجهز العبوة لتفجير ناد للضباط.

فواز البنا، بلا تنظيم، أهدى لمدير الأمن في محافظته بعد الإفراج عنه تلفزيونا ملونا. انفجر التلفزيون فقتل المدير واثنين من أطفاله.

- محسن عباس الملقب (الأفغاني) وضع العبوة في سيارة عسكرية وفجرها في ناد للضباط. من سوء حظه نجا من الانفجار بذراع مقطوعة.

-بهيجة عثمان، زوجة أحد المتآمرين الذين أعدمناهم...

سحب وهاب نفسا طويلا وهز رأسه يريد أن يخرج من وطأة الكابوس ونهض بتكاسل وضيق وهو يسأل يعقوب:

- لديك ماء؟ لقد جف ريقي !

...

-أخفت المسدس في لفائف طفل مزور ودخلت على أحد رجالنا فأصابت رقبته.

الجندي المكلف عدوان عبيد من جماعة الغفاري،هو و العريف صهد سرقا مشجبا للسلاح ولم يعترفا، رغم الضغط، بالمكان الذي خبأوا فيه السلاح. نبحث عن ضابط له صلة بهما...

بطرف إصبعه وبهدوء سحب وهاب القائمة في إشارة إلى ملله من التكرار:

- فتافيت ....

قالها وهو يدور الورقة على الزجاج بطرفي إصبعيه وكان يعقوب يترقب كلماته التالية غير آبه بالورقة.

- كل هؤلاء مجرد فتافيت، في النهاية يريدني الغفاري، أنا بلحمي ودمي، ومن أجلي وفر حياته حتى الآن!

وضع توقيعه دون أن ينظر إلى الورق.

- ستبقى الأمور مملة هكذا مادام الغفاري بعد خارج الشبكة.

لقد تعود أن يراه لكثرة ما فكر فيه. يطل من النافذة على الشارع المشجر الفاصل بين مكاتبه وقصره فيراه هناك ملولا يتجول بين شجرتي السرو، ذاهبا عائدا يدقق في ساعته منتظرا الموكب وقد شد يده على القنبلة. ينظر إلى حراسه المصطفين على جانبي الشارع بمسافات محسوبة وعند مفارق الطرق التي انقطع السير فيها، ولكنه لا يراهم، إنما يرى في الغبار الذي يليهم قاتله في صورة أقرب إلى اليقين.. نحيلا أميل إلى الطول بجلباب بسيط من الكتان الأبيض المسمر يكشف عن ساقين نحيلتين.. يركض ليقطع عليه الشارع، وأحيانا يخترق طوق الحماية ويصبح قاب قوسين وراء زجاج نافذة السيارة. يتوقف قليلا قبل أن يلقي قنبلته:

- لم تضحك؟

-...

-لأن هيئتي لا تبدو لك مهيبة؟!

-...

- تتصور الموت أكثر جلالا.. طويلا شامخا مرعدا بارقا؟!

-....

- أنا بسيط أكثر مما تتصور.. مثلي مثل هذه الجموع التي تلاقيها على طرفي الشارع، أو في الساحات لتصفق لك دون حمية ولا صدق.

لا يستغرب وهاب من صورة الموت، فقد رافقه منذ صباه كثأر مبيت في نفوس أناس من قريته، قريبين من بيته ويعرفهم بالوجه والاسم. وهنا أيضا، يكاد يعرف الغفاري لكثرة ما سمع عنه وألفه ندا اكثر منه عدواً.. يتلبس فكرته في كل لحظة (بماذا يفكر الآن؟) يسأل

نفسه ويأخذ موقع قاتله. وتبعا لذلك يرسل موكبين أو ثلاثة باتجاهات مختلفة، يختار واحد منها ثم يغير خط سيره في اللحظات الأخيرة. ومع ذلك انفجرت عربة الخضار قرب موكبه.

* * *

الغفاري نفسه مل الانفجارات وما عادت تفرحه الفرائس الصغيرة. فتوقف لفترة ليكرس وقته للعمل الذي نذر له حياته: الرئيس نفسه! منذ أن أوقف ضرباته للطرائد الصغيرة أدرك الكل أن وراء هذا الهدوء المقلق ضربة كبيرة. وبدأت معلومات تتسرب إليه من أقرب الأماكن للرئيس عن خروجه للصيد بطائرة هليكوبتر وزيارته القادمة للمعسكرات بسيارة رصاصية مدرعة، تغيير سيارته داخل الموكب إلى الصف الثالث، خطاب سيلقيه في الملعب البلدي، خروجه متنكرا في زي مزارع لتفقد الأسواق. معلومات تتسرب وكأنها فلتات لسان، أو أسرار قيلت على موائد السكر أو عبر ثرثرات زوجات المسؤولين الكبار، وأحيانا تبلغ لمتعاونين معه بهمس كالفحيح دون ذكر المصدر. يتابعها الغفاري مائلا وقد اغمض عينيه. ترصد الموكب المحتمل مرارا من خلال بائع خضار وقف ليلا ونهارا في زاوية شارع فرعي، وقد خبأ القنابل تحت الخيار. وذات مرة دفع البائع عربته إلى عرض الشارع حالما انعطف الموكب، لكن الرئيس لم يكن هناك إنما شبيهه كما قيل... يدقق الغفاري بحركاته في التلفزيون فيغفل ابتسامته العريضة ويده المرفوعة للتحية مدققا في الأمكنة التي يختارها لمنصته وتوزيع الحراس المحيطين به والمسافات بينهم، بينهم وبين المواطنين. يقرأ الإعلانات والأخبار الصغيرة في الصحيفة

الرسمية. ولكثرة ما فكر فيه نبتت صورته في خياله.. يستغفر الغفاري ربه من صورة تقطع رؤياه حين يغمض ويركع، وحين يرفع رأسه من السجادة يوشك أن يراه واقفا فوق رأسه. يرى موكبه حين ينام مقبلا من شارع شديد الاستقامة، مضاء بكشافات تخز العين مسرعا في موكبه كما الضوء، قادما إليه بالذات، هو الباحث عن شجرة تخفي عريه، يجر القنبلة فتستعصي عليه ويضغط على زناد رشاشته فلا تواتيه، يحاصره الزمن الشحيح المتبقي كما الموت فيقفز من نومته مبللا بالعرق.

استعدادا لضربة العمر اختار الغفاري مجموعته من طلاب بين السابعة عشرة والعشرين .. شهداء منذ الآن.. هكذا تقول وجوههم الشاحبة ولحاهم المزغبة و قامتهم النحيلة حين اصطفوا أمامه وهتفوا معا وهم ينظرون باستقامة قليلا فوق رؤوسهم:

- الله أكبر!

فكر بالسلاح طويلا.. المسافة بين الواقفين والموكب بعيدة لا تصلح لاستخدام المسدس، وتحتاج البندقية مكانا ثابتا في حين تحتل الحماية كل الأماكن المحيطة بالمكان الذي يمر منه الرئيس أو يتوقف فيه....في النهاية وضع الغفاري خطته التي تفترض أن الحرس الخاص للرئيس اعتاد أن يراقب الجزء الأعلى من الناس الواقفين على جانبي الموكب وبالتحديد عيونهم وأيديهم، ولذلك بدأ يدرب المجموعة على نزع صمامات أمان القنابل المخفية تحت الجلابيات بنصر القدم اليمنى والتسديد على الهدف بالطريقة التي يسددون الكرة على المرمى. استغرق التدريب شهرين، في الليل والنهار حتى بلغت دقة التصويب حد إصابة عصفور طائر بضربة حجر من الرجل.

يعرف استجابته للاستفزاز والتحدي فيحاول أن يدفعه إلى موقع المقتلة، ويضع تحت صورته المعلقة عند مدخل المخيم عبارة: هنا سيكون قبرك!

* * *

وقورة ومسترخية.. هكذا بدت العمة صبيحة وهي تعد نفسها لحياة جديدة بعد عودتها من الحج ومعها عشرون شيخا وعجوزا حجوا على حسابها. سعيدة بأنها فعلت شيئا يغفر لها بعض ذنوبها، لم تترك قدح الويسكي بعد بانتظار فتوى الشيخ الأمين الذي قال لها:

- المغفرة ممكنة، فباب الله لا يغلق أبدا بوجه واحد من عباده.

فكرت بأن تبدأ من نهاية العام القادم، حين تضع عمارتها الأولى وقفا للفقراء وتبيع أسهمها في كازينو القمار وتكف عن شرب الويسكي. ستكون آنذاك قد بلغت الخامسة والستين وأمامها خمس سنوات على الأقل من حياة زاهدة متعبدة لربها ولنفسها. كانت مطمئنة تماما لوعد الشيخ الأمين. حسبت الأمر بدقة: ألف حسنة عن كل واحد من الفقراء الذين حجوا على حسابها، وألف حسنة عن كل دينار من العشرة آلاف التي قدمتها للشيخ الأمين لبناء جامع المغفرة، ألفي حسنة عن كل دينار من الثلث الذي أوقفته للأيتام من عمارتها.. بحساب بسيط ستزيد الحسنات على سيئاتها يوم الحساب. تأكدت من سعة المغفرة وهي تمشط شعر الصبية البكر وبيديها حلقت شعر عانتها وجعلتها أنعم من حصاة لترسلها الليلة لمجيد. غارقة كانت في عالم المغفرة وهي تتمتم (إن شاء الله، إن شاء الله)، ولذلك لم تنتبه للأشباح التي تسلقت جدران البيوت وعبرت الحدائق بالتتابع. ثم فزعت من فرقعة

شرارة وانطفأت الأضواء في كل المنطقة وغابت البنية المرتجفة المولولة من يديها. بصعوبة التقطت التلفون لتسأل الحرس فوجدت الخط باردا تماما وقبل أن تمد رأسها من النافذة لتصرخ كممت فمها يد حارة قوية وأحست بنصل حاد يحز جوزتها قبل أن تكمل كلمة (اللـ...) وسمعت صرخة، صرخة جوقة موحدة من النساء، طويلة وحادة كسرت زجاج الليل البارد.

* * *

مع غروب الشمس وحين يهدأ ضجيج العصافير في سدرة البيت تبدأ وحشة الحاجة خديجة وهي تتسمع لأصوات الصمت: صرير الزيزان وخشخشة الجرذان والخطوات الكتيمة التي احتلت كل غرف البيت الذي خلا من رجاله: لاضوء في الحوش و لا صوت رجل يبسمل وقت الوضوء، وقد ركد الماء في الحوض الذي يتوسط الحوش لأن أحدا من الرجال لم يعد يتوضأ فيه، لاصوت غير بسملات الحاجة نفسها:

- رب نجنا من الكبائر والعاديات...

البراني الذي كان يموج بالضيوف والمريدين الذين تصل أصواتهم وتراتيلهم إلى غرف الحريم وتهدئ العليلة، هذا البراني أصبح مسرحا للأبالسة.. يوصوصون فيه طوال الليل ويقلبون رفوف الكتب ويسقطون العباءات المعلقة إلى الأرض، بل وينزعون عباءة السيد عن قبره.

نامت الحاجة، كما في كل يوم، نصف نومة، وهي تتسمع أصوات الليل وأنين العليلة وتمتماتها. وكانت تحس ثقلا على أنفاسها حين انفجرت الصرخة فاستفرغت العليلة طعاما مخضرا وقد تثبت محجراها على الباب. ولم تكف الحاجة خديجة عن قراءة القرآن بوتيرة سريعة على إيقاع قلب مرتجف من توقع السوء، متوسلة ابنتها وهي تستفرغ

هووووع حالما تمس الملعقة فمها لأن إبليسا يضع ذنبه المشعرالشبيه بذنب جرذ في طعامها. منذ أيام لم تنم أبدا، فالأبالسة البدينون يتكومون على صدرها مع أول إغفاءة ويشاركونها السرير باعثين طوال الليل ششششخخخخخخخخخيرا يشبه صوت منجرة ويتركون على اللحاف أختام أقدامهم، بل تمس شعرات شواربهم وجهها مع أول إغفاءة. تلوج خائفة وتهب لتهرب من فراشها فتمسك الأبالسة بقدميها..هي التي تصلصل الحديد في قدميها وتجر أقدام الجنين من بطنها فتصرخ:

- هوووو، هوووو، هووووووو!

على صوت الصرخة دارت الأفعى حول العليلة متتبعة زخرف السجاد و خطا متلويا على امتداد الحواشي و تركت شراشيب حول السجادة، تتجه في خط ملتو لتلتم في الوسط في شكل نجمة ثم تواصل الزحف متخفية ((وسوسوسوسوس...)) تحت وريقات شجر السجادة حتى تنسل تحتها وتفححححححح! لقد أخذ إبليس هذه المرة شكل أفعى لسعها بين فخذيها...آآآآآآآآآآه! انا حامل.. شياطين تدفقت على طول الممر توصوصوصوصوصوص حولها. مع الصرخة سقطت صينية الطعام من الحاجة خديجة وهي ترى ابنتها وقد دخل الشيطان بكامله في جسدها وراحت تتسلق جدران الغرفة مثل وطواط وتتدلى من السقف فوقها تماما:

اخرجي أيتها الروح فجسد الصبية البكر محرم عليك!

تجيبها الروح همسا في أذنيها:

- أحبها.

- لا تحبك.

- أحبها وسآخذها إلي!

أفلتت الصبية تماما من يد الحاجة ولم تبق إلا مزق من ثوبها و بقي جسدها ممدودا وطافيا في فضاء الغرفة ملتصقا بالسقف.. آنذاك تأكدت الحاجة أن شيئا سيئا حدث لابنيها فما عادت في البيت شفاعة تطرد الأبالسة.

* * *

حين اتعبه المسير الطويل وهو يصعد الطريق الترابي الضيق الى أعلى الصخر حيث يبدأ النبع، جلس السيد الحائري ليستريح قليلا قبل أن يشرع في الوضوء والصلاة هناك لوحده. بينه وبين السهل تحته غمامة من غبار يعكس ضوء الشمس الحاد بألوان الوهم، كأن الخليقة تتشكل الآن أمامه. دوار خفيف أخذه وهو يرى السهل المترامي ومخيمات الجدب تحته تزحف نحو خيط الماء الذي تحاصره الرمال. طوال نهار ذاك اليوم الصافي المعتدل الحرارة بقي السيد الحائري يجوب المنطقة دون حراسه ومريديه وهو يستغفر ربه. فقد أثقل القتلى قلبه بعد أن أفلتت الأمور من يديه: قنبلة في صالون حلاقة للنساء، وعشرة شبان صغار خنقوا بالغاز وهم احياء في السجن بعد اعتراف مسؤولهم عليهم، انفجار وحريق في دار للسينما تعرض فلما عن أفريقيات عاريات، اثنان من مريديه قتلا خطأ بالقنبلة التي كانا على وشك أن يضعاها تحت سيارة وزير، زانيتان ذبحتا بالسكين من الوريد للوريد في بيت في الضواحي، خمسة من مجاهديه يحفظ وجوههم واحدا واحدا كما أبناءه، نسفوا خلال مداهمة لوكرهم. لم يعد قادرا على أن يقول كلمته حين أخذ الدم يقود الدم بعد أن تفرخت المجموعات وتداخلت بلا فكاك. طوال الطريق بقي

يستغفر ربه من فكرة أنه يفعل ما وضعه الله في الكبائر: قتل النفس التي حرم الله.

كان يتوضأ عند النبع حين سمع صرخة حادة فاستوفز وهو يغمر وجهه بالماء، ورفع رأسه عارفا هذه الصرخة بالتأكيد فلم ير غير ضوء مصفر:

-أعوذ بالله من شر الشيطان!

كانت بضع صخور تتدحرج من الجبل المثلوم على التراب في هبدة كتيمة، وحين غادر عين الماء قاطعا الطريق بين المغتسل والمقبرة سمع خفقة جناح ولم ير الطائر الذي خفق.

- اسمع!

تلفت حوله فلم ير المنادي إنما أسراب الطائرات تركت خطوطا بيضاء على السماء الواضحة، وصعدت من الوادي إلى الأعلى سحب مصفرة وامتلأ الجو حوله برائحة كبريتية خانقة فقال بصوت مسموع:

- القيامة!

* * *

تنبه يعقوب على صوت الصرخة وما من وسيلة حوله للتأكد مما حدث. لذلك نزل إلى سراديب التحقيق وقد تركت الكوابيس والأفكار المقلقة في فمه طعما مرا وفي روحه سخطا يصك أسنانه، ومتضايقا قبل ذلك من شيء خرب كل جهود أيامه السابقة، فقد أخطأ المداهمون المكان وجلبوا له بائع بطاقات اليانصيب الجوال الذي عرف جلاس المقاهي صرخته الشهيرة: نص مليون! اعترف تحت التعذيب على من خطر بباله: صاحب الدكان المجاور وخباز المحلة والدلال، بل مختار المحلة:

- أنت قتلت الحاجة صبيحة ؟

- أنا قتلت الحاجة !

- كيف؟

- قتلتها.

- سألتك كيف؟

- كانت نائمة فدخلت عليها وقتلتها وهي نائمة.

- غبي..قحبة تنام في الساعة الحادية عشرة والنصف!؟

- أنت تعرف الحكاية، قل لي كيف، وسأقر الواقعة!

- الفرق بيننا يا وليد هو أنك تكتب عن الحدث بعد وقوعه، أما أنا فأكتبه قبل. أضع الواقعة ثم أدخل الشخصية فيها.

- بالإكراه طبعا؟

- دعك من الوسيلة، تتبع كيف أجعل رجلا يتلبس واقعة خطوة خطوة، حتى يصدق ما قاله:

- بالتفصيل! شريكك سمم الكلاب ودخلتم...

- شريكي! ما اسمه؟

- في عمليات كهذه لا ضرورة لأن تعرف اسم شريكك الحقيقي. تعارفتما باسمه المستعار (الهوشر) وستتعرف على شكله حين نعرضه أمامك وما عليك آنذاك إلا أن تقول: نعم، هذا هو!...متأكد؟

- كما أنا متأكد من نفسي!

يتتبع يعقوب خياله ويجد ما يطابقه. بالخيال يقهر ملل المهنة. وحين يقوده الخيال إلى الشطط. يغطي خطأه بالموت. لذلك لم يكره أعداءه وهو يقتلهم، فلا معنى للكراهية والحب في مهنته، على العكس

كان يدعوهم قبل الموت لوجبة كباب دسمة، ويأكل معهم في صحن واحد ويربت على أكتافهم وهو يسأل عن آخر النكت، وحين يغادرونه بغبطة متوهمة، يغمز للحارس وبإشارة من يده توحي بحركة السكين.

* * *

الصرخة التي أيقظت الجميع وصلت عميقة مخنوقة إلى جوف النفق حيث كان عزيز يأخذ نوبته في الحفر (تصور: شابه بعمرها.. كيف يمكنها أن تصبر عشر سنوات وقد ذاقت طعم الأيـ...؟ هاه...) هكذا هدده يعقوب وقد لاحظ تردده. (زوجتي وأعرفها _تمتم عزيز كمن يرد عليه - ربيتها بنفسي وأعرف من أي معدن هي)، على العكس كانت هي الأجرأ حين دخلا غرفة العرس، فقد ارتبك وتأخر في فتح أزرار بنطلونه فمدت يدها دون تردد لتساعده (كلمات. يمكن للمرأة أن تضعف، وقد صدق يعقوب: في داخل كل امرأة، مهما كانت شريفة، عاهرة صبورة تنتظر). للحظات رآها ممددة على السرير الذي غطي بشرشف لماع ومحمر. ألقى عدة الحفر جانبا ومسح التراب ببنطلونه وأسند ظهره إلى حائط النفق البارد وبدأ يفك أزرار بنطلونه ليحرر قضيبه الذي بدأ يدفع. هي التي مدت يدها إلى قضيبه حين قبل سرتها. ومسحت العرق عن صدره. كل عضلة في جسدها ترتجف ويدها ممدودة إليه: تعال بسرعة! حمرتها قانية كالدم وكحل عينيها تماما مثل عاهرة. العاهرة في داخلها، وفي الغرفة التي استحالت إلى زنزانة تعذيب شريك غامض له. من ثقب الباب يرى نصفه الأسفل العاري وهو يقترب منها. عاهرة تنتظر. يلهث عزيز فوقها ويرى مؤخرته أكثر مما يراها هي. يوغل بسرعة والرجل الآخر ينتظر، ينتظر العاهرة بحمرتها الشبيهة بالدم وساقيها المفتوحتين وبينهما وجه، وجه بهيجه!

قبل أن يخمد وهو يبكي!

وبين غيبوبته والدوار سمع صوتا يناديه:

- عزيز عزيز!

أغلق سحاب بنطلونه بسرعة ومسح يده بالتراب حين اخترق الضوء جوف النفق وفي وهجه رأى ساقين تتدليان ثم هبط جسد قصير كأنه خرج من جوف الأرض وليس رسولا للحياة التي تجري فوق.

- هاه، هذا أنت هنا ؟

سأل قادر فانتزع عزيز من غيابه.

- الرطوبة!

- ما لها ؟

- لا أعرف مصدرها. لصق قادر أذنه على الجدار الرطب عله يتلقى دويا لمجرى مائي وأخذ يجلو حواسه ليعرف بعض أسرار الأرض التي تفلت من معارفه كلما توغل فيها أكثر ثم هز رأسه لعزيز (لا أعرف):

- اصعد يريدونك فوق!

وحيدا توغل قادر في النفق. المصباح اليدوي ينير جزءا صغيرا من أحشاء الأرض. ورغم أنه يحمل عدة الحفر، لكنه جاء ليحتمي بجوف الأرض مما رآه فوقها فقبل قليل سمع صلية قصيرة أنهيت بها حياة خليل. بصعوبة استطاع أن يتصالب أمام خبر كهذا، فقد دخلا السجن معا، وعاشا فيه معا وظهر الشيب عليهما في وقت واحد. عندما يجلسان سويا يكتشفان دائما أنه لا يوجد ما يتحدثان عنه، فالمصائب عاشاها معا والقصص سمعاها معا. بعد كل هذه المعايشة لم يجد ما يقوله لرفاقه في القاعة وهم يودعون رفيقيهم، فقط غص بالكلام وهرب

من الحفل. لكم يود أن يرى وجه رفيقه وقد تحلل من تغضنات الحياة ليرى فعل الموت على وجه يشبه وجهه وحياة تشبه حياته. لديه يقين أنه سيكون التالي ولذلك أستعجل النزول إلى النفق. وعندما رفع الفأس، فاجأته اليد الكبيرة الممسكة بالإزميل. لقد عاودته الرعشة الأليمة! ومع ذلك أخذ يضرب الجدار ببطء كأنه يحاور هذه الأرض التقية التي تحدثه بحنو أم مجربة. يمكنه الآن أن يبوح لها بأعمق أسراره..

يحفر ويحفر وكلما توغل، زاد يأسه وأمله معا. أحيانا يخيل إليه إنهم يحفرون نفقا بلا مخرج ولا عودة... بسرعة ضاقت أنفاسه وأخذ يسمع دقات قلبه المضطربة وارتخت يداه فتوقف عن الحفر. غرف من الأرض حفنة من تراب وأخذ يتحسسها بأطراف أصابعه، لكنه أصبح أقل ثقة بحساسية يده التي خدرتها ارتجاجات المطرقة. حقا ما قاله عزيز، فقد أصبحت الرطوبة خطرة. وأخذ يتلمس السقف والجدران: ربما بضربات قليلة ينهار السقف أو يتدفق الماء من ثقب الجدار. في كلتا الحالتين ستطبق الأرض عليه رحمها الذي لا عودة منه. سينتهي كل شيء، بداية النفق ونهايته، الذين يعرفون السر والذين يجهلونه، الحراس والمساجين والألم وهذه الصليات القصيرة التي تفتح صباح السجن. لولا التزامه مع بقية الرفاق الذين حفروا النفق معه لسمى كل هذا سلاما مع الموت الذي أصبح قريبا مثل صوت الرفيق الذي سبقه: تعال! لا تتردد! خطوة واحدة وتتوحد حياتانا و النهايات.

* * *

على الجانب الثاني من النهر إنطفأت الأضواء قليلا ثم انفجرت الصرخة، قريبة كأنها تحدث في بيت مجاور. تكسرت كلمات

الضيوف واهتز الوهم الذي يحيطهم ثم التفتوا إلى الوزير بحثا عن جواب. بعد مكالمة تلفونية طارئة غاب الوزير عن نفسه وضيوفه وبدت نظراته شاردة حين يتحدث اليه ضيوفه ويرد (نعم، همممم، صحيح) دون رابط.. غائب دائما عن موضوع الحديث وقد اكتسى وجهه بتغضنات عميقة، وفي طرفي شفتيه توتر قاس كمن يكتم سرا خطيرا قبل الصرخة:

-تعالوا إلى الداخل فقد برد الجو!

قالها بصوت مختنق مرتعش وقد انقلب مزاجه متجهما، فقد دخل حارسه الشخصي ليأخذه بعيدا عن ضيوفه ويهمس في أذنه:

- الوضع خطير جدا !

عينه كانت تزوغ دون أن يدري نحو ذاك البيت المغلق الغامض المغلق النوافذ. يدري أن شيئا غامضا وفظيعا يحدث هناك، لكنه لا يريد أن يستغرق طويلا ويفضل عبور الموضرع رغم غصة الفزع. خبرته السياسية قالت له بأن الخطر قريب إليه، أقرب حتى من حارسه الشخصي الذي يعطيه الأوامر: متى يخرج، وأية سيارة سيركب، وأين يولي ظهره حين يجلس وكيف ينبغي أن يقضي إجازاته، وأقرب إليه من سائقه الذي يأخذه في طرق متعرجة طويلة دون أن يخبره أين هو ذاهب...مساحة تحركه ضاقت بين الوزارة والبيت وأحاطه حراس يسدون عليه مساحات التحرك ومنافذ الهواء ويدفعونه دفعا داخل السيارة المعتمة الزجاج. مخاوفه من الخطر دفعته أكثر نحو هذه السلطة التي لا حماية له بدونها، ومع ذلك يخافها بمقدار ما يحتمي بها. وقد وجد لموقفه مبررا:

- البديل الوحيد عنهم هو الملتحون الذين سيحرمون علينا كأس النبيذ هذا ويحولون كل نسائنا النساء إلى حريم!

خوفه هذا هو الذي يدفعه نحو القائد بالذات. يذهب إليه مشحونا بالغضب والشكاوى على حساده والمتجاوزين على سلطاته والمتآمرين عليه، ولكن للقائد قدرة غريبة على محو كل ذلك منذ البداية:

-جئت في وقتك تماما. لدي فكرة...

وأحيانا يذهب بخطوات سريعة وعلى فمه إبتسامة مشدودة، تسبقه فكرة ستسر القائد:

-عظيم مثلك لا يصح أن يشغل وقته بالأمور الصغيرة التي تخص الوزراء والمدراء، عليك يا سيدي أن تكرس وقتك للمثل التي تكون الدول الكبيرة. حرام أن تتناثر كلماتك في الهواء من خلال الخطب، فالشعب ضعيف الذاكرة ينسى الحكم الكبيرة، لذلك عليك أن تفرغ من وقتك الثمين لتأليف كتاب يرشد الدولة والأجيال الجديدة.

-...مدرسة تختلف عن كل المدارس، يدخلها الأطفال الأذكياء منذ نعومة أظفارهم وصعودا حتى التخرج، ليتعلموا شيئا واحدا: أنت يا سيدي.. سيرتك، معجزاتك، أقوالك... بعد ذلك سنترك لهم حرية أن يبدعوا شيئا يخصك...

- التاريخ مجبول على النسيان، وما أكثر العظماء الذين طواهم التاريخ.. لا بد من متحف في الساحة المركزية يضم سيفك الذي أنقذت به البلد من السفاح، وصورك المختارة، وما قيل فيك من شعر ونثر ولحن، قمصانك، ورائحتك المفضلة، وصوتك وأنت تتكلم، سنسميه صرح الشعب؟

ومع ذلك بادل الزعيم، كعادته، التملق بالتعالي والإهانة. ففي لقاءاته الأخيرة بدأ يتحدث وهو ينظر إليه دون أن يعطيه إذن الجلوس، نظرة تجمع الغضب والسخرية ويقول كلمة (دكتور) بتشديد ساخر. نوه بتلميحات ملغزة لعلاقاته النسائية (قيادة الدولة لا تشبه قيادة النساء، سهرات الليل تأكل من عمل النهار، كثرة السكرتيرات)...

أمس، وفي لحظة وجوم عصبية اكتشف الوزير أن الصور آنية التأثير على عكس الكتابة. فمن خلال الكتابة يمكن إعادة تصنيع القائد في ذاكرة الناس.

- لم ياسيدي تترك الأعداء وحدهم يروون سيرتك للناس؟ لم لا ترويها لهم بنفسك . ما من ملحمة مثلها يمكن أن تشغل الناس وتلهم الأدباء والفنانين!

يدري الوزير أن (الملهم) لايملك القدرة والوقت لهذا العمل الكبير , لذلك أخذ وليد بعد الكأس الرابع من بين المدعوين الى ركن قصي من حديقته.

- الرئيس يقرأ كتاباتك هذه الأيام باهتمام، لا الحرب الطاحنة على الجبهة ولا المتفجرات التي تهز المدينة تشغله عن قراءتها. وقد سألني عنك وأراد أن يراك...

أمسك وليد يده متوسلا:

- حاول أن تنسيه الموضوع أرجوك!

- مستحيل يا وليد مستحيل،لأن له ذاكرة حادة وصلبة لا تزعزعها المتفجرات. تصور إنه يتذكر حتى الآن القصة التي كتبتها حول الرجل الذي خرج حاملا رأس السفاح!

- عجيب! أنا كتبت هذه القصة قبل وصوله الى السلطة.
- هو يعرف ذلك تماما، ويعرف أيضا أن هذه القصة صنعت بطلها لاحقا..لذلك يريدك أنت بالتحديد.
- ماذا يريد مني، لديه حشد من الصحفيين والشعراء العموديين؟
- يريدك لتكتب سيرته.
- من أين لي أن أعرف سيرته؟
- ستكتب سيرة رجل تجله وسيضع هو تفاصيلها من خلال الجلسات معه.
- لكني لا أحبه!
قالها وليد ثم تلفت حوله مدركا خطورة خطئه.
- لا يهم، حتى لو كنت تكرهه، فالإجلال عاطفة تصنع بغض النظر عن عواطفك الشخصية، وحتى لو لم يصدق الإجلال، سيصدق الخوف الذي وراءه، سيقبل الكذبة التي تحول الخوف الى حب. إبدأ بصرخة، صرخة طويلة وحادة في ليل مجدب وخطير تنبيء عن كارثة ووعد!
- كتبت ذلك سابقا؟
- أعرف، ولذلك أقول لك أن البداية جاهزة.

* * *

- لن أذهب للدائرة اليوم!
قالت ياسمين بعد ليلة مؤرقة تلت الصرخة، والتفت ثانية بالغطاء متحسسة بجسمها نعومة السرير الذي نامت فيه لوحدها..حكت مفاصلها بالسرير لا تريد أن تفارقه وتلمست نعومة الوسادة ومدت يدها على طولها وضايق عينيها خيط قوي من ضوء الشمس تسرب من بين

الستارة ورأت عقارب الساعة تشير إلى الحادية عشرة صباحا: (لن اذهب إلى الدائرة!).. ستقول للمدير بالتلفون إنها مريضة أو متعبة وسيفهم الأمر بسهولة. لن تنقلب الدنيا إذا تأخرت يوما، فقد اصبح عملها شكليا تماما.. تصل إلى الدائرة متأخرة بعد أن يوصلها أحد المسؤولين الكبار إلى منطقة قريبة خشية أن يراه أحد معها، ولا تفعل شيئا خلال دوامها، إنما تقضي الوقت بمكالمات تليفونية طويلة ولا تكف عن التثاؤب وهي تغطي فمها بقفا يدها. ليت أحدا يناولها كوب ماء بارد ترطب به شفتيها الجافتين وحبة باراستيمول لهذا الدوار الذي يمنعها من التثبت عند نقطة واحدة في هذه الغرفة التي لا تكف عن الدوران. البارحة شربت حد اللعنة ورقصت حتى آلمتها كل عضلة في جسمها وسقطت مرتين من فرط السكر، ثم... هل بكت؟ لماذا بكت. لا تتذكر، و ربما لا تريد أن تتذكر صورة الرجل الأنيق الذي فتح أمامها حافظة نقوده. فقد آلمتها الحال الذي وصلت إليه وبكت لأن الفساد ملأ روحها، وما من وسيلة للخلاص منه إلا بالاندماج أكثر فأكثر. وقبل أن يداهمها سيل الذكريات دفنت رأسها تحت الوسادة:

- ترررن ترررن ترررن، ترررن ترررن ترررن...

- قاسم فنجان؟! غير معقول!كيف أنسى؟ على الأقل سلسال الذهب المسروق سيذكرني. أين اختفيت؟ يا إلهي! سآتيك بالسيارة. طبعا أكيد!

تنفست بعمق وإجهاد بعد المكالمة (يا إلهي.. لكم يتغير الناس)! فقد بدا لها صوته بالتلفون متوسلا منكسرا في حين أنها لم تعرفه إلا غاضبا خشنا كأنه خارج من عراك أو ذاهب إليه. دفنت رأسها في الوسادة وقد

أطربتها كلمات عاشق نظيف (صورتك معلقة في جدار الخندق والقصيدة الطويلة التي اكتبها عنك). تمغطت وتثاءبت وابتسمت بحزن وهي تجر اللحاف لتحتمي بذكرى هذا الشاب الذي يصغرها بست سنوات والذي وقف أمامها دون أن يأبه بالشلة المحيطة وقال دون سابق معرفة:

-هذه القصيدة لك!

كيف نسيته وغاب عن بالها تماما؟

للحظات وقفت عارية أمام مرآة الحمام قربت وجهها وتلمست الذبول والمسامات الخشنة التي اعتادت أن تغطيها بالمساحيق. البقع الداكنة حول عينيها من طول السهر وهذه الطية القاسية في رقبتها. استدارت رغما عنها ولحلحت وركها (يا إلهي.. كيف سأرتدي البنطلون بهذه السمنة التي أكرهها)؟ ستبدأ التمارين من صباح الغد! فتحت الدش البارد وتركت نفسها للحظات مستسلمة للماء يدغدغ جسدها المتعب المتورم ويجرف كل ذكرياتها وهواجسها ويعطيها إحساسا غريبا بأنها تملك هذا الجسد وأنها قادرة على أن تغير مساره:

- سيكون يوما جديدا!

قالتها بين التمني والوعد الأكيد ثم جلست في شرفة شقتها ملفوفة بالمناشف البيض تراقب النهر البعيد والزوارق النائمة والحمائم اللائذة بالطين البارد من حرارة الشمس وأخذت قهوتها في الشرفة بعد سقي الأصيصات وهي تسمع فيروز تغني (من زمان)... سيكون يوما جديدا بالتأكيد!

.. ومع ذلك انتابها نفس الخوف من العجز المتتالي إزاء هذا الفساد الذي يحيطها ويثقل روحها، فكلما فكرت بالخلاص يغطيه الألم على فرصة فاتت.. ولذلك استعجلت الخروج إلى الموعد. سرحت شعرها المبلول

وقررت أن تتركه كما هو، ووضعت من الزينة ما يكفي طالبة جامعية متحررة وارتدت قميصا أبيض فتحت أزراره ليظهر صدرها دون غواية، تنورة عريضة تحرك الهواء بين ساقيها، وأحست بالراحة لهذه النظافة التي تغمر جسدها وروحها. فعلت كل ذلك بمرح وهي تمني نفسها (سيكون يوما مختلفا، وربما بداية حياة نظيفة)، ثم صعدت فجأة سخرية حزينة من سخف ما تفعله وهي تحاول أن تستعيد خفة فتاة جامعية في حين مازال كحول البارحة يثقل رأسها و جسدها متورم من سقطتين خلال الرقص.

* * *

حين أراد الكتابة استعصت عليه الكلمات، وبالأحرى استعصى عليه الموقف، لأنه أراد أن يوصل نفسه قبل ذلك ليأس تام من كل ما آمن به سابقا (لقد تأخروا كثيرا، اكثر مما يجب وربما لن يأتوا أبدا)، لو أجد واحداً منهم ليقول لي كم يدوم الأمر. لكن ما من أحد يعدني. وحين قبل فكرة الوزير تمسك تماما بذلك الفارق الواهي بين الخوف والإجلال. بالخوف يحول الكراهية الى رهبة ثم حب. سيصف مشاعره وهو يلتقيه لأول مرة خارجا من مكتبه الى غرفة الإنتظار: طول قامته وسواد عينيه و طية الصمت الحازمة في طارفيّ شفتية. إكتشف الأنثى في داخله وهو يتملاه.. هذا الذكر القاسي الذي يمسح الذاكرة والإرادة من النظرة الأولى. لقد أراد أن يفعل ويكتب شيئا مختلفا، أن يضع الصورة ونقيضها فيصف أصابعه وهو يوقع قرارا بإعدام أعز أصدقائه، ثم ينفجر بالبكاء، لكن الأمور التبست عليه حتى بدا أنه ما من خطأ هناك أو صواب لأن الحقائق تغطت في ذهنه بأكداس من الصور والتشبيهات

والمواقف المجزوءة. في هذا المنعطف بدا بحاجة لعون الآخرين وقد استعصت عليه الكلمات ووعد نفسه بكأس عرق في المقهى وأحاديث مع الشلة تعطيه مفاتيح للكتابة. أخطأ المكان أم أخطأ الزمان، لم يجد أحدا من الشلة في المكان الثابت.. بار الخيام نفسه، وروائح الحمص المسلوق والفول والخيار والعرق والحموضة هي ذاتها، والزاوية التي مسها ضوء الغروب هي ذاتها والكراسي حول الطاولة تدل على الأشكال الغائبة، ولكن ما من أحد، حتى ولا شريف الذي اعتاد أن يأتي قبل الجميع.. فقط رجلان كهلان شبه نائمين على كرسييهما.. ضاع تماما فلا يعرف لأي واحد منهم عنوانا لأنه اعتاد أن يلتقيهم هنا. سيفاجأون بما سيكتبه: يصغي جليل بعينين جاحظتين وسيتدفق اللعاب من حماسة حديثه (اكتمل الكابوس!) وقاسم فنجان النائم في خندقه على حافة الموت قائلا بالوضوح المختصر (خيانه، زيف، أين أنت يا وليد؟)، وياسمين التي وعدها (سأصفي حسابي مع سيرك الدعارة وأعرض نفسي لهم قتيلا) والأهم صديقه سليم بجلسته العتيدة وعينه النصف مغمضة من السكر، سيذكره بما قالاه معا عن الآخرين.. كلهم سيفاجأون (معقول!)..تلبس منطقهم ونطق عنهم (ما هكذا كان الأمر يا وليد؟!) وجاوبهم بعصبية وحشرجة ثم اكتشف أنه لا يجاوب إلا نفسه وليس أصدقاءه الصامتين، لذلك نحاهم بقبضة من يده وبصوت شبه مسموع:

- ليس من حقهم أن يكونوا قضاة علي.

ومع هذه الذاكرة أزاح جزءاً من كرامته ثم علل نفسه بأن ما هو مقدم عليه هو الخطوة السابقة لآخرين لا يقلون عنه يأسا، وربما ينتظرون منه أن يتقدم.

- ليس من حقهم أن يكونوا قضاة علي؟
كان يكرر ومع ذلك فهو ذاهب إليه.

* * *

لم يكن صديقه سليم أفضل حالا رغم عزلته. يفتح الدفتر، ويغلقه ثانية ليؤجل الكابوس للحظات أكثر صفاء، ثم يحث الإنسان المتكور المختفي في داخله: أخرج فالحياة السوية خلف هذا الباب والممر الذي يليها حيث الشارع والسوق وباعة الخضار بانتظارك... ودائما يعاقبه النحس المتجهم الذي يرفض الابتسام على خطيئة أن تنسيه الحياة حقيقة أنه ذاق التفاحة المرة وسمع الشهادات بكاملها وسجلها في دفتره.

لم يكن ذلك الذي سجله كابوسا من صنع مخيلته، فقد جلست الدكتورة أمامه في نفس المكان الذي يقابله الآن فارغا. شربت كثيرا على غير عادتها، وبقيت تناور حتى ساعة متأخرة من الليل حتى أصبح الموضوع أقل وطأة على روحها، ومع ذلك كانت تختنق بصوتها حين تصل إلى لحظة الفعل، فتثبت عيونها على نقطة داخل الغرفة أعلى قليلا من رأسه وهو يستمع ويسجل وتسحب نفسا عميقا ثم:

- يوم عادي، وشمس حادة، حين تركت الجريدة قبيل موعد خروج ابنتي من مدرستها. كنت أفتح باب السيارة وأسمع خطوة خلفي. وقبل أن أرفع رأسي ضمتني من الخلف يد قوية وكتمت الثانية صرختي ونزل على رأسي كيس أسود فانقطعت تماما صور الحياة تاركة للمخيلة الخائفة أن تنسج أوهامها... كبلوا ذراعي إلى الخلف وألقوني في قاع السيارة. قطعت طريقا طويلا بسيارة شديدة السريعة وأنا ملقية في قاعها وقد كبلوا ذراعي إلى الخلف... أول ما فتحت عيني صدمت بغرفة شديدة

الإضاءة، شديدة البياض وعلى جدار يقابلني لوحة على طول الحائط: ماء ماء ماء... وفي الزاوية رجل بنظارة سوداء، وجهه شديد البياض مثل قناع ورأسه مربع مثل صندوق قابلني بابتسامة صبورة مقتصدة:

- خطأ خطأ خطأ... ما كان ينبغي أن يفعلوا ذلك...

بدأ حديثه لي بعد فنجان قهوة مكررا كلمة (دكتورة) بين كلمة وأخرى ممتدحا كتاباتي وثقافتي العالية... إلى آخر هذا الهراء. ودائما كان يكرر عبارة حرام أن تدفن امرأة مثلك في زنزانة، وكان عرضه لي هو أن أوقع ورقة أقول فيها إن شيوعيين ورطوني في توقيع هذه المذكرة وأدين فيها مؤامراتهم ضد البلاد وهي في حالة حرب. وإذا...؟ آنذاك، أشار بأصبعه إلى غرفة أخرى ورجال آخرين، لم يقرأوا كتاباتك، ولا يجيدون الكلام اللطيف الذي نتحدثه الآن...نفس الإسطوانة: يترك المحقق اللطيف مكانه للجلاد حين لا يعود للكلام فائدة.

في غرفة التعذيب الأولى توقف الحديث وغابت الأشياء ثانية تحت عصابة سوداء. راسي مدلى إلى الأسفل وقدماي إلى الأعلى وأكثر من واحد يتناوبون على ضربي بالعصي. أسمع أنفاسهم اللاهثة مع غمغمة حيوانية. لا يعرفون الحديث بالتأكيد لكنهم يعرفون آلية الألم الذي يسببونه لضحاياهم، يعرفون أنه يصل إلى حد الخدر، لذلك يجددون العصي واتجاه الضرب وموقعه ويكسرونه بالماء البارد حتى يستعذب الإنسان لحظات زوال الألم وكأنه منة، ثم يجددون الضرب حتى تصيب العصا القلب والدماغ قبل القدم، ثم يتجدد التحقيق من نقطة اللاجدوى. وهذه المرة كنت بين أربعة محققين في زوايا الغرفة:

- أرأيت، كان ممكنا تجنب كل هذا الألم لو...

- حرام أن توضع امرأة مثقفة مثلك في مكان للقحاب...
- مع ذلك لم تعدمي الفرصة...
- لكن عليك أن تبدأي أنت!
- خذي هذا القلم والورقة!

..وزعوا الأدوار والجمل بينهم بين الأسئلة والتهديد ضدي أنا المعصوبة الملقاة على الأرض في وسط الغرفة. في فترات الصمت بين جولة وأخرى كنت أسمع اصواتا غريبة.. صوت رجل يلهث كحيوان، سكين تشحذ، شيء صلب يشبه الخشب أو العظم الآدمي يتحطم، امرأة تتأوه ورجل يثغو. أردت أن يوقفوا الأصوات، ثم اكتشفت صدفة إنها تنبعث من جهاز تسجيل.

الإذلال، هو الأشد وجعا من الألم. يأخذ حميته من جسد المكبل العاري العاجز عن القيام بأي فعل.... مثلا، مثلا، مثلا.. كانوا يلمسون الأجزاء الحساسة من جسدي بأطراف العصي وكأنه شيء مقرف. يتحدثون عني كعجوز لا تستحق الإغتصاب، لحمها رخو ورائحتها كريهة . ويتحدثون عني كجثة: ألقوها هناك، علقوها، جروها إلى هنا.. بهذا الإذلال المستمر يريدون أن ينزعوا من الإنسان إنسانيته. سيزداد الإذلال كلما زادت قيمة الإنسان، كأن يكون كاتبا، أو دكتورا أو سياسيا. وعندما يحتقر الإنسان نفسه سيحتقر كل ما آمن به. مرة أخذوني، بعد جولة تعذيب، مبلولة مجرحة وأمروني بأن اسير على قدمي المتورمتين في ممر طويل. كنت أسمع على الجانبين أحاديث وتلفونات وحركة نشطة في دائرة حكومية، فيما بدا لي غرفة تقطع الممر شممت عطرا نسائيا أعرفه (كريستيان ديور). هنا امرأة إذن تنقر على الآلة

الطابعة: تتك تتك تك تاتا...توقعت صرخة المرأة حين ترى واحدة مثلها بهذه الحالة، لكن صدقني أن الضرب على الطابعة لم يتوقف ولا لحظة، فالمشهد روتيني في هذا المسلخ البشري،لا يساوي لحظة توقف!

- ما أصعب ما واجهته؟

- الوحشة. فكرة الجلاد هي أن ينفرد بضحيته، في الزنزانة الإنفرادية، مشدودة العينين، وحيدة وعزلاء في بيئة معادية. في واحدة من غرف التعذيب احسست وأنا مشدودة العينين بكائن آخر يجاورني.. لم أره ولم أسمع صوته.. عيون الوحشة الحساسة في كل أنحاء جسدي تلمست هذا الكائن وارتشفت حرارته وسمعت أنفاسه. آنذاك تجرأت ورفعت العصابة للحظة واحدة: إمرأة أخرى مكبلة ومعصوبة على كرسي يجاورني، مجرحة ممزقة الثياب، مائلة بجسد منهك نحو الأرض. لم نتحدث قط خلال يومين من وجودنا معا خوفا من رقابة الجلادين، وجود كائن آخر مثلي لا يعاديني، أعطاني شيئاً من الأمان.

بعدها تتالى خروج أصدقائه من المعتقلات وقد صاروا أشباح أنفسهم. استمع سليم لشهاداتهم دون رغبة منه:

- لم يضربوني ولم يعذبوني لحاجتهم إلي بعد أن عالجت كبيرهم من بارانوياه، إنما فعلوا ماهو أسوأ...

- الأسوأ!؟

- نعم: الصمت.. لأيام طويلة في غرفة غريبة معصوب العينين، وحيدا دون أن يسألني أو يتحدث معي أحد. أعيش على أصغر الأصوات وأقلها أهمية في عالم الصمت والكوابيس. بعد صمت يومين أو ثلاثة سمعت تقليب ورقة: ما من خفقة ريح حركت الورقة.. إذن يوجد

إنســان مـعـي في المكان. لم أسـمع صـوت باب يـفـتـح ولا خطوات رجل يدخل.. أكان موجودا منذ مدة؟ تأهب كل جسدي لصوت إنسان سيقول شيئا عما قرأه بعد تقليب الورقة. تنحنحت وسعلت لأفتح بابا للكلام، لكن أحدا لم يجاوب. رن جرس التلفون طويلا وانتظرت بلهفة أن يدخل إنسان للغرفة ويرفع السماعة ويرد على إنسان آخر في مكان آخر... انتظرت الحديث، لكن سماعة التلفون رفعت وأغلقت دونما كلمة. هذه المرة بدأت أنا الحديث: أنت يامن هنا، أجبني! لم يجب، مع ذلك قررت أن أبدأ الحديث لكائن يناكدني. عرفته باسمي ومهنتي كطبيب نفساني وعن مرضاي ومم يشكون وسألته هو بالذات إن كان يعاني من مرض ما... بعد ساعة من الحديث اكتشفت أنني كنت أحدث نفسي فقط.

استمع يوسف لشهادات أصدقائه الذين جاءوا ليتحدثوا عن الكابوس لكي يخرجوه من داخلهم. استمع رغما عنه، ثم تحرك فضوله لمعرفة حدود قسوة الإنسان، وبدأ يلح على التفاصيل التي بدت للآخرين ثانوية:

-كيف كان صوته حين سألك... حادا كشفرة، أم قويا كمطرقة؟ ما الألم؟ أكان أقسى من الإذلال؟ وأنت على الخشبة، كيف أسعفتك الفكرة؟ غبت عن الوعي، ما الوعي قبل لحظة الغياب ؟...

يختنق ويشهق وهو يستمع متماديا في تعذيب نفسه والآخر ليصل لدقائق اللحظة الفعلية. مثلهم بقي يئن طوال الليل ويستيقظ وهو يصرخ كالمخنوق. وتوقعهم دائما خلفه. لذلك لم يغادر البيت منذ أشهر خائفا من الممر المظلم المؤدي إلى الشارع العام، ففي هذا الممر داهمه خمسة منهم، رأى وجوههم بوضوح يفوق الواقع وحفظ أسماءهم دون أن يقولها مرة، بحركة واحدة قلبوه على ظهره وتكدسوا عليه وراحوا يعضونه من

أصابع يديه، من كتفه، من شحمة أذنه، من غضروف كتفه، من خصيتيه، ومن لسانه، يعضونه بقسوة بالغة دون أن تخرج منه قطرة دم واحدة. وما زال يتلمس صلابة أسنانهم النابتة في عضلات قلبه وفي تلافيف دماغه ولسانه فتوجعه في كل لحظة ومع ذلك يقول له الطبيب: لا أثر لكل ذلك، أنت تتوهم!

لاحقا تراجع الضحايا الذين جلسوا معه ساعات طويلة، فقد شغله الجلاد نفسه.من أية طينة هو؟

لم يشغله المعذبون، إنما المحقق الذي صار يتابعه في أخص لحظاته بالأسئلة:

- ماعلاقتك بهم؟
- مجرد أصدقاء.
- بماذا تحدثتم؟
- باشياء لا علاقة لها بالسياسة.
- معقول؟

-أنت تعرف أني إنسان لا علاقة له بأي حزب، أحلامي واهتماماتي لا تتعدى حدود غرفتي وأوراقي.. هذا هو عالمي...

- ومع ذلك، ستشغلنا. فهذا البلد بالنسبة لنا سفينة في بحر، ولكي نحميها من الغرق ينبغي أن نراقب كل من فيها خوفا من أن يحفر أحدهم بالمسمار الموضع الذي فيه.. حقا إنه موضعه وهو عمل فردي، لكن السفينة بكاملها ستغرق إذا تركناه يحفر.. حتى ولو في قمرته الخاصة أوعلى الورق.

- ماذا تعني؟
- قد تندهش إذا اخبرناك بأننا نعرف ما تكتبه في دفاترك.

- إنها يومياتي!؟

- مع ذلك فهي نمط تفكير، ونحن معنيون بنمط تفكير المواطن.

لم يستطيع سليم الكتابة، فكلما جلس إلى طاولة الكتابة يرى ذاك الرقيب خلفه يتنفس ببطء ويحدق في كل كلمة يضعها على الورقة ويتهجس أصابعه الباردة على الورق. ما من فائدة!

رغم انقطاعه عن شلة المقهى وعزلته داخل البيت لم ينج سليم من وطاة الأحداث، فالحرب أخذت ابنه وتدخل الأحداث بيته الموصد الأبواب رغما عنه. يتسمع ويجمع المشاهد على أمل ان يكتبها ذات يوم، لكن إيقاع الأحداث السريع أنهك ذاكرته ومخيلته. كل واقعة تزيح ما قبلها بقضقضة الإنفجارات التي تهز المدينة. ولذلك بدأ يسجل الأحداث في دفتر يومياته في شكل صور ومقاطع مجزوءة تشبه الكوابيس على أمل أن يكثف هذه الأبخرة فيما بعد إلى سوائل وكلمات، لكنها تكدست وتداخلت حتى ماعاد قادرا على أن يمسك الخيط الذي يربطها. التعذيب الذي طال أقرب الناس إليه حشد المخاوف أمامه (دورك قادم)، لذلك تكرس كل منطقه وعقله لتمويه الحقائق إلى رموز تتلبد في ذهنه وتتداخل على شكل كوابيس عصية حتى على فهمه. وقد ألف هذه كوابيسه الخاصة وتحكمت به. حالما يدخل البيت بعد الغروب بقليل وهو موعد كتابته الثابت ويجلس وحيدا على الأريكة ويشرب كأسه الثاني مستذكرا شهادات الذين التقاهم واحدا واحدا. يترك الورقة فتلج عليه الفكرة. وحين يعجز يكسر حدته على زوجته الصابرة. ما تكاد تبدي حركة، أو تكسر صمت البيت المتوتر بحديث مرح أو نكتة حتى يسفه محاولاتها:

- بايخة! من أين لك كل هذه السفاهة حين تجديني أتعذب هنا؟

تغادره وتبعد نفسها بعمل البيت الرتيب. وما أن يسمع حفيف مكنسة، أو قرقعة صحون في المغسلة حتى تنشد شفته العليا وتظهر لثته العليا صفراء من الحنق وتتقطع الكلمات وهي تصفر بين اسنانه:

- لماذا لا تتركيني لوحدي وتذهبي إلى أهلك، ألا تكفيك كل هذه الإهانات؟

تذهب فيتوسلها:

سانتحر وأتعفن لوحدي في البيت.

تهرب الى غرفة النوم، تغطي نفسها باللحاف وهي تتسمع إليه يدور حولها مبربرا بأقسى الكلمات:

- موتي هناك ولا تريني وجهك القبيح ثانية!

تسمعه يفتح الأبواب ثم يغلقها بعنف (إنه يبحث عن سكين) ثم يقترب منها وهو يدك الأرض بخطواته فيتقلص جسدها بانتظار النصل الذي سيخترق اللحاف إلى لحمها، وحين يتاخر ويطول الصمت تزيح اللحاف بحذر وبطء وتتسمع للصمت فتسمع نحيبه الخافت وهو يلطم رأسه بالجدار:

- أنـا أنـا أنـا.

تشم رائحة لحم محترق فتدرك أنه يطفئ السيكارة بقفا يده.

تود لو يضربها لو يعلقها من يديها لترد عليه، لكنه يفعل ماهو أقسى من كل ذلك: الكلمات، إنها سلاح هذا الجلاد المحب الذي يعذبها بدون رحمة ويلاحقها في كل لحظة متتبعا حركاتها حاسبا كل خطأ لها ويصورها بليدة وسيئة، والأسوأ من كل هذا تدري انه يحبها ولا يستطيع الحياة لحظة واحدة بدونها، بل يعذب نفسه فيلطم راسه بالحائط لأنه يعذبها:

- لا يا لميعة، لست أنت، إنه أنا، أنا الجبان الخائف الذي لا يجرؤ على شتمهم حتى في بيته، أنا المجنون. ألا ترين أنني مجنون تماما، أو على وشك الجنون. إذا ضقت ذرعا بإمكانك أن تتركيني ولن أحقد عليك أبدا.

***

آسف ياسيدي، فأنا نفسي خجل لأني أقف في حضرتك بملابس العمل الرثة واعذرني إذا تعثرت الكلمات في فمي، فقد أنتظرت هذا اللقاء عمرا بكامله. المهم: كما ترى في يدى هذه قنينة حمراء. في هذه القنينة سم حقيقي وفتاك. سترى تاثيره على هذه الشاشة.. هذا الرجل سجين سياسي عمره ٢٩ عاما. طوله متر وخمس وسبعون سنتمتراً، ووزنه ٧٨ كيلوغرام. صورته هذه خلال عمليات الفحص قبل التجربة. متماسك تماما رغم حركة عينيه وهو يتساءل عما سيحدث له... هذه الصورة له في مكان آخر: الزنزانة التي أجريت فيها التجربة. لا ليس هنا.. انتظر سيدي دقيقتين فقط! ها! ها قد بدأ الآن يتحرك. السيانيد الذي نشر في الزنزانة المغلقة بدأ إذن يفعل مفعوله! أنظر كيف يهرش جلده وعينيه مثل مجنون تماما هذا الذي كان ثابتا قبل ساعة فقط. لا يمكن من هنا سماع سعاله الحقيقي. السائل يهرش المواد المخاطية والسائلة في الجسم... توقف الآن ويدأ، كما ترى ينتفض ويتشنج، مثل راقص. إنها رقصة الموت... أربعة خمسة ستة سبعــ... وانتهى... سائل فعال كما ترى سيادتك وقد هزم جيشين متحاربين. هاهاها.. ليس الأمر نكتة ياسيدي. فقد هزم الألمان بهذا السائل القوات الفرنسية على جبهة طولها أربعة أميال في منطقة إيبريه، ثم هزم الألمان أنفسهم بنفس

السائل بسبب تغير حركة الريح التي حملت الغاز السام باتجاهين. رغم فعاليته حين يطلق من مثل هذه القنينة على الهواء، لكنه، واسمح لي بأن أقول أصبح سخيفا ومكلفا، إذا يحتاج الى كميات كبيرة. نصف غرام للمتر المكعب الواحد. ولذلك فهو نافع للأماكن المغلقة مثل الغرفة التي رأيتموها. أما في الفضاءات المفتوحة. إسمح لي ياسيدي: ماء!... يحتاج الأمر لمضخات كبيرة واقنعة للجنود الذين سيرشون السائل. مكلف وثقيل وصعب، والأهم هو أن عنصر المفاجأة مفقود.

لو سألتني يا سيدي سأفضل عليه هذا الموجود في هذه القنينة. همممم! أحب رائحته التي تشبه رائحة تفاح... خليط أعددته بنفسي، هو جهد عمرى لأهديه لك وللوطن... خليط الفوسفوجين والخردل وغاز الأعصاب. سترى بنفسك ما سيحصل لقرية من مائتي شخص. يوم مشمس عادي، درجة حرارة تصل الى ٣٥ درجة فهرنهايت وسرعة الريح بطيئة.. ذلك مهم يا سيدي، فالرطوبة في الجو تضعف تأثير الغاز على السوائل المخزونة في جسم الإنسان وتبعثر الريح السحابة خارج المنطقة المستهدفة. حياة عادية في قرية منسية: امرأة تسجر الخبز في تنور تحت نخلة، عجوز تغزل على دكة البيت، طفل تحت شجرة، شيخ يدفع حماره. أناس سيئو الحظ. تعودوا الحروب على الحدود، لذلك لن تثيرهم طائرة تقصف موقعا على الجبل أو قذيفة مدفعية. لن يعرفوا أبدا أن القذيفة حررت السائل المحبوس في داخلها إلى الهواء المحيط بالقرية. سيواصلون حياتهم. إسمع صوت المهباش! لم يتوقف ولا صوت الأذان. لن يثيرهم غير الرائحة الغريبة.. رائحة تفاح، رائحة عنب، رائحة بصل. هل انتبهوا؟ ولولت المرأة وجرت أطفالها إلى البيت. لكن فات الأوان. فقد بدأت الغازات تفعل فعلها. من المؤسف أنك لن ترى ياسيدي بقية

المشهد، لأن المصور نفسه، لم يكن عارفا، وكان أول من سقط. مع ذلك تأكدت بنفسي من مفعوله: تعرق حاد، تخرش في الأغشية، عمى نسبي، حالة تقيؤ حادة، إسهال، تشنجات عصبية حد الشلل،إنسداد في الأوعية التنفسية حد الإختناق، لكن الأمر لن يدوم طويلا، فالموت سيأتي خلال ساعات.

* * *

محرجا من رثاثته قفز قاسم فنجان إلى داخل السيارة التي توقفت بجانبه. صافحها فقبلته:

- لكم تغيرت؟

فقد فاجأها أولا شعر الجنود القصير ولم تره سابقا إلا بشعر أكرت طويل ومشوش، وبدا وجهه محروقا بالشمس بارز الوجنات صغيرا إزاء ذلك الوجه المكتنز الغاضب.هو أيضا فوجئ بالهالة الزرقاء تحت عينيها:

- لكم كبرت! هل أنت مريضة؟

فردت بحزن ساخر وهي تهز رأسها مؤكدة:

- كبرت يا قاسم كبرت.. كل شيء كبر!

دعته إلى مطعم باذخ فدخل معها محرجا من عدم تناسب ملابسه، وبقي مربكا حين قدم له الجرسون الأنيق كرسيا وجلس وهو يتلفت حوله فاستغربت من ارتباكه وخجله وما عرفته إلا اقتحاميا.

جاء مدير المطعم وانحنى هاما بتقبيل يد ياسمين وقدم زجاجة مرتان ريميه دون أن يسأل ثم أحاطهم الندل وكانت تمازحهم اعتمادا على معرفة قديمة. وقبل أن تقول شيئا امتلأت الطاولة بأنواع السلطات واللحم المقدد. ولم يستطع قاسم فنجان أن يفلت من المقارنة مع ذاك الخندق الذي علق

بمخـيلتـه.وكـان يتـحـسس تراب الخنادق بأسنانه وذلك المرق الذي قطع مسافات طويلة حتى تجمد الدهن ومعجون الطماطم عليه:

- هذا كثير جدا!

قـال وهو يراقب صـفـوف الأطبـاق التـي لا يعـرف أكـثـرها، وتحس ملابس بالمتعة لأنها تبذخ عليه وتدله على أفضل الصحون، وحين تلاحظ ارتباك يده تصب له بنفسها:

- نخب سلامتك!

وامتلأت خياشيمه ببخار المشروب الذي مس صدره بحرارة...

وكـانت تقدم له المشروب بتسـارع لتدفعه إلى أن يغـادر هذا الوجه القاسي الغامض حد الموت ليعود الى ذلك الذي تعرفه المشاكس الغاضب المتـوتر بصـوته الصـاخب الذي لإيأبه بمن حـوله. تذكـرت قـول وليـد عنه (خلف هذا الوقح يوجد الريفي الخجول). شيء ما فيه قد انكسر لا تريد أن تعرفه لكنها تريد أن تتمسك بجذوة النظافة التي تبقت لها. ولذلك كـانت تسـتعـيد اجمل لحظاتها معـه: كـيف علمـها سرقـة أول كـتـاب في حيـاتها وكم كـانت فـرحة بسـرقـة الكتـاب الثـانـي دون مـعـونتـه،استـردت بعضا من نشاط الصبية المغامرة المدهوشة وهي تذكره كيف ساعدته على أن يعبر سياج حديقتها ويدخل البيت وتذكرت مصطفى الأخرس الذي دخل الجـامـعـة وهو في الخـامـسـة والخـمسين، لا رغـبـة في التـعلم كـمـا اعـتـرف، إنما لكي يحـصل على العـلاوة..شـرقت بضـحكتـهـا وهي تقلد طريقتـه في دخـول الصف وجاكـيت الفـصـول الأربعـة التي يرتديهـا على الدوام والطريقة التي يعدل بها نظارته ويغمز حين ينظر لمؤخرات النساء:

-مـرة عرض علي الزواج قلت له مزاحا إنني مخطوبة فمـاذا تتصـور رد فعله؟

لم يجب قاسم إنما اكتفى بابتسامة متشنجة.

- قال لي حسنا هل تساعدينني بالزواج من أختك.

لم تتوقف عن الحديث وهي تمسح دموع الفرح بطرف إصبعها وتفز حين تتوقف قليلا فتلمح هذا الوجه الصلب جامدا مثل قناع الموت، هاربا منها ومنطويا على سر مخيف...

- تتذكر الفراش أبو خليل وكرشه المندلق من بين أزرار جاكيته؟

- ..

- ما مشيت مرة خلفه إلا وسمعته يضرط.

- ما أجمل الأستاذ لوشون! هل هو فعلا شاذ جنسيا كما يشيعون عنه؟

وبين نوبة ضحك وأخرى تنظر خلسة إلى قاسم فنجان باحثة عن ذاك المتوتر العنيف المزدحم بالمفاجآت فيصدمها وجه الكهل المرتبك و تعرف بفراستها أنه ينتظر فرصة ليقول شيئا تخاف أن يعكر صفو روحها. مضى النهار بكامله وهما يتذاكران حتى خفتت حمية الكلام وبدأ الصمت المراوغ فزحف الكرب إلى وجهها (أين ذهب كل هؤلاء، في أية جبهة من جبهات الحرب راحوا؟ لم تبق لها غير هذه الشلة الفاسدة)..

- ما رأيك بالتمشي قليلا على الكورنيش؟ كم أحن إلى تلك الأيام التي نقطع فيها طرق المدينة لساعات دون أن اتعب؟

كان الغروب ساكنا في تلك البقعة المعزولة وتتحرك سعفات النخيل بنعومة وفي وسط النهر تسف النوارس وهي تهبط لتخط الماء بمناقيرها وثمة بيوت مالت بشرفاتها على الماء وبدأت تضيء مصابيحها تباعا.

- إيه؟

قالت ثم صمتت وفي دخيلتها كانت تنتظر أن يقول شيئا أو أن يمد يده ليمسك يدها.. سترتعش كما في أيام صباها وسيغمز بعينه مشاكسا على طريقته القديمة (هيا!) ستتمنع وتطرق خجلا وقد استمرأت هذا الأسلوب الطويل المراوغ الذي يجمع شابين جامعيين... قطعا الكورنيش وبدا من بعيد مرسى الزوارق في الجانب الثاني وبيت الوزير.. للمرة الأولى تراه من موقع كهذا.. ساكنا وديعا لا يكشف عما فيه. وقارنت قاسم بوليد الذي لا يحب أن يصفه إلا ككذاب وسارق كتب ومهلوس. تعبت من وخز الألم لأصابع قدميها وأعلى ساقيها لأنها لم تعتد السير الطويل منذ زمن، مع ذلك فهي مستعدة للسير حتى الصباح.. فجأة لاحت الجزيرة وقد تكومت النوارس فوقها وتذكرت للحظة خاطفة الجثة التي خرجت من الماء بين الوهم والخيال والتفتت إلى قاسم فنجان لتحتمي به فرأت وجهه قد استطال وأنمط عنقه مثل حصان:

- أريد يا ياسمين أن أطلب شيئا يحرجني؟

صعدت وجهها حمرة مفاجئة ومع ذلك دفعت صدرها بامتلاء رياضي والتفتت إليه:

- أؤمر يا قاسم.. شبيك لبيك!

في دخيلتها قدرت حاجة جندي عائد من الجبهات الخطرة لجسد امرأة ومنت نفسها بليلة تشبه الإختراق الأول للبكورة.. عرق وأنفاس لاهثة ورعشة في عضلات الظهر ورجعة صوت أجش وقليل من الخوف.

- سمعت أن لديك علاقات جيدة مع مسؤولين كبار...

تغيرت سحنة وجهها تماما وازورت عيونها من توقع شيء سيئ.

- يعني.. عملي يتطلب لي ذلك...

- أريدك أن تتوسطي لي لينقلوني من الجبهة.

- هل وضعك هناك سيئ؟

قالتها و أدركت على الفور غباء سؤالها.

- سيئ؟! إنه الرعب بعينه! فقد رأيت أفراد سريتي يموتون أمام عيني واحدا واحدا.. أحس دبق دمهم في اصابعي وطعمه المالح في فمي. قبل إجازتي بأسبوع أرسلني القائد لأستطلع الأرض الحرام.. مستنقع مليء بالجثث المبتورة الأطراف وسطحه مغطى بالدم. لا أستطيع أن افلت من صورة الموت تلك حتى وأنا معك هنا.

نظر إلى وجهها فرأى حاجبيها يرتفعان ويتقاربان وقد تقلص وجهها حد الدمامة ثم تداعت على مصطبة وقد برد جسدها...

- كنا نزيح الجثث ونختفي خلفها لنحتمي من رصاص القنص. سأموت من الخوف، إن لم أمت بقذيفة او رصاصة قناص.

وصعد إليهم صوت أطفال يسبحون في هذا النهر الذي غطاه ضباب رمادي غامض. ولاحظ أنها بدأت تضيق بالحديث وتضغط أمعاءها فأراد أن يختم حديثه:

- بإمكانك أن تنقذيني بكلمة !

- أتعتقد أن ذلك ممكن؟

قالتها كأنها تتوسل المستحيل.

- أرجوك أن تستعجلي فبعد غد تنتهي إجازتي وفي الأفق هجوم كبير.

بمقدار ما بدا لها توسله بائسا وضعيفا شعرت باحتقار للعالم الذي يطوقها: إلى هذا الحد يهان العالم النظيف الذي ارتبط بشبابها؟!

مع تصاعد المتفجرات واقترابها منه ترك القائد أعمال الدولة التقليدية: تسلم أوراق السفراء الجدد والجولات على الدوائر، وحضور التجمعات العامة وزيارات الجبهة وتفقد الجنود وتوزيع النياشين، ترك كل ذلك لمساعديه و للوزراء، وكرس كل وقته للأمور الأمنية.

مع يعقوب ينزل و يتجول بخطوات وئيدة بين الأروقة والسراديب الواطئة السقوف ليتصفح أعداءه.. رؤوسهم مطرقة وعيونهم معصوبة وأيديهم مكبلة إلى الخلف، عراة على الكراسي وسط بقع الضوء في غرف التعذيب، مرميون على وجوههم في زنزانات انفرادية كالحفر، معلقون من أيديهم في سقوف الغرف، منبطحون على بطونهم وقد حشرت الخوازيق في مؤخراتهم، غاطسون حتى الرقبة في براميل الغائط، مجرحون ملأت الكدمات أجسادهم، يصرخون أو يئنون بعد أن أتعبهم الصراخ أو يتوسلون جلاديهم أن يطلقوا النار.. يمسحهم، وهو يتجول بين الغرف ممسكا عصاه المهتزة خلفه، بنظرة جانبية تجمع القرف والتعالي.

يفتح زنزانة سجين لا على التعيين ويبشره بصوت فرح طليق:

- انتهى كل شيْء، أنت الآن حر!

ويفتح الحراس قيوده وعصابة عينه ويحملون الجسد المنهك بصعوبة من تحت أبطيه ويضعوه على السدة الترابية المؤدية إلى رحابة المدينة.

يتوقف السجين لحظات غير مصدق، وقد خذلته الخطوات الأولى من وهن ساقيه فيصرخ فيه الحرس..

- أركض!

وحالما يحرك ساقيه يطلق وهاب النار من نافذة الطابق الثاني. ثم ينزل السلالم محاطا بحمايته ملتفتا إلى يعقوب بجانبه وهو يربت على أخمص البندقية مبتهجا:

- صدق أنني لم أهدف عليه! هو الذي دخل دائرة التسديد راكضا!

يربت على أخمص البندقية:

- أحببتها.

يتردد صوته و وقع الجزمات وصليل المفاتيح في الممرات الطويلة فتنغلق مزاغل الزنازين وتختفي في الظلمة عيون المساجين التي أرادت أن تستطلع من ثقوبها ما يحدث وتنطفئ آخر الهمسات.

لقد جاء اليوم موعودا بمفاجأة غير سارة . ففي نهاية الجولة أخذه يعقوب إلى غرفة عارية ليس فيها غير كرسيين أمام تلفزيون. وضع شريطا في جهاز الفيديو:

- أنت سيد النابهين ولا بد أن يستوقفك اللغز في هذه المشاهد!

انحنى وهاب حتى كاد وجهه يمس شاشة التلفزيون. في البداية كان مشغولا بصورته وهو يترجل من السيارة مقتصدا بابتسامته مقلصا عينيه من ضوء الشمس الحاد. لم تعجبه حركته وهو يجر خصيتيه من بنطلونه ثم يسير بخطوات بطيئة طويلة:

- لغز في هذه المشاهد بين الجمهور والحماية.

هناك ثغرة في الطوق تزيد عن خمسة أمتار، يمكن أن ينسل منها قاتله! تفحص وهاب الوجوه التي يوشك أن يعرفها لكثرة ما تكررت أمامه في زياراته.

- لا تقل لي إنه موجود بينهم!

- بلى يا سيدي، في مكان ما خلف الصف الأول.

- مستحيل!

- أترى هذا المصفق الواقف على مبعدة خطوة واحدة من حارسكم الشخصي ؟

أبطأ يعقوب من سرعة الشريط فقرب وهاب وجهه أكثر وبدا له الرجل أكثر المصطفين حماسة، يزيح الآخرين بمنكبه ليقترب بينما حارسه الشخصي مجيد ذاهل غير منتبه له. وقد شغل وهاب بوجه الرجل المتوهج بالحماسة والخوف معا.

- سأريك هذا الرجل بعظمه، و بما تبقى من لحمه!

- أنت تعرفه جيدا يا سيدي.

- أين رأيته، أين؟

- يا إلهي، هذا حارسي الشخصي؟!

- تماما يا سيدي. لك ذاكرة لا تخطئ. من المفترض أن يكون خلفك تماما يوم الأربعاء القادم...

- أنـــا ؟

- أصبت يا سيدي، أنت هدفه وساعة الصفر هي صلاتك يوم العيد في جامع الدولة.

- كيف عرفتم الخطة؟

- بدأ الأمر من تذمر، لأن من بين أهل القرية التي أمرت بمحوها من الوجود أمه وأولاد عمه. لم يقل ذلك لأحد، كان يخفي تذمره تحت قناع من الطاعة المطلقة. من التذمر بدأت النية، وتحولت إلى ضغائن تتغذى من نفسها وتكبر حتى تتحول إلى خطة . قبل أن تتحول إلى خطة. أرسلنا من يحول النية إلى فعل.

- هل اعترفوا ؟

- كيف يمكنهم أن ينكروا.. قائدهم ضابط عندنا يرتدي جبة وعمامة رجل دين!

في غرفة عارية خافتة الإضاءة على بعد درجتين تحت المكتب الذي كانا فيه كشفت دائرة الضوء المسقطة من السقف كتلة آدمية تنتفض بحركات عصبية مع صرخات متواترة، وحين اقترب وهاب ويعقوب انفرجت الكتلة بتنحي المعذبين جانبا ليظهر على المصطبة رجل غابت ملامحه تماما من الألم وبدت أصابعه الدامية ترتعش مثل جناحي طائر ذبيح، اقترب وهاب منه ليتأكد من وجه يعرفه تحت الكدمات الزرق وخثر الدم. وقرب أذنه ليستمع إليه وهو يتحدث بصوت متقطع، ولكن مسموع :

- كان علينا أن نضع المتفجرات داخل تابوت. وستمر الجنازة بالضبط في لحظة مرور الموكب.. إذا توقف الموكب سنضع التابوت في الطريق لنفجره، وإذا مر الموكب سنبدأ المرحلة الثانية داخل الجامع. مهمتي هي إطلاق الرصاصة الأولى والثانية، فينهض أفراد الجماعة لتناول رشاشاتهم المخبأة مسبقا تحت السجاد والمنبر.

للحظة أهتز وهاب، وهو يتخيل أن ما سيحدث قد حدث: محاصر على سجادة الصلاة محاطا بفوهات البنادق الرشاشة و الرمانات اليدوية تتفجر حوله.. لم يكن الموت هو الذي يخيفه، بل أن يخرج من الحادث بعاهات مستديمة وسيقابل حيثما ذهب بشماتة المترصدين..

- كان ممكنا إذن!

قالها بصوت هامس و دار وهاب حوله ماطا قامته ناظرا بقرف لهذه الجثة الرثة تحته ثم التفت إلى المحققين بنفس نظرة القرف المتعالية:

- متى اعترف!

- الآن.

شيء في داخله لم يتقبل المشهد كما عرض أمامه.. ومع ذلك وضع فوهة المسدس لصق صدغ الرجل فتقلص وجهه وارتعشت شفتاه :

- كيف بالضبط ستطلقون النار، هكذا مثلا!

واستدار بوجهه نحو البقية مثبتا نظرته عند يعقوب بالتحديد ثم أطلق رصاصة واحدة. وشعر، وهو يردي رجلا بضغطة خفيفة على الزناد، بالعظمة والحيوية والرصانة والجلد ثم جر خصيتيه من بنطلونه وقد انتفختا من الجذل، فكل هؤلاء الذين تآمروا عليه لا يملكون غير الحسد والريبة والفزع، وقد حولهم العقاب إلى جثث شاحبة تنتظر الموت على يديه، بينما يجد إلى جانبه جلال الحكم وحماية الرجال الطيعين المستعدين لأن يفعلوا كل شيء من أجله.

* * *

لا يعرف قاسم فنجان السبب الذي دفعه للمجيء إلى الجبهة في نهاية إجازته..خوفه قبل شجاعته حملاه لأن يحزم حقيبته ويأتي مخالفا

نصيحة رفاق خندقه. علل نفسه بتحية وداع لرفاق الخندق، الرسائل التي حملها لهم من عائلاتهم، إقناع الضابط بتمديد إجازته، وضع اللمسة الأخيرة لقصيدته (وداعا للخيمة المبتلة المقوضة والخبز المغموس في الوحل)...

حين وصل لم يجد الفرح بعودته، إنما الوجوم الذي يرافق الإنذار جيم. فالكل نائم في الخندق بصمت مع خط الذخيرة الثالث استعدادا للهجوم الكبير...

حالما نزل إلى الخندق سأله سعيد مردان وهو يلف سيجارته ببطء ويغلي شايه على بضع حطبات:

-عدت؟

سأله بين اللوم والإقرار بقدر، وأعطاه موضعا وسكت دون أن يسأله عن أخبار الأهل. ولم يسأله قاسم عما حدث، فكل شيء واضح أمامه: حركة الضباط وهم يركضون بين الخنادق ممسكين خوذهم على رؤوسهم، تململ الآليات في حركة دائرية تبدو بلا غاية، المدافع التي نفضت عنها أغطيتها ونقل صناديق الذخيرة من الخطوط الخلفية...حتى رفاقه في الخندق تغيرت سحناتهم، فقد شحبت وجوههم واستطالت واكتست بغبار رمادي. ما أن وضع قاسم فنجان الخوذة على رأسه حتى أفلتت منه أفكاره.. الحياة التي غادرها لغباء متأصل فيه داهمته بصور سريعة ومبعثرة:المغاسل الشديدة البياض في المطعم الباذخ الذي دعته إليه ياسمين، اليد الناعمة الرخية التي مسحت عرق الخجل عنه والعطر الذي نفذ إلى قلبه، خفقة الريح وخصلة الشعر الفالتة حين جلسا على المصطبة

المعزولة على النهر (ليتها تستعجل الوساطة قبل أن...).. قالها بصوت شبه مسموع وهو يرى الظلام يزحف من وراء الصخور الجرانيتية ليغطي المسطحات الملحية بضباب ثقيل.

حتى الساعات الأخيرة من الليل لم يحدث شيء سوى أن الحرس الأخير رأى ثلاث رصاصات خلبية مذنبة من شرق الصخور البركانية ولم يعرف مغزاها فبلغ الضابط

المناوب. مع ذلك لم يكف قاسم عن التحديق في الأفق المقابل وقد علقت حواسه بهذا النهر الأسود الذي يفصل الأحياء عن الأموات ويتواجه عنده القاتل والقتيل.. في هذه الهدنة التي تسبق الهجوم لم تنقطع أسئلته المتتالية السريعة:

- ماذا هناك؟

- ما الذي يبيتونه عند تلك الشعاب الحجرية التي تلي النهر الأسود؟

- ماذا تقول هذه الرصاصات الخلبية الثلاث؟

- لم قذيفة التنوير هذه؟

- الله أعلم.

يجيب سعيد مردان وهو يغلي شايه على الجمر ويلف سيجارته بأناة، فبعد كل الحروب التي عاشها بدا وكأنه يعيش الأيام الفائضة من عمره وأصبح الموت بالنسبة له تحصيل حاصل وسلم له وتحرر من مخاوفه وعاش كل لحظة وكأنها صدفة. المشاهد المحيطة لم تشغله.. إنها الديكور الثابت والممل للحروب التي استغرقت كل سنوات شبابه. شاغله

هناك: أمه وقد فرغت توا من الصلاة وبدأت تقلب وجهها بالدعاء، يشم رائحة خبز تنور كلما تذكرها ويلوح له وجهها من الجانب، بتجاعيده الطولية وأنها الضخم الخشن فوق كتل من لحم مطوية.. أمامه تبدو الآن مجسدة أكثر من هؤلاء الجنود الصاخبين حوله والجرحى المكدسين على الأرض وهذه التوابيت التي تخفق فوق، وتبدو زوجته منكبة تتنفس بتسارع وتتوقد عيناها بلمعان نشط حالما يناديها:

- زينـ......

شيء يشبه الوحل الأخضر علق بيده حين دق الباب ففتحت زوجته الباب بتباطؤ وهي تتثاءب غير دارية بالبيت الذي يحترق. ثيابه كانت مبعثرة في كل مكان و صوت جارح (حريــق!) ولا أحد يهتم، فبنفس الخطوات المتكاسلة وضعت زوجته صينية الطعام أمامه وليس فيها غير طاسة ماء. لم يكن غاضبا ولا مستغربا حين بدأ يغمس خبزته في الماء، فقد تقبل الأمور التي رتبت في غيابه كأنها بداهات قديمة.

- أين هو العدو؟

- هل سيهاجمون أم نحن سنبدأ؟

أسئلة وأسئلة يطرحها قاسم فنجان ولا أحد يعرف بالضبط الجواب. لذلك يبقى الانتظار مشحونا بالوساوس والأصوات الهامسة المتآمرة والطعنات المبيتة في الظلمة. يلوب قاسم من هذا الانتظار الأشد تعذيبا من الموت. يريد أن يفلت من الخنادق ومن مخاوفه ليقفز إلى هذا المجهول ليختصر زمن الانتظار المقيت وليقطع الآن هذا الخط الذي لا بد أن يقطعه عاجلا أو آجلا ليعرف ماذا يوجد هناك وراء تلك الشعاب المرجانية وهو يعرف ماذا يوجد بالضبط: لا شيء غير الموت.

* * *

- كيف نسيته يا حقيرة؟!

تردد ياسمين لوحدها بصوت مسموع وهي تنظر لنفسها في المرآة بسخط فترى نفسها بثوب السهرة الرماني وقد تبدد أحمر الشفاه في لطخات مسحوبة على وجهها من فرط ما مسحته بظاهر يدها وانتفش شعرها من كثرة ما ملخته وهي تجهش بالبكاء مرددة نفس العبارة:

- نسيته يا حقيرة؟!

وتبصق على نفسها في المرآة وتتذكر، كأنما توغل في تعذيب نفسها لأنها، حين كان قاسم يلوب تحت القصف باحثا عن حفرة، كانت تستمع للكلمات الوقحة التي همسها في أذنها المذيع التلفزيوني:

- قضيبي ما زال مسلوخا منذ الجمعة الماضية.

وكان الوزير يتعثر بخطواته على مبعدة متر منها دون أن تتذكر وجه قاسم فنجان المتوسل حين قال لها: الهجوم قريب. أرجوك أن تستعجلي!

سكرانة كانت وخذلها صوتها حين أوشكت أن تغني لازمتها في كل حفل (لسه فاكر) حين لمحت مجموعة من المدعوين حول جهاز التلفزيون وسمعت كلمة (فظيع). وحين اقتربت من التلفزيون مخطوفة من الفزع:

- بدأ الهجوم!

وفي لمحة خاطفة رأت جنودا يخوضون في الماء وقد حملوا البنادق فوق رؤوسهم فتقلصت أصابعها على الكأس بيدها: في واحدة من الشاحنات خيل إليها وجه قاسم فنجان وقد استدار بوجهه نحوها بنظرة متوسلة (أرجوك لا تنسيني!) شهقت وركضت إلى الحمام وبدأت

تستفرغ في المغسلة وهي تبكي وتنظر إلى وجهها المنتفخ في المرآة (كيف نسيته يا حقيرة!؟) وقد تخيلت أنها ستستقبله مقعدا مبتور الساقين ينظر إليها بلوم أو ممدد على نقالة إسعاف نزف كل دمه (هذا القوي كثور). طويلا بكت حين عادت إلى البيت ولطمت وجهها بقوة وهي تقرأ رسالته الأخيرة ((صورتك معلقة أمامي على جدار الخندق...تبتسمين مثل طفلة ضيق عينيها شعاع شمس حاد. غريبة هنا وتائهة بين الخوذ المبعثرة وشظايا القذائف المنشارية التي أخطأت أجسادنا. أحدق فيها طويلا حين يشتد القصف أريد أن أنكر الموت حولي، وأنكرها حين تعيدني قذيفة قريبة فأنكر عالما سويا كنت أنت فيه حية بجانبي))..شفت روحها من الحزن وهي تستجلي عالما طيبا ونظيفا كان يمت لها. تذكرت كيف تحايلت على هذا الطفل الفظ حين امتدحت جرأته وهو يصف أثداء أمه المتدلية في واحدة من قصائده، وكيف قبلت دعوته لترك مكتبها والخروج معه إلى المدينة. تذكرت اليد العرقانة الحارة المرتعشة التي امتدت لتمسك يدها في ظلمة السينما والقبلة العصبية القاسية لرجل انتظر ثم باغتها في مدخل البيت وصلابة عضوه وهو يندفع من وراء ثيابها ثم كيف روضته بالصبر والحديث ليكون ارق معها في الفراش. وبالكاد تذكرت تلك الشابة القصيرة الشعر مثل صبي ببنطلون كاوبوي وقميص أبيض تسير ساعات طويلة في شوارع المدينة وأزقتها مع هذا المعجب المفلس المجنون الذي يملأ رأسها بأخيلة وأكاذيب غريبة وجميلة عن الحصان الذي يصهل في داخله (ههههههه.....!) كلما اقترب منها ونام معها في الفراش وكيف أن والده يضاجع أمه دون

أن تنزع ثوبها الملطخ بعجين الخبز. وكانت تستمع إليه وترفع حاجبيها مدهوشة أو تكتم ضحكتها بقفا يدها.. وكما في السحر المخدر كان يجرها معه من عالمها الأرستقراطي إلى عالم الكتب الساحر والأديبات المتمردات، فذهبت معه بدافع الدعابة والتحرر إلى مطاعم شعبية لا ترتادها النساء والى سباق الخيل ومباراة لكرة القدم، بل اجتازت معه شارع البغايا متسمعة للكلمات النابية للواقفات عند الأبواب وقد رفعن ثيابهن حتى الخاصرة.. بقليل من الخوف والتردد ذهبت إلى حافة الخطر، وهي تدري أنها لن تذهب حتى النهاية، بل ستعود في النهاية إلى بيتها بخطى وئيدة، مطرقة تقضم شفتيها وتبتسم لنفسها منفصلة عن الشوارع المظلمة حولها وعن الدوريات المسلحة التي تجوب الشوارع وعن صفير المشاكسين وكلماتهم البذيئة، غارقة في العالم السري الذي كونته لنفسها لتعيش فيه، عالم خلقته من أحاديث وغرائب هذا المعجب المجنون، وتدخل البيت وهي ما تزال سجينة ذاكرتها الغانية وحرارة قلبها التي تنزل وئيدا نحو بطنها كل ذلك بدا لها الآن ساذجا و طفوليا كأنه يمت لزمن طفولتها وليس لسنوات خلت! وشعرت بشوق وحاجة إليه.

استمرأت شفافية هذا الحزن الشبيه بالضحك، وردت على مكالمات الذين دعوها، بأنها مريضة ولا تريد أن تغادر فراشها.. شربت نصف زجاجة ويسكي وشعرت بالحموضة تملأ فمها. الساعة الثالثة والنصف موعد عودتها من السهرة. أفكار متناثرة تجرفها وتهرب منها تتعلق بمصير هذا الرجل الخائف من موت وشيك..يجرها من مكان إلى آخر على أرض غرينية وعرة، وأحيانا يدفعها أمامه ممددة على الأرض كجثة، ولكن خجلة

من عريها أمام رجال تعرفهم حتى دون أن ترى وجوههم، غافلون عنها وقد أداروا وجوههم إلى جدران توشك أن تنهار غير عابئين بالحريق الذي يأكل كل شيء: العشب النابت على الروابي، ستائر البيوت على النهر، محلات الملابس الفاخرة، الزوارق المتمايلة الراسية قرب حرج القصب، أجنحة النوارس التي هبطت بحدة نحو الماء... وكان قاسم فنجان يجرها من قدميها على أرض قاسية مترية يدفعها أمامه أحياناً، باحثا عن مكان يضاجعها فيه وقد التهب جسدها بحرارة تجمع اللذة والألم...

حين استيقظت من النوم، وقد غمر جبينها عرق بارد وصدرها يدق بقوة، بدا لها الحلم بشيرا بشيء سيئ لا تريد الاقتراب منه أو سماعه. وفي تلك الساعة المتأخرة من الليل أرادت أن تتحدث مع كائن ما عنه: ما من واحد غيره (كانت قد قرأت قصيدة الاعتذار لقاسم فنجان التي نشرها في الجريدة وبدت لها كأنها وداع قتيل). السكر الذي يدور رأسها والحزن الشفيق الذي هيمن عليها دفعها لأن تزيح كبرياءها وهي تبكي بحرقة وحيدة في فراشها ومدت يدها إلى التلفون ودون تردد دورت رقم تلفونه، بعد وقت طويل، وقبل أن تيأس وتضع السماعة سمعت صوتا عميقا مرتجفا كأنه يأتي من بئر، إنه صوته هو (وليد):

-...

- إنني خائفة يا وليد...

-...

وأجهشت بالبكاء دون أن يرد الطرف الآخر.

- خائفة على قاسم فنجان.

-...

-رأيت حلما فظيعا عنه.

-...

- أنت أيضا؟ يا إلهي!

* * *

كيف قفز قاسم فنجان فجأة من تراب خندقه وأزاح الستائر بطرف إصبعه مثل روح قتيل خلال سهرة أمس لينغص كلماته ولحظات الوهم النادرة ؟ في البداية استحضره وليد موضوعا قصصيا وألقاه في هذا المحفل داخلا الباب بهوج عنيف.. أقدام الراقصين وضحكة عارضة الأزياء التي بقيت عالقة في هواء الصالة وكأس نبيذ تبدد على السجادة التي دارت زهورها بسرعة دوامة حول نقطة دم. أراد أن يتتبع ردود أفعال كل واحد من هذه الدمى على هذه المباغتة الفاجعة، لكن قاسم فنجان ترك الكل، حتى دون أن يلتفت لمن صدمهم، واتجه إليه بالتحديد واقفا خلف كتفه الأيمن على مبعدة ذراعين يراقبه بصمت متوتر كابتا صرخته (أين أنت يا وليد؟)

لاحقه هذا الشبح المدمى وهو في عز حديث صاخب مع النساء:

- هو الذي طلب تلحين قصيدتي، وقال إن المغنية طلبت منه هذه القصيدة بالذات لتغنيها في ختام الحفل.

شبح شاحب يزيح الستائر ويخطو على السجاد عابرا الجميع، يترك الجميع دون أن يلتفت لملابسه العسكرية ولا للدم المتجمد عليها، ويتجه إليه بالذات كلما أوشك على أن يندمج في كذبته بحيث يلين وينعم صوته:

- أنا ؟ أكتب حين ينام الناس...

فيطل عليه من خلف باب نصف موارب لغرفة مظلمة، أو ينتصب فجأة في الضوء الفاتر المزرق وسط عريشة الياسمين. يغص وليد بحرف الصاد... لماذا يأتيه كثيرا هذه الأيام مثقلا مخيلته مقلقا لحظات صفوه؟

ويأتيه في لحظة صمت غريبة، وقد خرج توا من الحمام بعد أن غسل وجهه، فلمعت بين عينيه نجمة قاسية الشعاع ويتنبه إلى الثريات تبث في الصالة ضوءاً حادا ومتكسرا له حواف ملونة: ضوءاً يزيد بياض الوجوه النظيفة ورنين الأساور الخافت وهذا العطر المدوخ وحفيف الفساتين للناس الذين يقرقرون كلماتهم الفارغة دون انفعال. يندهش ويسخط (كيف يمكنهم أن ينسوا أن هناك أناسا ينزفون حتى الموت ويصرخون متوسلين من يطلق عليه رصاصة الرحمة)؟ هذا الوهم وبالأصح التوهم يبدو أكثر عريا مثل مسرحية تتكرر في مرايا... يندهش حد الفزع وهو يرد سؤالاً لقاسم فنجان (حقا.. ما الذي جاء بي إلى هذا المكان!). فيزيحه وليد ويواصل الحديث مع عارضة الأزياء:

- أنا ؟أبدا أبدا أبدا.. لقد قطعت التدخين والنساء بناء على نصيحة الطبيب.

آنذاك وهو مندمج وقد قوس كتفيه يحس بنقرة خفيفة على كتفه ويرى وجها جامدا مثل قناع (أين أنت يا وليد؟) فترتعش غمازتاه ويغص بجرعة النبيذ.

* * *

مد صباح الهجوم جناحيه على طول السواتر الترابية وكنست الريح السريعة غيوما بنفسجية فبان الجنود في الخنادق شيئا فشيئا مع ضوء الصباح الأول أشباح مخضرة مزروعة على طول الخنادق. قبيل الهجوم بدأ اللواء محمد العباسي جولته الأخيرة متفقدا مواقعه بلفتة جانبية، سائرا بخطوات وئيدة فوق تلال المراقبة، بين الآليات المدفونة تحت الأرض، تحت سبطانات المدافع التي رفعت أغطيتها، قافزا داخل الحفر والخنادق التي تمترس فيها الجنود استعدادا للهجوم ورؤوسهم ملتصقة بأكياس الرمل وقد تحفزت كل عضلة فيهم والأصابع على الزناد.. خلال ذلك لن يتحدث مع الجنود إلا بلهجة آمرة شديدة، الاختصار، فيشير بطرف عصاه لواحد منهم بأن يعيد ربط حذائه:

- من ينسى ربط حذائه يمكن أن ينسى إحكام شاجور بندقيته.

ويمرر حافة ورقة على ذقن آخر ليسمع احتكاك الشعيرات النابتة:

- ليست هذه هيئة رجل سيموت بعد قليل.
- ما هذه القلادة؟
- هدية من خطيبتي.
- انزعها وعلق قرص الهوية مكانها!
- إنذار جيم! حراسة مشددة! جاهزية قتال!

لا يسمح بكثير من الكلام غير مفردات الطاعة:

- جاهز، أمرك سيدي!

الجنود والضباط بدورهم تحاشوه بسبب طبيعته المتجهمة النادرة الابتسام وتعبير القرف الذي يلازمه خلال المعارك كمن شم خراء. لكن

أحدا لم يحقد عليه لأنه لم يكن كبقية القادة الذين يفضلون المسكن الجيد والمكان اللائق والطعام المميز حتى في ساحة المعركة.. على العكس ينام اللواء العباسي في حفرة لا تميزها غير طاولة وبضعة براميل وجهاز إرسال، وينجز أعماله ويتناول طعامه على أية صخرة أو متراس قريبا من موقع العمل. يعمل أكثر الجميع وينام أقلهم ليحق له أن يتذمر أكثر شاتما أقرب الناس إليه أو ناظرا إليهم بوجه غضوب متذمر من كثرة المشاغل وقلة ما لديه. خلال المعارك الأخيرة قاد الهجوم وهو محمول على نقالة إسعاف لأنه لم يشف بعد من عملية الزائدة الدودية . يحب الجنود صراحته الفجة لأنه لا يهون المعركة ولا يعدهم بنصر سهل كما يفعل البقية، إنما يقولها بوضوح:

- هذه معركة كسر عظم!
- أريد كتيبة نصفها موتى!
- جهزوا توابيت لمائة قتيل!

بعد تفقد المواقع صعد اللواء محمد العباسي إلى موقع المراقبة شابكا يديه خلف ظهره مؤرجحا عصاه، تلتوي أمعاؤه فيغالب القلق بمزيد من الأوامر في هذه اللحظات التي تسبق الهجوم حيث ستدوي المدافع المنتشرة على طول خط المواجهة، ثم تقفز هذه الطوابير الساكنة من حفرها صارخة هائجة بإشارة واحدة من يده. وضع جزمته على أكياس الرمل وكوعه على ركبته وبدأ يراقب ساحة المعركة برهبة منضبطة فتتحرك بقع الطبيعة مع الناظور.. الثلوج الصقيلة التي تكلل قمم الجبال تحتها الشعاب البركانية ثم الأرض الجرداء التي تليها. ومن جانبه

القـريب تتالت سـدود التراب التي تـختـفي خلفـها الدبابات القابعـة في حفـرها مـثل حـيوانـات خرافـيـة. وفي الوسط هذا الجـدول الذي ينسـاب بهدوء مرسلا أول لمعات الضوء. خلف ذلك الجدول تبدأ أحراش القصب ثم سلسلة من الشـقـوق الطوليـة الممـتـدة على طول الأفق وبعـدها تبـدأ الشـعـاب الحـجرية ، لا يرى بالناظور عـلامـة واضـحـة تدل على وجـود العدو. فـقط تضاريس مـتشـابهة رمادية مـتتـاليـة لا يمكن تمييـزها عن الصخور. للحظات استوقفه بغل ضال أقلقتـه أول القذائف فراح يدور حول نفسه داخل الأرض الحرام.

قـصف جنوني سبق الهـجوم بلحظات..ثم ظهـر من حـافـة المنحدر القريـبة أول الطوابيـر المعـادية. في شـواش الفجر الأول وسـحـابة الغـبار بالكاد رأى اللواء العبـاسي بالناظور الكتلة المتحركة التي تصعـد من عـمق المنحدر. تقدمـوا باطراد في نسق على شـكل طوابيـر عـرضية عبـر الأرض الحـرام. وحين اقـتربوا من حقـول الألغـام بانت هيئـاتهم: شبـان بسراويل عسكرية رثة وقد لبسوا أكفانا بيضـاء فوق بدلاتهم العـسكرية وشدوا رؤوسهم بعصائب سود ، وكان قائدهم يسير أمـامهم موليـا ظهره للجبهة ليلوح لمقاتليه فيرددون النداء خلفه:

- يا الله، يا الله، يا الله...!

اللواء محـمد العبـاسي عض شفته وهو يستـحثهم للتـقدم نحو حقول الألغام. ممتلئا بنفسه وهذه السلطة المتركزة الآن في ذراعه الأيسـر المرفوع إلى الأعلى آمـرا بوقف النار. صـورة الموت الذي سيـداهم هذه الطوابيـر

ماثلة تماما أمام عينيه مع أنه لا يكرههم أبدا. ستتفتت هذه الطوابير المشدودة حالما ينزل يده.ولكن عليه قبل ذلك أن يقطر صبره وفقا لخطته التي تقوم على امتصاص هذه الهجمات الانتحارية على التوالي ثم يعطي إيعازه بالهجوم. قبل ذلك كان يحسب الوقت بدقات قلبه وقد توافق مع دقات قلب جيش كامل من الأشباح الرمادية يكتم الآن أنفاسه بانتظار الهجوم.

- تتتتتت...

التفت اللواء العباسي بسخط إلى مصدر هذه الصلية الفالتة وأشار بيده لوقف النار حتى يدخلوا حقول الألغام. توقف سير الطابور لحظات واختل النسق قليلا، ثم التمت الكتلة ثانية وقد تسارعت الخطوات حين اقتربت من حقل الألغام، ومعها تسارع الهتاف:

- يا الله، يا الله، يا الله !

واستمر قائد المجموعة سائرا إلى الخلف رافعا يديه المضمومتين وهو يستحثهم رافعا الهتاف:

- الله، الله، الله...

- بم بم بم!

انفجرت أول الألغام فتطاير من الأرض شلال من التراب وانقذفت ساق دارت دورة في الهواء، وغرق المتقدمون في سحابة كثيفة من الدخان والغبار، ثم انكشف المشهد ثانية عن جسد مبتور الأطراف يزحف محاولا اللحاق بالطابور الذي تجمع ثانية ووسع خطواته حد الركض لاختصار المسافة التي تفصلهم عن الموت.

بانت لأول مرة سحنات المتقدمين وقد أنشدت وابيضت وجوههم تماما كأقنعة الموتى:

-أجمل شهداء رأيتهم في حياتي!

قال لأقرب مساعديه وهو يعض ابتسامته..

* * *

الخطة واضحة في ذهنه يا سيدي الرئيس، لم يدونها على ورق ولم يقلها لأحد، حتى لأقرب الجنود إليه، لكنها كانت في خياله تماما، هذا المتذمر الذي لا يكف عن الشكوى من تضارب القرارات والتدخل في عمله العسكري و استخدام السلاح الكيمياوي دون علمه ودون حساب احتمالات تغير الريح. يريد أن يطيل الحرب ليبقي قطعاته بعيدة عنا وتحت إمرته حتى يمرر ما بذهنه. الكل، يا سيدي، خدع بنواياه في الليلة التي تلت تقليده وسام البطولة، فقد دعا كل المراتب العليا، بمن فيهم أقربهم إليك، لحفلة شواء في حديقة بيته ليثبت للجميع إنه هنا، في المكان المفتوح وليس هناك في الغرفة السرية المسدلة الستائر. الجميع كانوا غافلين وهم يتجولون في أبواب البيت المفتوحة على مصاريعها، متفرجين على صور الدورات العسكرية.. كل واحد يبحث عن نفسه بين صفوف الضباط الواقفين أمام الكاميرا . سيريهم خوذته المثقوبة والرصاصة التي أخطأته.. صاخب ساخر، فرح بعودته منتصرا مع وسام رفيع (انتصار أسوأ من هزيمة). يتحدث عن كل شيء، دون أن يذكر اسمك بالخير ولا بالشر، فجميع من حكموا الدولة سواسية لديه، كما يوحي. هو الوحيد الذي لا يطمع بالسلطة والوحيد من زملائه الذي بقي محافظا على حياته ونجماته. لم يقل شيئا بالتحديد ولم يحدد بالاسم

المعني بتضارب القرارات. فقد تحدث ليلتها عن كل شيء: آخر النكات التي تمس الله وملائكته وعيدي أمين دادا، يتحدث عن مفارقات عمله كملحق عسكري في السلك الدبلوماسي، ولقائه مع الجنرال جياب و ماكنمارا و فرانكو، و أمسيات النادي العسكري، والمعارك التي خاضها. لن يقول، حتى ولا لزوجته، كلمة واحدة عن تحرك الغد. كل الضباط حوله يعرفون القصد والمعني ويعرفون ما يجري في ذهنه، لكن لن يسألوه أبدا عن الموعد. حتى لو سألوه سيجيبهم ساخرا: كرسي الدولة بحاجة للمسة كتف، ولكني لن أفعل ذلك، لأن مؤخرتي تنفر من كراسي القطيفة وتفضل عليها مقعد دبابة. لن يسألوه، لكن لديهم كل الاستعداد لارتكاب أسوأ الحماقات، بما فيها تقديم زوجاتهم إذا أراد، فهم يثقون به ثقة عمياء وله عليهم مفعول السحر، ولذلك لديهم كل الاستعداد لتنفيذ الخطة إذا قال كلمته.

كان المفروض أن يمر لواؤه المجحفل ومعه المدرعات والدبابات من وسط العاصمة لاستقباله كمخلص للوطن. حقا إننا اتخذنا الاحتياطات وجردنا اللواء من الذخيرة عند مروره بالعاصمة، لكن الأمر ليس مستحيلا، لأنه اعتمد دائما على عنصر المفاجأة في حروبه. وعنصر المفاجأة هنا هو أنه يخبئ عربة واحدة مموهة في أعلاها بقدور الطبخ والمؤونة. لكن تحت أكياس الرز والطحين توجد صناديق ذخيرة سربت من مقر اللواء. تدور العربة دورة طويلة عبر البساتين والطرق الوعرة متجاوزة نقاط التفتيش لتلتحق باللواء عند مدخل المدينة الشمالي. حقا سيقف في المنصة، على مبعدة أمتار من سيادتكم ليعطي الانطباع بأن شيئا لن يحدث من تحت يده مادام هو أيضا على المنصة، لكن الأمر

اعقد وأخبث كثيرا من ذلك لأن الفوج الأمامي سيعطى أمرا بالتقدم أسرع من الأفواج الأخرى لكي يجد مكانا صالحا لإقامة معسكر موقت في الطريق إلى الجبهة، بينما تتباطأ الأفواج الأخرى لتمر حالما يغادر المنصة، وستكون ساعة الصفر هي تحية الوداع حين يغادر المنصة ليلتحق بوحداته.. آنذاك ستبدأ القيامة. ستنفصل كل دبابتين عن الرتل. وسيكون هناك أدلاء خيانة من وحدات الحماية مرتدين الزي المدني لتوزيع قطعات الغدر على الجسور ومداخل العاصمة الرئيسية بينما ينقسم جسم الرتل الرئيسي: نصف سيستولي على مقرات القيادة مستهدفين لا سامح الله، حياتك أنت، ونصف سيستولي على محطة الإذاعة والتلفزيون والمرسلات ليعلن عن مؤامرة لتدمير جيش الوطن في حرب بلا نهاية. من بين هؤلاء الضباط المتخمين لا يريد العودة إلى مائدة قماره و عاهراته؟ ومن بين هؤلاء الجنود الجهلة من لا يريد العودة لبيته وأمه؟ كل هذه المتفجرات تهيئ له المسرح، هو الذي سينقذ البلاد من الحرب والمتفجرات ومن زحف الرمال. الكل سيؤيدونه، بل سيؤيدون أي قادم من باب الفضول والشماتة. والأخطر من ذلك هو هذا الجيش من الجياع الذي يطوق المدينة وينتظر لحظة الفوضى ليزحف مع أسماله كالجراد، آكلا الأخضر واليابس.

* * *

صحا القائد من نومته على صوت وشوشة تتحول شيئا إلى هدير موجة تقترب، قرقعة أقسام بنادق الحرس و هبدات أقدام كتيمة لجيش من حفاة يزحفون ثم هتاف وضجيج: لقد زحفوا من مخيماتهم، هؤلاء الحفاة المطمورون بالأسمال، والتصقوا بجدران غرفته، دافعين بأكتافهم

حاجز العجين بينه وبينهم... فز من خناق وعرق بارد واتجه قبل أن يلبس نعليه إلى النافذة: الحارسان بعدتهما الكاملة يخطران بهدوء على الشرفة التي تلي غرفته، حراس يشربون شايهم على حشيش الحديقة، حراس على جانبي البوابة الداخلية، دبابتان عند البوابة الخارجية، وبعدهما الشارع الطويل الخالي الذي اصطف على طوله حراس ببدلات سوداء مدنية ورشاشات قصيرة تحت جاكيتاتهم وأجهزة الاتصال المحمولة بأيديهم.. كان مجرد كابوس، مجرد كابوس لا أكثر. ربما بسبب وجولة البارحة والحديث الطويل مع يعقوب:

- يتكاثرون يا سيدي كما الجراد حول مدينتك ويتكاثر بينهم قتلتك...

إحساسه بالخطر أعطاه حيوية التحدي (سأذهب إليهم بدلا من انتظار قدومهم إلي).. قالها وهو يرتدي بدلته العسكرية ويشد حزام البنطلون بشدة: إلى مخيماتهم! حيث يجد السيد الحائري جمهوره.

وكان وهاب يبربر منذ البداية وهو يراقب الجمهور على جانبي الشارع:

-لا تعجبني نظراتهم.

وعرف الوزير على الفور المعني بكلام الرئيس، فقد كان الناس على طول الطريق المؤدي إلى منصة التحية يتفرسون في الموكب محاولين بعيونهم الجامدة رؤية ما وراء الزجاج المعتم:خاملون يتحركون ببطء دائخون تخذلهم خطواتهم على الطريق المسفلت، ظهورهم مثقلة بخرق وسلال متهرئة (لا يمكن صناعة معجزات أو كسب حرب بأناس بهذه الكثرة و الرثاثة).. وشعر وهاب لأول مرة أنه محاط بالبلاهة البشرية.

بلاهة تدخل تحت قميصه وتثقل كتفيه وتتموج مع حركة جسمه المتوترة.

- الطعام.. هذا ما تريده كائنات لم تبق منها غير بطونها!

-لا تتوقع منهم أكثر من ذلك يا سيدي لأن عقولهم ضيقة لا تستطيع الذهاب أبعد من سلامة أولادهم في الجبهات ولقمة خبزهم اليومية، ولذلك لن يفهموا الرسالة التي نذرت نفسك لها.

حين اقترب مدوا طاسات الطعام إلى الموكب دون حماس، ودون أن يعرفوا من فيه، إنما بحكم عادة. (بلادة وخبث) ورأى في نظراتهم شيئا مريبا وغمر حواسه شلل مشحون بالبغض: (بماذا يفكرون؟) لقد حذره يعقوب من تجمع هذا العدد الكبير منهم حول مدينته. (قاتله بينهم).. ينظر إلى حراسه المصطفين على جانبي الشارع بمسافات محسوبة وعند مفارق الطرق التي انقطع السير فيها، ولكنه لا يراهم، إنما يرى في الغبار الذي يليهم قاتله في صورة أقرب إلى اليقين.. نحيلا أميل إلى الطول بجلباب بسيط من الكتان الأبيض المسمر يكشف عن ساقين نحيلتين.. يركض ليقطع عليه الشارع، وأحيانا يخترق طوق الحماية ويصبح قاب قوسين وراء زجاج نافذة السيارة. فتح النافذة ليتنفس وقد ثقل الهواء عليه فامتد أمامه سيل الجائعين الذين يتدفقون على المدينة كسلسال موصول وعلى رؤوسهم صرر بالية بينما تعلق الأطفال الحفاة بعباءات أمهاتهم بعد موجة الجفاف الثانية. لا يدري بأي معنى هو مسؤول عن مأساتهم هذه ولماذا يتحتم عليه، هو بالذات، أن يجد حلا.. تذكر إنه كان أكثر طلاقة وخفة وزن حين لم يكن له موقع في الدولة، ينتقد ويعاقب الوزراء دون أن يحمل نفسه عاقبة المآسي. الآن الكل يتجه إلية بتشف.. حتى المنكوبون أنفسهم يتطلعون إلى موكبه بصمت ينطوي على الوعيد. (القاتل موجود

هنا إذن)، حاضر في هذه اللحظة بالتحديد. خلف تلك النافذة المغلقة التي ستفتح درفتها المغلقة الآن لتكشف قناصا سدد الفوهة إليه، وربما في هذاه الزاوية الخافتة الإضاءة، القنابل مخبأة في صرة الخرق التي يحملها هذا المهاجر الناحل الذي يجر أطفاله العراة خلفه .. خادع هذا البائع الشيخ الذي يصفق له، فبعد لحظة ستنقلب رفوف البرتقال والتفاح في دكانه ليقفز الغفاري حاملا القنابل أمام الموكب..

- يراودني الخوف منهم، من هذا السكون والنظرات التائهة حد البلادة. هناك شيء قاس ومدمر وراء جوع هذه الهياكل. يحتاج الأمر لمن يقف على تل من التراب ويصرخ فيهم: ماذا تنتظرون؟!

كم سيدوم التردد والحيرة بعد ذلك. دقائق، ساعات، أيام. لا بد أن يزحفوا بعد ذلك على مدينتنا كالجراد الذي يأكل الأخضر واليابس. بيوتنا ونساءنا وكراسينا. أحيانا أستيقظ من النوم بوهم أني اسمع دويهم خلف جدران القصر وتحت نافذتي.

- ما العمل إذن!

إما أن أكون أنا الرجل الذي يقف على تل التراب ليقول لهم: ماذا تنتظرون؟ وإما أن اقدم لهم وعدا بأمل ما.

- قاتلك بينهم يا سيدي.

التحدي يدفعه إليهم: لن يترك لهم الساحة وهذا الجمهور الضعيف! بإمكانك أن ترسل شبيها.

-من سيكون الآخر؟

-رجل من أقرب الناس إليك وأكثرهم شبها بك.. يحفظ حركاتك وكلماتك وينكر ذاته لأجلك.

-مجيد.

- اخترت الرجل الوحيد يا سيدي. بقليل من النحافة وعمليات تجميل بسيطة سيقوم بها نفس الطبيب الذي عالجني. بتدريب أيام سيفارق هذا الرجل ما تبقى منه وبذلك سنضرب عصفورين بحجر.. يذهب الرئيس في التحدي إلى نهايته دون أن يخلي الساحة لهم، متفقدا المخيمات وجبهات الحرب ويبقى في نفس الوقت في قصره مستمتعا بثمار سلطته مستريحا من هموم الدولة ومشاغلها الضيقة.

* * *

قبل أن يذهب الصبي للمهمة جلس بين يدي السيد الحائري بعد صلاة الغروب:

نظر السيد إليه بذهول.. رجفة يديه حين قبل يده واحمرار خدوده من الحرج والصوت المتحشرج المراهق الذي سأل:

-هل تعدني بالجنة يا سيدي؟

رفع السيد رأسه إلى الغفاري الواقف أمامه بفخر باسم:

- صغير!

قالها بصوت أبح لائم.

- هكذا يبدو الشهداء دائما.

- تذكر وصيتي دائما.. تذكر أن هذا العالم الذي نحن فيه، بطواغيته و مظلوميه، بأثريائه وفقرائه، بخيريه و أشراره، هو عالم زائل.. تذكر قبيل لحظة الاستشهاد أن بينك وبين هذا العالم الزائل غمضة عين. سم وكبر، فعما قليل ستفتح عينيك على عالم آخر وعدك به الله....

داخ الصبي و غامت أمامه الصور والأصوات في ذلك الكهف، وبدت الجنة ماثلة تماما كوعد وبديل للمخيم البائس الذي عاش فيه مع أهله في خيمة يطاردون بها ما تبقى من النهر الذي غمرته الرمال. كان والده فلاحا طويلا يسيل العرق منه حين يحصد. ذات يوم رأى والده واقفا بانكسار في الطابور الطويل حاملا طاس الذل أمام سيارات الإغاثة. لم ينظر الصبي بعدها في عيني والده وخيل إليه أن والده لم ينظر في عينيه أبدا بعد ذلك. كان قد بحث عن كرامة ما حين التقى السيد في مجلسه وهو يتحدث عن الجنة تبعه كما يتبع قدرا. حين قال السيد بان أبواب الجنة ستكون مشرعة للمجاهدين رأى نفسه في الحال قتيلا ممددا على الأرض ورأى الملائكة البيض بأجنحتها التي تحرك الهواء تهبط من سماواتهم السابعة مخترقة السماوات الستة وسيول النجوم والكواكب متجهة إليه بالذات هو الممدد على الأرض بثوبه الرث وجثته المدماة ليحملوه على محفة من الريش.. كل الأرواح الهائمة الصاعدة لوحدها إلى الأعالي ستسأل مذهولة بهيبة الموكب: لمن هذه الروح السعيد؟ فيجيبهم الملائكة بصوت يدوي بين الأفلاك: شهيد!

المشهد بكامله ماثل أمام عينيه وهو يتدرب على القنبلة المعلقة بطرف جلبابه. فيبتسم وهو يتخيل القصر المذهل الذي سينتظره في الجنة، والأنهار التي تجري تحته والحوريات الباكرات الدائرات حوله. أخيلته السعيدة تنكسر أحيانا بصورة الصريفة على حافة المستنقع وبراز الأطفال الذي يملأ الأزقة الموحلة في المخيم، لكن رؤياه تصفو شيئا فشيئا على ذاك العالم الموعود الذي سينتظره هناك ولذلك استعجل الشهادة وهو يشد القنبلة.

* * *

- ستكون أنـا بعدما كنت ابن عمي وحارسي!

وكما طلب منه غاب مجيد عن الحماية وعن النادي العسكري وعن شقته وال(غزالات) الفاتنات وحبس نفسه في هذه الفيلا الجديدة في ضواحي العاصمة متجنبا الحديث كليا مع الخادمتين والطباخة و الحديث في الهاتف لمدة ثلاثة أشهر لكي يودع ذاته نهائيا ويكون (أنـا).

بدأ الجراح الألماني ومساعدوه بفحصه وهو عار على ميزان لمعرفة وزنه:

- زائد كيلوغرامين ونصف...

وقاس طول قامته:

- ناقص سنتمترين، تعالج بحذاء عال...

تفحصوا منابت الشعر وعضلاته واستقامة عموده الفقري، تلمسوا بالملاقط لحم وجهه وعظم أنفه وقاسوا أذنه وتجويف فمه وكان هناك دائما من يسمع ما يقوله الجراح ويسجل نقطة نقطة.

- لون الجلد مطابق تماما...

تفحصوا عينيه بعدسات مكبرة

- أضيق قليلا...

طلبوا منه أن يتكلم ببطء، ثم بسرعة، بصوت عال خاطبا في جمهور ثم، بهدوء متحدثا مع دبلوماسي أجنبي، يصرخ ثم يضحك أمام عدسة كاميرا وجهاز تسجيل:

- الأسنان...

... بسلسلة عمليات رفع حاجبيه قليلا وبردت أسنانه الأمامية وعدل شارباه وأزيل كثير من شحم بطنه ووركيه وانشد فكه الأسفل

ليصبح شبيهه بلا تشبيه. ولذلك لم يصدق وهاب عينيه حين جلسا عراة قبالة بعضهما في حمام البخار. كأنه رأى نفسه بمرآة وهو ينظر لأبن عمه مجيد وبينهما طبيب الجراحة التجميلية ممسكا بوجه مجيد يسحب الوجنتين قليلا إلى الأعلى ويجر لغديه كما يمسك قناعا طيعا من المطاط لرجل فقد صفاته وانفعالاته. بدا الشبيه مخذولا ومستسلما وغير قادر على أن يسترد صوته وهو يسمع الرئيس يقول له:

-أستطيع أن أتخيل رجلا استبدل بذاته ذات آخر يجله: إحساس بفراغ مربك يسبق الامتحان! ستذهب لجبهات الحرب لابسا بزتي وستخرج للناس وللمسؤولين في الدولة والسفراء الأجانب الذين يدققون بكل صغيرة وكبيرة باعتبارك أنـا، وستحدثهم بصوتي قائلا الكلمات التي سألقنها لك، وستذهب للجياع في المخيمات باكيا بدموعي وتعدهم مقسما لهم باسمي، مقابل ذلك ستتمتع بنصف سلطتي بمخاطرها ومباهجها، ولكن لا تنس، ولا لحظة واحدة، أنك لم تعد أنت منذ الآن: أنت أنـا!

كالمخدر تماما بقي مجيد صامتا يهز رأسه موافقا كلما أتاح له الجراح الألماني أن يحركه. حزن شفيف عصر قلب وهاب وهو ينظر في ما تبقى من ملامح ابن عمه التي تشوشها سحب البخار. كادت الدموع تطفر من عينيه وهو يزيح الجراح ليقترب منه . البخار يكلل الوجه المشدود كقناع ويتجمع قطرات على تلك الجبهة التي أزالت الجراحة بعضا من كثافة شعرها. قبله من وجنته:

-وداعا يا مجيد!

كثيرا فكر فيه وهو يغادر حمام البخار بعد يوم عمل مرهق: كانا ينامان معا في غرفة واحدة، على سريرين متجاورين شابكين أصابعهما

خلف رأسيهما لساعات ثم ينتبه أحدهما ليسأل الآخر، بماذا يفكر، ويكتشفان، ويا للعجب، إن فكرة واحدة خطرت لهما في وقت واحد! فرقتهما السلطة وجمعهما قدر واحد، فقد أحب وهاب اندفاعته التي لا تنتظر منفعة غير ربتة على الكتف وكلمة ثناء خافتة. لم يتبعه تزلفا كالآخرين، إنما بحكم شيمة أصيلة فيه. ولن ينس وهاب أبدا صفاء وجهه وطلاقة صوته حين أقسما معا على الوفاء في ضريح الهادي. كيف سيودع صديقه ويستقبل نصفه الملول؟ بكى وهاب بنهنهة خافتة وهو واقف أمام النافذة المطلة على المدينة متنصتا للسكون ولقطعة الثلج وهي ترتطم بجدران الكأس. سيغادر هذه المدينة!

* * *

في المساء ذهبت ياسمين إلى الحفل الذي أقامته جمعية الأسرة لدعم المجهود الحربي. المساحيق الكثيفة لم تخف الهالة الزرقاء حول عينيها ولم تخف ابتسامات المجاملة غمامة الكآبة التي خيمت على روحها.. تتحدث مع رئيسة الجمعية وفي حقيقة الأمر كانت تهز رأسها موافقة على موضوع لم تفهمه... سوت شعرها أمام المرآة وعدلت كحل عينيها ولبست قناع الحزم (ما فائدة الدموع؟استعجلي قبل أن يفوت الزمن!) الوزير موجود هنا وستبدأ معه (حرام أن يموت شاعر موهوب مثله كأي جندي عادي).. بحثت عن مدخل للحديث خلال عودتها معه في السيارة وقد استحضرت كل حماسها وهي تزمع أن تفعل شيئا نبيلا ينعش تلك النقطة البيضاء في أعماق روحها (إنه في مقتبل العمر، هاك اقرأ رسالته) كانت تنظر بوجه الوزير الذي يقود سيارته منتظرة أن تنجلي هذه الغمامة الجهمة. لم يقل الوزير لها كلمة خلال الطريق، فقد كان

مشغولا عنها بشيء آخر.. يستعيد حديثه الأخير مع مدير الأمن الذي حذره من التلاعب بحياة الرئيس لأنها أثمن من حضور حفلة تافهة أو مؤتمر يمكن أن يفتتحه أي وزير: (كف عن هذه المسرحيات لديك ما يكفي من الممثلات وعارضات الأزياء)! يستجمع الوقائع ويعيد تركيبها خائفا من الكل ومنهم هذه المرأة الجالسة إلى جانبه. بدا لياسمين، وهي تزمع فتح الحديث معه (أنت تعرفه أكثر مني...)، شديد التكتم والصمت ينطوي على سر خطير فقد رأى اليوم شيئا غريبا في نظرة مرافقه الذي غادره في منتصف الحفل معتذرا بأنه مجبر على أن يودعه الآن لمهمة طارئة.. سيقتلونه بالتأكيد.. أوشك أن يرى قاتله واقفا وراء باب حديقته رافعا سكينه أو سيقفز من هذا المنعطف الذي يسبق الجسر حاملا قنبلته اليدوية، وبدت له شوارع المدينة الخالية مهيأة لهذا الفعل الغادر، والناس على الأرصفة يعرفون رغم غفلتهم.. إ نه يتوغل في عالم غادر وهو يعبر هذا النهر المظلم المائج بالأسرار.. بدأت السيارة تهتز بقوة عند نزول الجسر، وقبل أن تقول ياسمين (لي طلب) أفلتت السيارة من فراملها واستدارت بحدة صادمة سياج الجسر:

-فعلوهـــــا!

وارتفعت السيارة في الهواء فدار النهر وصف الأضوية التي انعكست عليه ووجه المرأة التي صرخت دون صوت وسمعا طرطشة الماء الرهيبة ثم أطبق الصمت.

* * *

في عمق الخندق نام قاسم فنجان وسعيد على جنبيهما بانتظار إيعاز الهجوم وقد تقارب وجهيهما حتى تداخلت أنفاسهما:

ـ يا إلهي !

هتف قاسم فنجان بصوت مختنق وقد أنعكس لهب النار على وجه مصفر تدورمقلتاه في فراغ دون أن تستقرا على شيء وتتحرك كل عروق وجهه بتتال وهو يلوك لبانته ويتوقف على إيقاع القصف. شي من قلقه تسلل إلى سعيد الملتصق بجدار الخندق الطيني يتحسس بكتفه ليونة وبرودة الطين وقد سحب أقسام بندقيته بانتظار إيعاز الهجوم. لم يكن خائفا فقد كان يعرف عذاب انتظار الموت الذي يأتي دائما في لحظة سهو غير منتظرة. كان صدره يدق بعنف وكأن دوي الانفجارات رد على فيض ما فيه. ومع ذلك واصل الحديث ليكسر وطأة الخوف التي تأكل الروح:

- إذا كانت تحبك إلى هذا الحد فستفعلها بالتأكيد، وستثمر الوساطة ويسرحونك...

- ربما...

- هل نمت معها تلك الليلة؟

- بم...

طبعا، طبعا.

- وكانت سكرانة؟

ـ بمممم...

- سألتك إن كانت سكرانة؟

- بم بم بم

طبعا كانت سك...

حين بدأ القصف مد قاسم رأسه خارج الحفرة: ساحة المعركة تغطت بسحابة هائلة من الغبار ومسحوق البارود وامتلأ الجو برائحة ثقيلة

خانقة وأخذت القنابل الحارقة تتساقط كالمطر فاحترق العشب اليابس الذي يغطي السهل، وكانت النار تولول وقد سفتها الريح باتجاه الشرق فتقصفت عيدان الحنطة الكاذبة وهي تحترق وتطاير الجراد وقد علقت النار بأجنحته وخيم على الأرض الظل المصفر للنار والدخان واكتست السماء باحمرار مصفر وخانق

- هذه هي القيامة !

قال قاسم وقد تهالك جسده داخل الخندق! بينما خرج جنود الصف الأول من خنادقهم وهم يقفزون مثل الأشباح فوق جدران النار وأيديهم تدفع اللهب ثم يغوصون في سحابة الدخان الهائلة.

- لا تتزوجها فهي...

- بمممم

قبل أن يقفزا خارج الحفرة تزلزلت الأرض وصعد من تحتهم سيل من التراب والحجارة وتمزقت صورة العالم بأشرطة ضوئية حادة وصفير الشظايا التي تفرم الهواء...بصعوبة رفع سعيد جسده المكور داخل الحفرة ومن تحت أجساد نامت عليه... لا يدري كم من الوقت مر عليه. أراد أن يفتح أجفانه فوجدها ثقيلة مشدودة لبعضها وبدأت ترتسم أمام الشق الضيق دوائر خضراء لها حواف نارية ثم توضحت تدريجيا معالم الأشياء خلف اختلاط الغبار والدخان والأشباح الضاجة التي تقفز فوق الخندق باتجاه العدو الذي لا تعرفه. وحين رفع جسده من تحت التراب والأجساد التي تراكمت عليه رأى رأس قاسم فنجان على حافة الحفرة مقطوعا من الوريد إلى الوريد.. عيونه نصف مغمضة وقد التوى فمه وهو ما زال يلوك لبانته بتباطؤ بينما ذهب جسده بلا رأس يركض مع المهاجمين.

- آآآآآآآآآآآآآآآآآآآ!

اندفع مع المهاجمين الذين صرخوا معه:

-آآآآآآآآ....

صرخ سعيد بصوت يشبه ثغاء جمل وحمل بندقيته وأندفع فوق العشب المحترق، بين الأشباح المحمرة الشاحبة. لم ير وجه عدوه وهو يركض نحوه بقفزات جانبية ويطلق صليات قصيرة غريزية.. قافزا فوق جثث ملطخة بالوحل والرماد وجرحى رفعوا أيديهم وخوذ مبعثرة داخل خنادق قفز فوقها مثل طائر.. يطلق النار دون أن يرى قتلاه واثقا من أن أناسا سقطوا إلى جانبه. شيء ما آلمه في ذراعه كحز سكين، ومع ذلك استمر يصرخ ويركض ويطلق النار.. على خوفه، على إجهاد جسده، على صورة الرأس المقطوع الذي تركه على حافة خندقه.. مرت به رمانات يدوية انفجرت خلفه وغرزت شظاياها في لحم ظهره ومرت أمامه وإلى جانبه نيران مذنبة وأشرطة ضوء حارة. دهمته زوبعة غبار طوحته جانبا، وفي لحظة من دوار دهمه خوف من موت قريب، لكنه لم يسقط إنما حملته موجة الهجوم بشمل.. لم ير العدو بعد ولم يسال عنه، إنما ازداد اندماجا في صراخ المعركة الذي يسد الآذان، يطلق النار دون توقف على أقواس أمامه وكلما أوغل في القتل خفت يده وروحه مع هذه النار التي يطلقها من نقطة موجعة عند خاصرته وكأنها تتدفق تلقائيا لا علاقة لها بضغط إصبعه على الزناد. من خندق تحته تماما قفزت أشباح رمادية صرخت بوجهه:

- آآآآآآ...

فاندفع نحوها متبعا سنا حربته وشعر برجة في كتفه ولحما آدميا

يقاوم نصل حربته ودم حار رش وجهه ويده وملأت رأسه صرخة المطعون المدوية التي شقت أذنيه. صعد أول موقع وقد تكدست الجثث تحته فداسها طاعنا الجرحى والمتوسلين وقد تجمع فيه القرف والخيلاء (أنا بطل!)

- آآآآآآآآ!

بانتظاره متنصت والدة سعيد مردان لكل نشرات الأخبار وتتلفت حولها تريد أن تسأل أحدا ما عن مغزى كل خبر وكيف سيمس ابنها الوحيد المتواري في حفرة على الجبهة. تتوتر أذنها تحت شال الصوف الأسود ويجف ريقها وتبرق عيناها وهي تتنصت للبيان العسكري لتعرف أين بدأت المعارك اليوم وتدقق على خارطة متهرئة بعدها أو قربها من الموقع الذي يقبع فيه باركا على ركبتيه، كما تتخيله دائما، لاصقا رأسه بطين الخندق مسميا باسم الرحمن والنبي والأئمة كما تتمنى.

- يا عماد من لا عماد له، ويا ذخر من لا ذخر له، ويا سند من لا سند له ويا حرز من لا حرز له....

هل سيفعل ذلك؟ وهل سيبقى حرز سليمان لاصقا بقلبه، هذا العنيد مثل والده؟ ترى شفته وهي تتمتم وجوزته تتحرك وتتلمس أصابعه على جدار الخندق الطيني ودقات قلبه المتسارعة وهي تتابع صفير القذيفة آتية من بعيد:

- هذا مقام العائذ بك من النار، المستجير بك من النار، المستغيث بك من النار والهارب إليك من النار...

مع زوجته تذهب صباح كل يوم إلى مركز التجنيد حيث تتجمع أمهات الجنود وزوجاتهم غابة من عباءات سود وهن يرددن بإيقاع موحد (قولوا لي الغايب وينه!؟). تفرقهن رفسات الحرس ثم يتجمعن على

ولولة واحدة، وتفرشهن زخة رصاص ثم يتجمعن ثانية بقعا سوداء على حشيش الساحة الأخضر: قولوا لي الغايب وينه؟! فجأة يسود الجمع همس موسوس: وصل قطار يحمل الجرحى. فيقطعن السير في الشوارع، زاحفات بخطوات مترنحة، مثل سرب غربان تدفعه عاصفة، رافعات أطراف عباءاتهن إلى الأعلى مولولات بإيقاع متقاطع: قولوا لي الغايب وينه!! يعبرن الجسر، خط من بيارق سود، يتسلقن سياج المحطة حين يقطع الحرس طريقهن من المدخل الرئيسي ويولولن مع القطار القادم: قولوا لي الغايب وينه؟! يضرب الحرس أصابعهن بأخامص البنادق، لكن يستحيل فك هذه المخالب القوية التي تهز قضبان السياج الحديدي وتقضقض الأقفال.

لن تهدأ روحها حتى يعود في إجازة. تصرخ حالما تفتح الباب:

- مستحيل! ليس هذا الشبح المصبوغ بالطين ابنها!

زوجته الشابة عاشت غارقة في البياض (سيعود في نهاية الأسبوع، إنها إجازته!) تفتح الملاءة البيضاء وتنشرها مثل جناح طائر أمام ضوء الشباك وتمدها على السرير لتعوضه عن تراب الخنادق وعتمة البطانيات القذرة. بقفا يدها تمسح البياض الرحب فتنزيل من خيالها بقعة دم وثقب اسود تركته رصاصة ورمالا حمراء زحفت على يده وهي لا تكف عن الدعاء لعودة الغائب الذي لا تسميه:

- يا سامع كل صوت، يا جامع كل فوت، يا بارئ النفوس ومجير المستجيرين!

تجلسه أمامها متكئا في السرير على راحة يده يراقب دخان سيجارته و تتحدث إليه عن أصغر شؤون البيت (أعصاب أمك صارت

لا تحتمل، ما إن أفتح الراديو على أغنية حتى تنهرني: أيطربك شيء وصوت القنابل هناك يصم آذانه!؟ حرام علي أن أبتسم وأنا أذكر كيف كنت نرجف عضلات جسمك واحدة واحدة: تبتسمين على حظه العاثر الذي يقوده من حرب لحرب....) لا، لن تنغص أيام إجازته القليلة بأحاديث ثقيلة. يصغي إليها بابتسامة رجل صابر وربما يشط ذهنه عن حديثها إلى الأهوال التي رآها هناك، ومع ذلك ستروي له الحلم الخبيث الذي أثقل قلبها: اليد الباردة التي لمستها في النوم والتراب الذي ملأ فمها والقرادة الكبيرة الممتلئة بالدم.. تزيحها وهي تمسد بياض الرشف. ستدفعه إلى الحمام ليزيل غبار المعارك: عنيفا معها كان حين عاد من إجازته (إلى الحمام أولا! رفعها بيديه من إليتيها حتى قبل أن تنزع كل ملابسها (جمرة في بطني). لم يأبه بصرخات الألم، يثغو مثل جمل وهو يولج فيها كما النار وقد التهب جسدها بانفجار الألم واللذة معا. ستلومه على ملابسه الممزقة وتضمد جرحا في ركبته. (متعب) !ستتركه ينام وتبقى طوال الليل تتطلع إليه وتزيل شعرة شائبة وتتلمس كل جزء من جسده....

تراقب أمه الظلال من وراء الناموسية و تغار من اختلائه الطويل مع زوجته. على لسانها تردد: من حقه. هو شاب وهي شابة. لم تشبع منه. غادرها إلى المشؤومة في الشهر الثاني بعد عرسهما، لكن في داخلها تلوب من غيرة اختلائه معها وتعض شفتها غيظا وهي تراقب الأخيلة من وراء الناموسية البيضاء: ستمص ماءه مثل الأفعى التي لا تشبع!

في النهار تبدأ حصتها منه. تجلس قبالته تماما حين يتناول طعامه محدقة في الأنف الطويل المستدق، وجوزته التي تتحرك بالتواء بطيء

مع اللقمة، وعيناه الزواغتان من الحرج وهو يتحاشى نظراتها النهمة: مالك يا أمي، كأنك ولدتني الآن؟! تريد أن تمايز حصتها من حصة الوالد في هذا الطفل الكبير الماثل أمامها، وتتمنى أن تكون حصة المرحوم أكثر. تسابق زوجته وتدفعها أحيانا لكي تناوله سترته حين يخرج، لمجرد أن تلمس ظهره (هو بلحمه وبدمه.. ليس هذا حلما)!

على عكس ما توقع الجيران حين حملوا لها صورته في جريدة، واقفا قرب دبابة محترقة (العدو كان غافلا في خنادقه حين دخلنا بقنابلنا اليدوية...)

- ليس هذا ابني. أنا اعرف كم يكره سعيد التباهي. هذا كلام الجرائد! (وكانت الدبابة على مبعدة أمتار، ومع ذلك جثا على ركبتيه...)

- كفى!

ثم لابت في مكانها وهي تبربر:

- بطل؟! هه.. يالها من كذبة! بهذه اليد مسحت خراه وهو صغير هذا البطل! ضربته على قفاه حين بدأ يخجل من عريه أمامي في الحمام ولويت حيوانه حين كبر. قالوا بطل! أحقا وقف هذا المجنون أمام الدبابة؟ لن أدعه يعود إلى الجبهة إذا جاء في إجازته!

- سعيــــد، سعيـــــد!

تناديه وهو نائم على الأرض (بطل حيلي عليه!). تركت فراشها منذ أن عرفت ذلك وتوسدت الأرض الصلبة مع هذا الساهر ليله تحت السماء العارية غامزا بعينيه من قلق الفكرة. من يمسد جبينه هناك، وهل كان له الوقت ليأخذ طعامه على مهل... إنه هو وقد صبغ بالطين وجهه.

أين ذهب بعصاه على كتفه وثوبه الأبيض حافياً على الأرض يخط الرمل ويجر خلفه شجيرات العوسج؟ هل ناداها حين التفت؟ فزت من هذا الذي لا هو نوم ولا هو يقظه.. عيناها نصف مغمضتين وقلبها يدق بتسارع وهي تتابع صوت سيارة تمر في الشارع. تباطأت!هل ستتوقف؟ ما الخبر الذي سيحملونه لنا. (كفي يا أمي عن هواجسك، أنا هنا) لمس جبينها بيده الباردة...

* * *

فز وليد من صدمة المشهد حين دخل الردهة التي لا يرى جدرانها: عكازات وأرجل صناعية وردية حيثما نظر. كان عارفا بالمكان (المستشفى العسكري). وقد قبل الدعوة بحماس ليرد الاعتبار لذاته الفاسدة بعمل نبيل يعيد له الحمية والحيوية: أن يقرأ لجرحى الحرب! وفي حقيقة الأمر جاء ليبحث عن قاسم فنجان ويعتذر له. وجوه غائبة في الضمادات لا تظهر منها سوى محاجر تنظر إليه بانتظار ساخط:أي واحد منهم؟

يغمض عينيه ويتمتم (إنه كابوس) ثم يفتحهما على صف من الجرحى على أسرتهم وسيقانهم معلقة فوقهم بعتلات، يتنفسون ويأكلون ويفرغون من أنابيب تخرج من كل أنحاء جسدهم. بعضهم معلق على ظهره داخل عجلات مقلوبة: (ما الذي جاء بي إلى هنا؟). في الصف الثاني رأى محجرين... قلب ديوانه باحثا عن القصيدة إياها (رسالة اعتذار إلى قاسم فنجان):

يكتب الناعمون
عن الحب والحرب
أو يكتب القاعدون

حاول أن يركز نظره عند نقطة ما قرب سقف القاعة، غير أن غمغمة غـريبـة صـدرت من هناك، حـيث وقف مـربوطا على عـمـود حـديدي كالمشنوق. حاول وليـد أن يستـجلي ملامـحه (أيكون هو، وقد أراد أن يقول شيئا؟):

غير أن الوطن
هو غير الذي يكتبون
هو...

غص بالصاد حين سمع نخيرا حادا من قـرب النافـذة حيث التوت جثة مربوطة بعجلة: مستحيل ليس هو! ركز نظرته هذه المرة على عـيني المرضـة الممتلئة الجالسـة في صدر القـاعـة تنظر إليـه بابتـسامـة رغـبة متخابثة.

- ... في الساتر المتقدم
في فوهة البند...

غص في القـاف هذه المرة وهو يرى اللحم المجعد لساقين مبـتورتين تحته تماما:

في الدم والرمل

دارت به الردهة فحاول أن يستند على... لمس يدا احترقت إصابعها وبقي منها شغاف مسود (يده؟):

حاملا صوته للمدى
حاملا...

ارتفعت حشرجة واخترق الصفوف رجل احترق وجهه وبرزت لثته وأسنانه رافعا إصبعا نحوه (هو)!

قلت لي: أين أنت؟
صلصلت العكازات وسرى دوي غريب حتى غاب صوته وهو يقول:
رويدك يا قاسم
فالمدى...

غادر القاعة حاملا باقة الورد التي قدمتها له الممرضة وهو مازال دائخا من هول المشاهد، والممرضة تمسح العرق البارد المتفصد من وجهه ولذلك لم ينتبه للكرسي المتحرك الذي يلاحقه حتى أمسكت يد محروقة بيده الباردة فالتفت وانحنى ليسمع الكلمات المجرحة لهذا الرجل الذي اخترق الصفوف قبل قليل:

- كان قاسم فنجان بجانبي في الخندق...
- صحيح؟ أنت إذن سعيد مردان؟ لقد كتب لي عنك في واحدة من رسائله!

قال وليد متصنعا الدهشة والفرح.

- لم يصرخ، كما قلت في قصيدتك ولم يحمل الراية...
- خيال شاعر.

قالت الممرضة لتلطف الموقف.

- لم يفعل ذلك أبدا، لأنه ببساطة كان مقطوع الرأس.

* * *

حاول سليم أن يتلبس الشخص الذي أراد أن يكتب عنه: (قانع بحياته.. سعاداته بسيطة: يجدها في رائحة الشاي المعطر في الصباح وفي ثوب النوم الناعم الوردي الذي تلبسه زوجته قبل دخول السرير.. يذهب إلى العمل ببدلة رصاصية فاتحة على ياقتها قرنفلة. لا تنغص

يومه سوى زحمة السيارات الصباحية.. في هذه الساعات وحدها تفلت منه كلمات لا تليق برجل كيس مثله فيلعن البلد وأهله الذين تحولوا إلى حيوانات. تهدئه زوجته الجالسة بجانبه في السيارة فيشرح لها عيوب نظام المرور وكيف يؤثر في سلوك الناس.. يحرص على أن يدخل الدائرة بابتسامة عريضة مصبحا الجميع بالخير، ناهرا كل من يبدأ صباحه بتقطيبة شؤم، يقرأ جريدة الحكومة المحايدة متجنبا أخبار الحروب والكوارث التي تسبب له ارتفاعا في ضغط الدم، ولا يعلق على الأخبار، وإذا أراد، فعلى أخبار الرياضة أو نجوم التلفزيون. لقد تحقق بدأ سليم تمرينه الطويل. زار أقاربه وتحدث معهم بحماس مفتعل أول الأمر، ثم غلبه حماسه وهو يتحدث عن فريق الميناء:

- لاعبوه فقراء تدربوا في الأزقة الضيقة ولذلك يجيدون التسديد بدقة...

عن لاعبه المفضل علوان هداد الوحيد الذي يستخدم الضربة المزدوجة للتسديد على الهدف من الخلف. وبنفس الحماس يتحدث عن أسعار الخضر وأفضلية شرائها طازجة ورخيصة من العلاوي مباشرة وفي الصباح الباكر، ويتحدث طويلا عن فوائد المجمدات في البيت والتلفزيون الملون ومسلسلات البادية.

أحيانا يداهمه الكائن النحس ساخرا يرده بغضب :

- عن ماذا أكتب؟ عن قاسم فنجان وهو يقفز فوق الخنادق كما في فلم أمريكي؟

يتوقع وليد أن يلمح صديقه النحس لقصيدته، ولذلك كان جوابه جاهزا:

- على الأقل كتبت قصيدة عنه بدل الاكتفاء بقراءة الفاتحة...

- تبرير.. أنا متأكد أن الناس سيرفضون هذا الطعم الباهت، سيعرفون ما تهرب منه أكثر من الذي تكتب عنه.

بدل الكتابة أخذ سليم يمرن نفسه على التفاهة اللذيذة: وحين يقاطعه الكائن االنحس (أين أنت ذاهب؟)، يهرب منه إلى سوق الخضار القريب ليدس نفسه في تيار الناس الأسوياء الذاهبين الآتين بأمان ودعة ويكتشف متعة مراقبة ولمس الخضار الطازجة اللماعة الباردة المغسولة بالماء فيبدو له العالم رغم ما فيه ناعما طريا.

كاد يتلبس دور هذا المواطن المأمون الذي رسمه في رواياته لولا أن الحرب دخلت بيته على شكل جثة واقفة بباب البيت:

- ابني نزار!

لم يكن أبدا هذا الذي غادرهم ولم يكن هذا صوته حين قال:

- عدت!

دخل البيت تماما كجثة غائبة عن ما حولها.. يسمع الأصوات وهو غائب، وينظر لمحدثيه دون أن يراهم و يتكلم دون أن تخرج الكلمات منه. فقد خلف عالما من الجثث: جثث تغطي المالح على طول الأرض الحرام التي قصفت بالغازات السامة.. مقلوبة على ظهرها تحدق في سماء صافية حلقت فوقها أسراب من طيور الرخمة تسف في دورات لولبية ثم تهبط في انزلاق سريع نحو الجثث. تدور الجثث وتعلو وتهبط وتمسك بعضها غير مميزة بين العدو والصديق في عناق الموت الذي جمعها داخل البحيرة المالحة. على الجرف بين شجيرات العاقول امتدت جثث المهاجمين والمتراجعين رمادية غمرها رماد أبيض، بعضها خرج تَوّاً من

الملح وانقلب بعضها على الوجه وقد غرزت الأصابع في التراب. يد وحيدة خرجت من تراب الخندق مضمومة توشك أن تقبض على حزمة ريح للكائن المختنق تحت. ورود من جثث حول تويجات سوداء، حيث سقطت القنابل، فاغرة أفواهها نحو السماء في أغنية موحدة. دخل أول قرية يطلب كأس ماء: سكون، سكون، سكون.. حتى المؤذن قطع الفاتحة بما يشبه الغصة: الأبقار نافقة وقد رفعت مناخيرها عاليا نحو الفضاء المسمم بعد أن درت حليبا بلون القيح، وسقطت الغرانيق مرتطمة بالجدران دافنة مناقيرها تحت الأجنحة. عند واحد من البيوت دجاج بلون العناكب وفي داخل البيت عائلة بكاملها، بشيخها وشابها وامرأته والصبيتين.. جميعا ماتوا وهم حول صينية الطعام وقد غمسوا في المرق الكبريتي خبزا بلون الخشب المحترق. وعند جدار بيت امرأة محشورة تحت الجدار نائمة على وجهها وقد طوت يديها تحتها، وبالكاد لمح القدم الصغيرة للطفل الذي حاولت الأم حمايته من العالم المسمم. على مبعدة ذراع منها طفلة طارت ضفيرتها وراءها وهي ترنو لأمها قبل أن يقتلها السعال الذي ترك خيطا من الدم عند طرف شفتيها. على نافذة البيت مازالت تخفق فوق المقبرة ستارة طرزتها الأم: حقل من زهور عباد الشمس ممتد باستقامة تجوبه طواويس لها وجوه آدمية تحدق بسكون بتلك الكتلة الآدمية الملتفة على بعضها. خطوة... خطوة أبطأ وأكثر حذرا نحو عتبة الجامع حيث تناثرت أحذية. بعد الباب مباشرة على اليمين فاجعة. في يقينه وهو يسمع المؤذن وقد غص باسم الله كدس من جثث تجمدت على زهور الخشخاش في ملابسها دماء داكنة الحمرة. متمسكة ببعضها وسرب من ذئاب دائخة تجرجرها من ملابسها:

- هـــآ!

صاح نزار فالتفتت الذئاب والدم المخثر يسيل من أنيابها ثم واصلت الحفر بين الجثث.

دبابة محترقة أطل من تحت غطائها ضابط حاول أن ينجو من النار في الداخل فاستقبله الفضاء المسمم في الخارج. مر نزار تحته تماما وأوشك أن يأخذ له التحية، ثم تابع خطواته وهو يرى نجمتيه على الكتف ما زالتا لامعتين بينما استحال الهيكل رماديا مثل السماء التي تكلله: لم أرادت الدبابة أن تدخل البيت من بابه الضيق؟! تعثر بخوذ الجنود الذين فروا من جوف الدبابة وقد علقت بهم النار. ما من أحد منهم أنقذ الآخر من جناح النار في ظهره. الخوذ و البساطير تناثرت بين رماد الدبابة والرمل بكل الاتجاهات. قطع نهيرا علقت الجثث بالأغصان المعرشة على الماء وسار عكس تيار الماء مزيحا الجثث الآتية نحوه بيديه الإثنين، ورأى جثثا تدورها مخاضات الماء وأخرى تقبل بعضها، جثث مستلقية باسترخاء على ظهرها تحدق في السماء كما في ليلة صيفية صافية السماء وأخرى على سياج تتلصص على ابنة الجيران...على طول الطريق جثث حاولت أن تنجو من الكابوس الخانق.. تسعل حد الموت تتلوى، تئن أو تطلب:

- مـــاء!

ممسكا برشاشته سار قاطعا حقلا من الجثث وممرا اصطفت الجثث على جانبيه يراقب ذلك دون شفقة. سمع صوتا خلفه يناديه باسمه:

- دخيـــلك!

توقف لحظات وبالكاد تعرف على هذا الكائن المزرق الذي يكاد يلفظ

أحشاءه، لقد تعاهدا في الخندق مرة على أن يخلي أحدهما جثة الآخر، لكنه منهك غير قادر على أن يجر جثته، لذلك غادره مسرعا في خطاه.

في القطار تكدس الجرحى على الجثث.. مثلهم نام على جثة باردة، وفوق رأسه تدلت يد تلطمه مع اهتزاز القطار، مع ذلك نام . نام على هدهدة أنين، وشخيب دم، موقنا أنه غادر عالم الأحياء إلى عالم الموتى وقد تآلف معه.

لم يكن سعيدا أبدا بعودته حيا حين وصل البيت، بل صعد إلى غرفته طالبا نومة طويلة . لم يتمرغ على الشراشف البيض التي وضعتها الوالدة لاستقباله، ولم يرفل بدشداشته البيضاء ولم يبتهج بالطعام الذي كان يحبه. ومن يومها بقي هناك، يقضي كل يومه ممددا على قفاه في السرير منغمرا بالجثث.

في البداية جربت الأم كل عواطفها.. من القبلات إلى البكاء، وهدهدت الطفل فيه. بعد يومين نزلت متورمة العينين:

- لقد فارقنا ابننا وسكن عالم الموتى!

بعدها صعدت ابنة الجيران التي أحبها وأحبته. فزت من برد شفتيه حين قبلته وهو نائم ينظر لسقف الغرفة. تحدثت طويلا عن خباثته حين جلس حدها في الباص ووضع الرسالة في حقيبتها وكيف راقب خروج أهلها وجاء البيت طالبا علبة كبريت ثم...

- تظاهرت بالخوف حين مددت يدك إلى صدري هكذا...

وفزت ثانية من برد أصابعه على صدرها. نامت فوقه ومدت يدها تتلمس عضوه علها تحرك جمرة تحت عانته... في النهاية نزلت وهي تكز أسنانها غيظا:

- لا ماء في جسده!

صعد سليم إليه ليفتح الحديث عله يصل معه إلى نقطة الاعتراف صمت وتنحنح وهو يتذكر إنه لم يفتح حديثا شخصيا مع ابنه من قبل :

- أنت رأيت الأهوال يا بني، لم لا تكتبها ؟

- ما الفائدة؟ لن أعيد الحياة للأموات!

- اكتب لنفسك فذلك يساعدك على تخفيف وطأة الكابوس.

- جربت. بدت الكلمات نفسها مثل جثث متفحمة على الورق.

- مع ذلك...

ثم تعثر سليم بكلماته حين أدرك إنه يخاطب نفسه.

* * *

مسح قادر وجهه ويديه بالمنشفة المعلقة عند مدخل النفق وأرخى وجهه وأعضاء جسده قبل أن يغادر المخزن إلى القاعة... بداية المساء حيث لم يعد للمساجين ما يفعلونه غير أن يفكروا بأنفسهم وينتظروا فجرا سيقف به السجان عند باب القاعة مناديا واحدا منهم برقمه. ستكبل يداه خلفه أو يربط مع آخر بجامعة ويدفعهما الحرس بالأخامص حين يتعثر أحدهما. ينظر إلى الخلف للمرة الأخيرة نظرة تجمع التوسل للنجدة والدهشة والسؤال. ولن يجيب لاحقا غير الموت.

تطلع قادر للوجوه: (من سيكون القادم) ؟

في هذا المشهد البطيء الموزع وجد قادر معنى قريبا منه ويفلت من مناله، فاتكأ على الجدار الفاصل بين المخزن والقاعة يراقب هذا الكدس البشري المحشور على امتداد جدران القاعة: أمراض القلب والضغط وضيق النفس والتهابات الصدر واحمرار العين و التراخوما والأمراض الجلدية والإمساك أو الإسهال الشديد والدوخة والأمراض العصبية. لاشيء غير الموت.

جدار من زجاج نظيف يعزله ويوصله بما في هذه القاعة التي أخذت من حياته عشر سنوات هذه إذن أيام الوداع؟ فقبل قليل نصبوا السقالة الأخيرة وقاسوا أرض النفق ووجدوا أنهم اجتازوا السياج الخارجي. ولذلك بدا يصدق أن مجرى الحياة في هذه القاعة سيصير بعد أيام جزء من ماضيه. لقد استنفد كل الأسئلة والهواجس وأصبح أكثر هدوء كلما اقترب الموعد الذي حدده الحزب، ولكن هذه الغفلة وربما التغافل الذي يعزل رفاقه يلذع قلبه كالفلفل. تقدم خطوة وهو يستجلي الوجوه يريد أن يأخذ منها علامة رضا أو غيظ أو حسد. لكن كل واحد كان غارقا في عالمه: بينما غرق رزاق مع آلات الشطرنج التي صنعها من عجين الخبز يفتل الشعر القصير في مؤخرة جمجمته وهو يفكر بالخطوة التالية. لم يبق في القاعة غريم له ولذلك راح يلعب مع نفسه، اللاعب والخصم. وسيملأ رؤوف دفتره السري بقصائد تدوي فيها أصوات الجموع وهي تهدم الأسوار. قصائد لن تجد طريقا خارج السجن. وهذا حمد مصر على أن يصبغ شعره استعدادا لإفراج. قد تثمر عن وساطة أحد أقاربه: (أيهم سيغيب صباح غد)؟

قليلا رفعوا رؤوسهم إليه وقد ضاقوا بالهواء الخانق وعتمة المشهد فغص قادر بريقه وقد حز في نفسه أنه سيتركهم دون وداع أو عهد، سيشرح كل ملابسات الموضوع في رسالة سيكتبها لهم مع تأكيد على عهد. عند باب القاعة ووراء قضبانها حيث يتسلل تيار هواء ويسقط ضوء مغبر نصب الجلاد أبو هاشم منصة اعترافه، كما في كل يوم بعد سكرة ثقيلة، يتحدث لمن يسمع وربما لنفسه عن عذاب مهنته:

– كان للعملية في السابق متعتها و هيبتها: نستعد لها أنا وابني،

كان عمره آنذاك اثني عشر عاما، قبل يومين.. نثبت العمود بحيث يسمع السجن بكل ردهاته صوت الضربات ويخيم الصمت على المساجين والسجانين، ننظف المنصة ونتأكد من حركة الدرفتين تحت قدمي المشنوق ونشحم الحبل ونجرب الباب، فأي خطأ سيخل بهيبة المشهد أمام رجال لهم هيبتهم . يربت المدير على كتفي : أبو هاشم، اعتمادنا عليك! فما من أحد في بلد الأرانب يملك قلبا من حديد مثل داعيكم أبو هاشم. المكافأة كانت مجزية خمسة عشر دينارا.. راتب معلم لشهر كامل، ومعها بطل عرق هدية من المدير عن الرأس الواحد...

تجاوز قادر هذا الحديث الرتيب وهو يتملى رفاقه بإحكام، أي منهم سيكون حصة أبو هاشم فجر غد؟ يختم صورهم في ذاكرته: يحفر عمار أنفه قلقا على زوجته الشابة التي تركها في الشهر السابع بعد الزواج غير آبه لحديث جاره زاهد عن إضراب عمال الميناء واعتصامهم ومقابلته للمدير الإنكليزي حاملا مذكرة المطالب. يبتسم له صباح بتخابث وهو يمر به كأنه يعلم بنهاية النفق ولكنه راض ببقائه هنا دون أمل بالخروج معهم. على الجميع صمت يوقعه ذلك السرد الرتيب المجرح:

-... مهنة لم أعد أتمناها لابني، تصور: ١٣٩ رأسا في يوم واحد، لا ترى حتى وجوههم وليس لك الوقت لتشحم الحبل أو لتغطي رؤوسهم بالكيس الأسود. عمل بلا هيبة ولا كرامة.. تصور بينهم طفل لم يتجاوز الرابعة عشرة بال على نفسه ورفعناه مثل خرقة وشيخ مات قبل أن يصل إلى المنصة. ولا أحد يربت على الكتف والأجرة هي ذاتها ديناران للرأس.. شغلة وسخة تف!

جدران القاعة التي حفروا عليها أسماءهم وسنواتهم. شم رائحة

الجلود العرقانة التي تنافذت حتى صار كل واحد يشم في نفسه رائحة جاره. البطانيات المقملة التي تنام وتصحو معهم ورائحة الرطوبة التي تشبه رائحة قبر، وتسمع للأنفاس الثقيلة التي تصفر من ضيق الهواء:

-... يطلقون عليهم الرصاص، أي أن كل رأس سيكلفهم خمسة وعشرين دينارا، بينما...

كم من السنوات والأحلام تبددت بين هذه الأشياء الشحيحة التي لا تفصح الآن عن شيء؟ كيف تحمل كل هذه السنوات؟ الفكرة! لم تكن الفكرة دائمة الحضور ولا يستطيع ان يتصل بها إذا أراد، وإذا أراد أن يفند بها ضعفه ستأتيه مشاهد منها. الفكرة أعطته الكبرياء ولكن في السجن متسع من الوقت البطيء لا يملأه شيء غير هذه الرفقة الصعبة. سمع صوت أغنية لا كلمات لها هي أنين متصل. لقد ثمل أبو هاشم وسيبدأ بالنحيب. من إحساسه بثقل صدره أوشك أن يصرخ: ما لكم؟ غنوا!

وراء الستارة الداكنة، خلف أكياس التموين، تحت غطاء مموه من الإسمنت استمر عزيز يحفر بهمة مضاعفة، موقنا أنهم تجاوزوا كثيرا برج المراقبة بكشافاته الضوئية ورشاشة الفيكرز خلف أكياس الرمل وتجاوزوا سياج الأسلاك المكهربة.. يطارده ذاك الصوت البارد الأجش (تصور: شابه بعمرها.. كيف يمكنها أن تصبر عشر سنوات هاه...). للحظات يراها ممددة على السرير الذي غطي بشرشف لماع ومحمر. حمرة شفتيها قانية بلون الدم وكحل عينيها تماما مثل عاهرة. يهرب من هذه الصورة وهو يحفر رغم ألم يشل كتفه. مركزا كل وعيه بهذا العمل الدؤوب الشاق.. يحفر ويحفر متجاهلا تماما التزامه أمام مدير السجن بتلك الورقة المطوية بعناية والمدسوسة بين حجرتين في مرحاض السجن،

متجاهلا تهديده (للكلاب!) لا يريد أبدا أن تعاوده صورة اللحم الطري لا بين أنياب كلاب جائعة ولا وجه زوجته المتوسل: طاوعهم لأجل طفلتنا الوحيدة ! بالتراب المنهال تحت ضربات الإزميل يهيل كل تلك الصور ويدفعها خلفه مع كتلة تراب. لم يكن قادر مخطئا في تقديره، فعما قريب سينهار هذا السقف الأسود و...

التفت إلى الخلف على ربتة كتف وسمع:

- بهدوووووء!

عندما توقف عن الحفر وأخذ يجمع التراب في الكيس سأله مروان:

- ما أول شيء ستفعله بعد الخروج؟

سكت عزيز وارتعشت جفونه من مفاجأة السؤال:

- أن أقتل عشرة منهم.

...

- وأنت ماذا ستفعل؟

وضع مروان أصابعه في قفا رقبته ليتلمس الغبار اللزج الذي يغطي شعره وجلده:

- أنا؟

كان مروان قد فوجئ حين عرف من قادر بأنهم اقتربوا من نهاية النفق، فقد وضع في حسابه أسابيع وأشهر أراد خلالها، وهو يساهم في حفر النفق، أن يخرج من رتابة فكرته هنا في هذه القاعة المقبضة ليتوغل أكثر فأكثر، في حياة رفاقه وأحلامهم مزمعا أن يكتب عنهم فيما بعد. بجهد وصبر تعلم كيف يستدرجهم للحديث عن ذكرياتهم، حياتهم العائلية، وما سيفعلونه بعد السجن. وحتى قبل أن يسأله عزيز كان قد

أجل الجواب الذي جاء بعد فترة صمت قصيرة.

-.. سأدخل حماما دافئا وأبقى تحت الدش ساعات وفي الخارج تنتظرني ملابس ومناشف بيضاء ثم أستلقي على سرير عريض لا يضايقني فيه أحد تغطيه شراشف بيضاء...

أصغى إليه عزيز بانتباه فرح كأنه يرى هذه الأشياء ويتلمسها من وراء هذه ظلمة النفق وحره وترابه الخانق.

- لماذا كل الأشياء بيضاء؟

- لا أدري... ألا تتمنى أنت ذلك؟

- لم أفكر بذلك.

لم يمن عزيز نفسه بالسعادة وهو يضرب بالفأس سقف النفق، بل بالثأر أكثر من الحرية. ومن عجزه يغذي خياله بصور الثأر. لن يقتل أحدا منهم إلا بعد أن يقطعه ويرغمه على أن يأكل لحمه مملحا (هذه من أجل الطفلة، وهذه للمرأة التي أهين عرضها، وهذه من أجل الرجل الذي أرغمتموه على أن يشي برفاقه... ومع تلذذه بالثار يواصل الحفر نحو الأعلى حيث سقف النفق وبساعده يحمي فمه وعينيه من التراب المنهال.

وحين سلم الفأس في نهاية نوبته سيطر عليه فراغ مؤلم فبقي عاضا شفتيه وهو يلهث. يراقب وجه مروان وهو يبدأ الحفر ويحاول أن يخلق لنفسه سعادات كسعاداته، بعدما أذل بزوجته وأذل ثانية بإجباره على الكتابة عن رفاقه جفت مخيلته تماما من أية صورة توحي بالسعادة غير إحساس محرق بالثأر وكأن ما أراده حدث فعلا. عدا ذلك استحضر الشراشف البيض من مخيلة شريكه ورآها خلف هذا الوجه النحيل الذي يهتز مع ضربات المطرقة وقد شف جلده مثل الموتى. كيف كتب عنه في تقاريره؟

يحفر مروان ويغالب الإرهاق بإرادة تؤلم كتفه. يحفر ويمسح بقفا يده العرق الذي يحرق عينيه... حين أراد أن يزيح كتلة التراب اعترضت أصابعه جذور شجرة. تلمسها بأصابع مرتجفة: هل هي جذور نخلة أم شجرة برتقال؟ من أين له أن يعرف الشجرة من جذورها. شبك أصابعه بالجذور يريد أن يوحد نبضه مع نبض شجرة لها تحت شمس ساطعة البياض أوراق مغطاة بقطرات الندى وثمار يغطيها زغب ملتهب بضوء الشمس. كل ذكرياته تجمعت في كتلة من ضوء ساطع بحواف ملونة وهو يمسح العرق عن عينيه ويواصل الحفر يراوده يقين ملح بأن بين هذه الحفرة الخانقة وبين تلك الشمس قشرة خفيفة من الأرض ستنهار بالضربة القادمة فيخترق الضوء روحه كما الزجاج.

* * *

بصق يعقوب على صورته في المرآة وهو يغسل يديه: من فشل لآخر.. هكذا تسير خططه. فقد أراد استدراج الغفاري إلى المخيم حين أوصل له خبرا عن زيارة الرئيس. لكنه لم يأت للمكان إنما أرسل هذا الصبي في مكانه. صبي بعمر ابنه محمود... ومع ذلك أخفق معه. جرب التعليق على العقلة ثم بالمروحة وبعدها على الطاحونة، الفلقة بالخيزرانة ثم بالكيبل، كيس القطط والمرور بالطابور، المنفاخ في فتحة الشرج، صدمات الكهرباء من الحلمتين، في شحمتي الأذنين، الاغتصاب منفردا ثم جماعيا ... وكلما عاود التحقيق معه كان يردد بلا توقف:

- إنا لله و إنا إليه راجعون، إنا لله و إنا إليه راجعون، إنا لله و إنا...

في النهاية مات وهو يختض مثل سعفة حالما وضعوا قراصة الكهرباء

في خصيتيه... الخواء والكآبة زحفتا على صدر يعقوب مثل سحابة من بخار ثقيل كلما صفى واحدا كأنه قتل شيئا في داخله وزادت نهايته قباحة.

- ليس الأمر بهذه البساطة يا وليد، فللرجل أيضا عذاباته...

-...

- تضحك لأني أتكلم عن عذاباتي؟.. الأمر ليس بالسهولة التي تتصورها، فقد بدأت روحي ترفض الطعام منذ البارحة مستفرغا كل ما في معدتي، والأسوأ من ذلك إن عانتي بدأت تبرد مع النساء..

- بسبب الصبي الذي مات في التعذيب؟

- لقد بكيته حتى جفت دموعي لأني وعدت أمه التي حلفتني بأولادي بأن أعيده إليها سالما غدا...

كذب فقد سلمها الجثة ساخرا (ها قد أعدته كما وعدتك)!

- لهذا السبب جئتني، لتقص علي هذه الكوابيس؟

- لم تريد أن تكتب عني بدلا من أن تكتب عن امرأة أحببتها.

- مزاجي....

- إذن لا تترك النهاية غامضة بلا حل! كان عليك أن تحسم الأمر أما أن تقتل البطل أو يقبل الكاتب بتغيير النهاية.

-لينتصر الجلاد. هذا ما تريده؟

-.. أنت تحب أن تترك الأمور معلقة غامضة!

-وما الذي حدث للواء محمد العباسي ؟

- العباسي، العباسي.. كما رأيت في التلفزيون.. اعترف مراسله، الذي كان على علاقة شاذة به، بقتله طعنا في غرفة العمليات غسلا للعار، ومع ذلك كنت في الصف الأول من مشيعيه..

- والبقال المسكين الذي وجدتم في بيته القرآن؟

-... آه يحيى! ما الذي حدث له، ما الذي... تذكرت: تماما كما حدث في قصتك عن المحقق والمتهم.

-...

-انقلبت الضحية إلى جلاد.

كنت أمزح فقط حين طلبت منه أن يضرب رفيقه...

- طلبت؟!

قالها وليد باستنكار.

- طبعا كان ذلك بعد جولة طويلة، لكن العجيب هو...

- الضحية استسلمت!

-بحماس جنوني، لدرجة أنني تدخلت بنفسي لأنتزع العصا منه، فقد كاد المجنون يهرس جلد الآخر!

-الخوف.

لم يقل له كيف انخرط السجين بالبكاء بعد ذلك وكيف قبل في النهاية أن يتجسس على المصلين في الجامع الذي يقابل دكانه، فرغم حرارة الحديث احتفظ يعقوب بالخيط الفاصل بين جوهر الموضوع وتفاصيله الواقعة ضمن أسرار المهنة، وكان يراوح بين الاعتراف والدفاع.

- طبعا طبعا.. الخوف وراء كل ذلك. أتعتقد أني افعل ما أفعله للمتعة؟

-...

-لا يا وليد، إنه الخوف من أن يصبح الآخر في مكاني. ماذا تعتقد أنه سيفعل لو انقلبت المعادلة؟

-...

- سيجعل الموت الذي نوفره بسرعة أمنية بعيدة. إنها دورة جهنمية، وما أنا إلا عتلة فيها، مجرد موظف.

لا يدري يعقوب لم يفعل ذلك، لم يتحدث لكاتب مشاغب عن أشياء ينبغي أن لا تقال لأحد. هل بدأ الويسكي الذي يشربه من فم القنينة يفعل فعله، أم أنها الرغبة في الاعتراف التي تعلمها من الكنيسة. مع ذلك استمر يتحدث ويجادل، وحين توقف عن الحديث صدمه وجه عميق الظلال يجمع الخوف والقرف والفضول.

-أعرف ما تقوله في دخيلتك: ومع ذلك فأنت سفاح.

لقد كان يقتل ويعذب خوفا على سلطة لا يملك منها شيئا وليس فيها شيء جميل يجذبه إليها. أصبحت هذه السلطة مجللة بالجثث والدماء، كل مجزرة تستدعي مزيدا من الثارات، وبالتالي تتطلب مزيدا من الضحايا لإطفاء الثارات المحتملة. يمارس القتل كمن يدخل نفقا ضيقا لا نهاية له، إنما يحيله لأنفاق أخرى ويمارس القتل بآلية لأنه لم يعد لديه ما يفعله غير ذلك. يشعر أن نهايته تقترب وتزداد قبحا وإنه بالقتل والتعذيب لا يفعل شيئا غير تأخير هذه النهاية ساعات أياماً أخرى لا اقل ولا أكثر. وكلما زاد سخطه على نفسه وعلى مهنته اتجه هذا السخط إلى السلطة التي يفترض أن يحميها فيدفعها نحو الدمار بمقدار ما تدمره.

كان يقرأ التقارير أمام الرئيس:

- لقد اعترف الآن بالخطة بكاملها، لن ينفذ الخطة بنفسه مادام الشك قد ساورك في أمانته . إنما سيترك الأمر للحارس الذي يفتديك من أمامك. ففي ثالث أيام الأسبوع سينتقل الحارس المكلف بالتنفيذ، وفق جدول الحماية، إلى الخلف، على مبعدة متر ونصف من ظهرك....

فجأة اغلق وهاب وجهه بكفه:

-انتظر!

كان التلفزيون يعرض ضمن نشرته المسائية فلما مصورا عن زيارة الرئيس لإحدى مدارس الأطفال.. محاطا بالطالبات والمعلمات ينثرن الورد عليه ويرفرفن له بالأعلام. بسرعة عجيبة غابت الجهامة المتوترة من وجهه وحلت محلها غبطة طفولية جعلته يتزحزح على كرسيه ويفرك يديه بغبطة وهو يراقب الطفلة التي جلست في حجره وهي تنشده:

- القائد والدنا،

حفنة رز أبيض

وكوب حليب

كان يعقوب يراقبه خلسة بغيظ دون أن يغلق الملف:

-آه لو رأيت براءة عيون هذه الطفلة وهي تنشد؟ براءة مطلقة لا تطلب شيئا ولا تخاف من شيء.. هذا هو الجيل الذي سيخلص بلادنا من فساد الضمائر.

ابتسم يعقوب على مضض وقد ارتعشت يده وهو يعدل النظارة ليراقب القائد وهو يتجول في ساحة اللعب ببدلته البيضاء موزعا الهدايا على الأطفال: (لعبة قذرة!). يريد أن يقدم نفسه للمشاهد كأب عطوف لا علاقة له بالموت والقتل الذي يجري في هذا البلد. يعرف يعقوب ان هناك من يهمس للناس في الشوارع، وحتى للمساجين الذين يعذبون حتى الموت بأن القائد لا يعرف ولن يقبل بالفظائع التي تجري حوله . هذه الزيارات لرياض الأطفال وللجرحى في المستشفيات والدموع التي تسيل من عينيه وهو يزور مخيمات الجوع تعزز هذا الهمس. إذن أنا وحدي

وراء هذه السجون ومصاطب التعذيب وقوائم الإعدام، أنا المسدس الكاتم الصوت الذي اغتال الناس في الشوارع ومن يختطف البنات الباكرات ويغيبهن دون عودة... أنا وحدي من يغوص في الدم بينما يقابل هو السفراء الأجانب ويمنح العسكريين أنواط الشجاعة ويلم الأطفال حوله بين باقات الزهور في عيد ميلاده. غدا إذا ما حانت ساعتي سيأخذ الصحفيين وسيفتح أبواب هذه السجون بيديه ويصرخ بالمساجين الذين أعمتهم الظلمة وغدرت بهم الوعود: لماذا تترددون؟ اتركوا زنازينكم، أنتم أحرار منذ اليوم! سيتسابق الصحفيون والكتاب، ومنهم أنت يا وليد، في رواية الفظائع التي شهدتها هذه السجون دون علمه. أليست هذه هي النهاية التي خطرت ببالك يا وليد ... لن تكتمل هذه النهاية! سيكون يعقوب الضحية التالية إذا انتصر أحدهما، الأصل أو الشبيه، ومع ذلك ينبغي أن يضرب ضربته. يدري أن نسبة نجاح خطته لا تزيد عن عشرة بالمائة، ولن تكون له حصة في السلطة التي تلي لأن الكل يجمعون على كراهيته، هو السجان والمعذب والقاتل، ومع ذلك سيمضي في خطته بحيث يقتل الشبيه شبيهه، لا طمعا في سلطة، إنما رغبة في الخراب بذاته والانتقام دون فرح.

* * *

شيئا فشيئا بدأ مجيد يتلبس الدور. لاحقه المدرب الألماني حتى تخلص من تلك الخطوات العجولة التي تريد أن تسبق الرئيس إلى الموقع، وتعلم السير على إيقاع خطوات الرئيس المتوسطة الممدودة، وتخلص من تلك النظرة الزواغة المتحركة الباحثة في الزوايا ليرسل نظرته المتعالية الذاهبة إلى ما وراء المرئيات. تابع شريط الفيديو عن

حركات الرئيس مرات ومرات، حتى تعلم التحدث مع مخدوميه بنظرة تجمع المكابرة والملل دون أن ينظر في وجوههم. أصعب ما تعلمه هو أن يجمع كل إرادته ومصادر قوته الغامضة في عينيه ليحدق في المقابل دقائق في نظرة الوعيد التي تسلب الآخر كل قواه...... بدأ التطبيق بزيارة مزرعة للدولة غطتها الرمال حتى آخر خيارة، ثم تسلم أوراق اعتماد السفير البوليفي، وذهب برفقة خبراء أجانب ليرى نتائج التنقيبات عن النفط. بعد الزيارة ذهب للرئيس مبديا التعب من هذا الدور الصعب متوسلا العودة إلى دوره الأصلي كجندي في الحماية:

- لا تنس ولا مرة واحدة أنك أنـــا ولست أنت.

لم ير مجيد الشك في عيون من التقاهم لأن أحدا لم يجرؤ على رفع رأسه نحوه عن قرب، ولم يسمع قط تلك الهمسة التي حذره منها المدرب الألماني: (لم يكن هو نفسه)! على العكس كانت ابتسامات التملق التي تطالعه حيثما ذهب تزيد ثقته حتى تخلص من ارتباكه وهو يمثل شخصية أخرى أو يكون بديلا لها. فقد دخل الشخصية حتى تيقن أنه صار (أنا!). يقف أمام المرآة ويصك أسنانه محدقا باحثا عن مجيد ملا هادي... طويلا يحدق فلا يطالعه غير وهاب عبد المولى. شيئا فشيئا فقد حتى حنينه السابق إلى ذاته. أول تجربة خاضها لإثبات قدراته هي زيارته للجبهة ولقاؤه كبار الجنرالات في غرفة العمليات. ومن عجبه أن اللواء محمد العباسي الذي كان معلمه في دورة الاحتياط لم يتعرف عليه، إنما قدم له تقديراته باعتباره الرئيس:

- لا يمكن يا سيدي، فالريح لا تخضع لأوامرنا، وقد تغير اتجاهها فجأة فتسحب الغازات السامة نحونا.... لو تحتم علي أن أفعل،

سأترك مهمتي لمن يتحمل المسؤولية عن أرواح أربعين ألف مقاتل.

لكم تمنى وهو يصغي إليه أن يؤدي له التحية كما كان سابقا.. ضابط صغير في وحدته.

لكن دوره يملي عليه أن يكون الآمر.

الإصغاء العميق وابتسامات التملق الحلوة التي قوبل بها من كبار العسكريين أسكرته لدرجة انه صدق الدور وفصل ثلاثة عقداء على مسئوليته. وحين دخل الدور ونجح في المهمة بدأ بممارسة دور الرئيس وفق التعليمات فتسلم أوراق اعتماد ثلاثة سفراء جدد وزار الأكاديمية العسكرية وفتش وزارة التموين مرتين مهددا الوزير بالويل إن هو عجز عن حل مشكلة الطحين.

عرف أنه يمثل دور القتيل وهو يتهيأ لزيارة المخيم، ومع ذلك صار هو (لا تنس ولا لحظة واحدة أنك لست أنت، إنما أنا!). ومع إحساسه بالموت لبس قناع التحدي. الوزير وضع سيناريو الزيارة مسبقا: سيبكي وهو يزور قبور الأطفال الذين ماتوا في اليوم نفسه وسيوزع العصيدة بنفسه على الأحياء منهم ويصرخ بوجوه موظفي الإغاثة الذين يسرقون طعام الجياع ليبيعوه في السوق السوداء. الحماية ستطوق المسرح وتهيئ الشيخ الذي سيحاول أن يقبل يده وهو يبكي والمرأة التي سترفع رضيعها إليه، بعد غسله وتعقيمه، ليقبله ويمنحه اسمه (وهاب). سيدخل الكوخ بأريحية كأنه بيت طفولته ويتمدد على الحصيرة ممازحا العجوز المقعدة. وفي الساحة المتربة سيزرع شجرة تثمر خلال أيام. وقد لقن الجميع بما سيفعلونه بحيث يتاح للقائد وجمهوره أن يمثلوا الحدث معا .

حال وصول المخيم احتلت قوات الحماية سطوح أبنية الإغاثة

وسيقانهم مفروجة كالبراكيل وقد تدلت الرشاشات من أعناقهم في تقاطع أفقي تحت الصدر بينما عيونهم تبحث في الحشد الهائل الغارق في الأسمال عن واحد سيغادر الحشد ويخترق حزام الحماية ليلقي قنبلته صارخا ((الله اكبر!)).

صعد المنصة بخطوات الواثق من إطلالته على الحشد، ماسحا هذا الحشد المصفق الهادر بتلك التحية الحادبة كمن يهدهد طفلا. ليس في الأمر معجزة كما تبدى له سابقا فقد كان الجمهور مهيأ لأن ينبهر وينفعل مع الهتافين، بل إنه اضطر لأن يقاطع التصفيق والهتاف ليكمل كلمته. لقد دخل الدور تماما وأصبح إياه. لم يصدق الآخرون وحدهم اللعبة، إنما هو أيضا.

كان الوزير قد أعد له الخطاب بكلمات مطبوعة بحرف ٢٠ بولد، كل سبعة سطور في صفحة واحدة ووضع الحركات على الحروف بالقلم الأحمر:

- قد لا تكون هذه الحرب مفهومة لكم، لكن الأجيال القادمة ستكون أكثر كرامة...

ثمة صبي كان يخرج إلى الساحة بحماس يشبه العصاب، ليلوح بيده هاتفا:

- القائد خبزنا!

فيرد الحشد الهتاف رافعا طاءاته في الهواء:

- القائد خبزنا!

نحيف وذابل لا يصلح أن يكون قاتلا، ومع ذلك فتشت الحماية أسماله، لكنهم أغفلوا القنبلة اليدوية المعلقة في ذيل جلبابه الرث وهي تطرق عظم رجله. أحاطوا القائد بحركة دائرية متبادلة وقد استثارهم

الحشد الهائل المفروش على امتداد البصر فراحت فوهات رشاشاتهم تتابع العيون وهي تتفحص القاتل المتواري في الحشد بين هذا الكدس الهائل من الأسمال المتحركة. في الصف الثاني من الحشد رجل متوار لا يظهر منه سوى نصف رأسه، له نظرة غاضبة تتجه نحو الرئيس بالتحديد. عليه تركزت أنظار الحماية، ولذلك لم ينتبهوا حين مالت قامة الصبي الهتاف ليمسك القنبلة بإصبعي قدمه اليسرى. و بدا وجه القائد مدلهما متسائلا وقد تركزت عيناه على ذاك الواقف بجمود غريب في الصف الثاني. لم يقلّص وجهه كمن يوشك أن يصرخ؟.

الهتافون المنفعلون يلوحون بقبضاتهم:

- عاش القائد!

فيأتي الرجع واهنا لا علاقة له بالحشد:

- عاش عاش..

- عاش المنقذ!

- عاش عاش!

وحين أراد أن يحيي الحشد ضايقته شجرة جافة تمتد أغصانها أمامه كمخلب نسر. وقبل أن يتكلم تفحص جمهوره عارفا ما يريد بالضبط وقد رأى طاسات الطعام الفارغة ممدودة إليه على طول الطريق. عليه أن يتحدث لهذا الركام الآدمي بوعود مباشرة:

- لا أعدكم كما وعدكم الآخرون، إنما سأبدأ العمل الآن. انظروا خلفكم!

التفت الجمع إلى حيث أشار فارتفعت دمدمة وصراخ:

- وووو...!

على امتداد الأفق كانت ألسنة النيران التي تسفها الريح تلتهم المخيم. ومع الريح تتطاير خرق محترقة. الذهول أولا خيم على الحشد وهو يسمع القائد يردد خلفه.

- خيام العار هذه ستنتهي إلى الأبد، فحدود الوطن تناديكم!

لكن نداء قطع كلماته:

- الله أكبر!

فمالت السماء حين هز الانفجار المنصة.

- خيانة!

- أين الرئيس؟

- امسكوه!

لكن هذه النداءات ورصاص الحماية خنق في الحشد الذي انقلب مع أسماله وسط الغبار الكثيف ودخان الحريق.

* * *

على طول الطريق الترابي الذي سلكوه عند عودتهم بقي ممسكا بقبضة الباب ويده ثابتة على المسدس في حزامه. يمط جسمه من ضيق تنفسه ضاغطا يده على المسدس في حزامه يريد أن يمتلئ بحقيقة وجوده هنا.. ينفض رأسه من الكابوس ويضرب المقعد الأمامي بقبضة يده مبربرا مع نفسه بصوت مسموع:

- الشجرة...الخيانة... الموت... أقرب مما توقعت...

ودون إرادة منه يتدفق سيل من الصور لا يترك له فكرة: الصبي الهتاف الذي زاغ بلمحة عين من طوق الحماية. أغصان الشجرة الجافة تحركت كقبضة ميت وارتمى عليه مع الانفجار جسد ثقيل أغلق كل منافذ الرؤيا ثم...

الغبار ورائحة البارود وكدس هائل من الأسمال. قطعة حديد براقة شقت الهواء قرب أذنه اليمنى؟ ولطخ الدم على الجدار! أزاح الصور واستدعى الغلام وحده: يداه كانتا عاريتين ولكنه مال إلى الأرض كأن شيئا يؤلمه. لوحدهما كانا داخل الدائرة والحماية ذاهلة. كنت أعرف أن شيئا كهذا سيحدث! لقد هيأوا المقتلة وأرسلوا لها هذا البليد الجالس على مقعدي.

قال دون أن ينتظر جواباً من مرافقه المتأهب في مقدمة السيارة، مائل إلى الأمام يتحرك في مقعده ملتفتا يمينا ويسارا والى الخلف متابعا في الزوايا والمنعطفات الفرعية كتلة سوداء أو شخصا سيقفز معترضا موكب الرئيس، ففي هذا الجو المنذر يبدو كل شيء عدائيا وقابلا للانفجار أو لإخفاء قناص.

* * *

البداية جاهزة في ذهنه (صرخة، صرخة طويلة) . ولكنه افتقد الشخص والمكان. لذلك تتبع وليد سيرة القائد منذ الطفولة. سافر إلى تلك القرية التي ولد فيها عبر نفس الطريق الذي قطعه الصبي بسيارة مضعضعة. ملتصقا بأمه التي لا تكف أمه عن البسملة مستعيذة من طول الطريق وعاديات السفر، والركاب حوله خائفون من سلابة ملثمين يقطعون هذا الطريق ببنادق مشرعة ويطلقون صرخات حيوانية لا معنى لها آمرين الرجال بأن ينبطحوا على الأرض أو يصطفوا ووجوههم باتجاه النخيل ثم يأمرونهم بإلقاء عائدات المواسم ورواتب معلمي القرى في عباءة سوداء مفروشة على الأرض، ومعهم نساء ملثمات يفتشن ملابس النساء و أقمطة الرضع باحثات عن قطع ذهب مخبأة. هذه المشاهد التي رآها وهو صبي وزرعت في نفسه ذلك الإحساس الذي لم يفارقه أبدا

بغدر الطرق والخوف من المجهول. استلقى في نفس المكان الظليل تحت شجرة النبق و مست وجهه نفس الريح المنداة بماء النهر وأصغى لتلك الأغنية الرتيبة الحزينة التي يغنيها خشب الناعور الذي يدور رافعا القدور من البئر. على اليمين تلك الخربة حيث رأى الصبي المشهد الذي غير حياته: جثة امرأة يعرفها من العشيرة ذبحت أمام عينيه غسلا للعار.. لقد لازمه العنف منذ طفولته . قاس؟ نعم! ولكن لذلك سبب : طفولة بلا طفولة فقد ولد بعد أسبوع من مقتل والده في سلسلة الثارات بين العشائر، ومنذ بدايات صباه دأبت والدته التي لم تنزع ثوبها الأسود على أن تعيد القصة أمامه مرارا:

- كان والدك يعرف قتلته ويراهم كل يوم ويتابعهم كذئب، لكنهم غافلوه وهو يتوضأ بعشرين طعنة خنجر ففاضت الساقية بدمه...

كلما وضع اللقمة في فمه أو شبك يديه خلف رأسه تذكره الوالدة:

- دمه أمانة في عنقك .

تلقى أول مسدس وهو في الثانية عشرة من عمره وحالما نبت الزغب على شفته بدا يعد نفسه للثأر متابعا خطوات قتلاه، الطرق التي يرتادونها بين البيت والمزرعة، ومن المزرعة للجامع، وخروجهم للسوق.. يتابعهم ويحفظ في مخيلته المواقع التي سيطلق منها النار ويسد عليهم منافذ الهرب والاحتماء، والطريق التي سيتبعها للهرب حال مداهمة الشرطة والمكان الذي سيخفي فيه البندقية. بعد سنوات من الترقب أطلق النار على الرجل وابنه عند نفس ساقية الوضوء التي قتلا عليها والده.. قسوته إذن من قسوة العالم الذي نشأ فيه. ومع ذلك ففي داخله رقة طفل، فقد فاضت عيناه بالدموع حين ماتت بقرتهم الوحيدة وهي

تلد...لم يكن مجدا في دروسه، فقد استهلك العمل المبكر كل وقته، ومع ذلك لم يخطئ في الإجابة على أسئلة المعلم. لن يسأل عن سر ذلك بل سيكون أمينا لشهادة معلمه:

- علامات القيادة بدأت عنده مبكرا، فقد كان يتجول في ساحة المدرسة وخلفه صف من الأتباع الطيعين، وكانت العصا عقاب من لا يطيع أوامره.

سيزور قريته أولا ليرى تلك الأرض التي أصابها الجفاف وماتت قطعانها عطشا قبيل مولده، وسيتفحص البيت الذي ولد فيه تحت نخلة ضامرة وسيلتقي طلاب مدرسته في مزارعهم أو معسكراتهم ليترسم علامات الزعامة المبكرة.

- له يا وليد ذاكرة عجيبة تشبه المعجزات. لن ينسى كائنا أساء له حتى ولو في طفولته، معلما عاقبه بفلقة أمام زملائه، صحبا عرفوا بعض عوراته، موظفا عجوزا تعامل معه بإهمال أيام صباه، صاحب دكان باعه شيئا أغلى من ثمنه، صاحب فندق لم يصبر على ديونه، شرطياً ضربه خلال سجنه... صورة أي واحد من هؤلاء ستنبثق فجأة في ذهنه حتى ولو كان في حمأة العمل، فيرسل من يبحث عنهم حتى يجدهم ولو شاخوا، أو يجد أولادهم إذا ماتوا. سيلح عليهم، بالتفاصيل الدقيقة، بالمكان والساعة، والشهود:تذكر، كان ذلك في رمضان، وكنت ترتدي جبة بنية اللون وعلى كتفك منشفة، قلت لي بالحرف الواحد...يظل يحفر في ذاكرتهم بمرح طفولي حتى يقولوا:آه تذكرت أن شيئا كهذا حدث في سنة الجراد الأسود.نعم بالضبط.. آنذاك يشير بطرقعة أصابعه لحارس متأهب ليأخذه فيغيب تماما.

سيحرك هذه الذاكرة ليصل إلى التفاصيل بدقتها، والأمكنة، والضوء والريح. ولكن قبل ذلك سيقول له فكرته: لا تتوقع أن ترى نفسك في الرواية تماما كما هي، إنما كما أراها أنا!

لذلك قرر أن يبدأ برسم صورة البطل ثم يجد فيه ما يوافقها:

- رجل مثلك لا يصح أن يرتبط بزمان ومكان، سأطلقك خارج الزمان والمكان.

بدا بالإطار راسما للقائد قصرا أقرب إلى الصرح. لخص فكرته الأساسية (صورة مصغرة للكون وقد جمع في بيت). من الخارج بدا القصر مثل نجمة تحيط بقبة تقع على تل صخري يشرف على المدينة من وسطها. القابعون في بيوتهم خوفا من عودة السفاح، المطلقات اللواتي نزفن آخر قطرة عافية وهن يتابعن قضايا حضانة الأطفال، الهياكل الآدمية المهاجرة من الأرياف التي زحفت عليها الرمال والملح، الأمهات اللجوجات الباحثات عن الأبناء المفقودين في جبهات الحرب، العاطلون في المقاهي المراهنون على ضربة حظ في النرد ليأكلوا لقمة يومهم، المساجين الذين أخرجوا من زنازينهم إلى حقل الرماية. الوزراء وقادة الجيش وقد بنيت لهم فيلات متدرجة حسب المراتب على المنحدر الواصل بين صرحه والمدينة .. كل هؤلاء وغيرهم سيتجهون بأملهم لذاك القصر المضاء بأنوار الكشافات باعتباره قبلة المحتاجين. أما المتآمرون في أوكارهم السرية وأوراقهم المسمومة الصفراء، والذين يجهزون العبوات الناسفة منتظرين بقلق مرور موكبه الخاطف، أو العسكريون الذين يجهزون في العتمة خارطة الانقلاب عليه، فسيبدو القصر بأعمدته العالية العريضة وجدرانه العالية المحروسة مزاغلها بعيون حراسه راسخا مثل القدر.

* * *

بعد الحادث اقتنع وهاب بأن يعيش في قصر يعطيه المهابة التي تليق به كقائد ومنقذ أمة وهاديها بدلا من أن ينام بملابسه العسكرية في مكتب الأمن أو في تلك القصور القديمة التي لها رائحة قبر والتي ضمت ودفنت كل الرؤساء السابقين.. سأل عن أعظم مهندس في العالم، محددا طلبه: المهندس الذي بنى أفخم قصور الملوك والرؤساء. يعقوب نصحه:

- لا حاجة لأن تبحث عن مهندس غريب سيعرف مداخل القصر السرية ويسرب الخرائط للجواسيس. لدي هنا في القبو الذي تحتي مهندس يفوق الجميع، درس في إيطاليا وإسبانيا. هو الذي بنى جامع الدولة في باكستان وقصر سلطان بروناي وملك إثيوبيا وصمم هذا المكتب. تفرج القائد على قصور الملوك من جيرانه والجيران الأبعد أراد أن يفوقهم حجما وشكلا.رأى صور قصر وندسور:

- مقبض مثل كنيسة موتى...

ورأى القصر الأبيض:

-يشبه محطة قطار.

في النهاية قبل الصرح وفكرته وشيده أكثر من ألف سجين خلال عام ونصف، ثم غابوا عن الوجود مع أسرار القصر و مداخله. يضيع القصر على الرائي كلما اقترب منه، من الجو لأنه موه بأربعة منائر من القاشاني الأزرق تنتهي كل واحدة منها بهلال ذهبي. من الأرض ستكون الرؤية أصعب بسبب الغابة الكثيفة من أشجار الحور. لذلك تكاثرت الشائعات.. بعضهم يقول إن للقصر مدخلا واحدا لا يعرفه غير القائد وثلاثة فقط من أقرب مرافقيه، مدخل سري يعبر المدينة كلها والحقول المحيطة بها ويخرج من قريته برنابا، آخرون، وعن لسان بناء شارك في

تشييد القصر ومات مسموما، يقولون إن المدخل يمر تحت ماء النهر نحو الجزيرة المحرمة حيث المطار السري المتواري بين أحراش القصب والطائرة المنتظرة دائما. لكن أحدا لم يقترب من الغابة ولا من سفح التل لأن نمورا من البنجاب و أسودا من إثيوبيا تتجول قرب سياجه المكهرب وتطلق زئيرا موصولا طوال الليل، لذلك لم يلحظ أحد أن الفتيات اللواتي تنشر صورهن في الصحف الرسمية كل يوم كمفقودات كن ينقلن معصوبات العيون ومنبطحات في قاع سيارات معتمة الزجاج تدخل طريقا ضيقا وسط غابة الحور إلى القصر السري.. سيفحص الطبيب المختص بالقصر كل جزء من الفتاة المخدرة المخطوفة ليتأكد من سلامتها من أية أمراض معدية، ودون أن تنطق كلمة واحدة سيحرر لها إمام جامع القصر عقد نكاح سريع، وسيحسب سكوتها علامة رضى.

من داخله تتوسط القصر قاعة دائرية محاطة بأعمدة مرمرية جلب حجرها من جبال كارارا في إيطاليا، تعلوها أسود فاتحة أشداقها بكل الاتجاهات تحمل سقفا يأخذ النظر عبر مقرنصات متتالية، عاليا عاليا نحو قبة دائرية تتوسطها نافذة دائرية تدخل صورة السماء بشمسها الساطعة، بسحبها المتغيرة الألوان والأشكال حسب الفصول وسرعة الريح، بغروبها المحمر،بمجراتها و نجومها البراقة، وتعكسها على فسقية تتوسطها نافورة من نفس الأسود الفاتحة الأشداق يتدفق من فمها ماء أحمر اللون. أرض القاعة مرايا مرمرية تعكس قامة السائر عليها حين يهتف صائحا:

- أنـــا!

فتردد أرجاء القاعة صيحته:

-أنا، أنا، نا، نااااااا.

يعود متعبا من هموم دولته المنحوسة ويقف لحظات مغمضا عينيه متسمعا لوشوشة الماء الخافتة لتبرد أعصابه ثم يمد يده إلى الماء، كما كان يفعل في البركة أيام طفولته، ويبلل وجهه.. آنذاك تقفز واحدة من جواريه المتواريات بين الأقواس و الأعمدة، بثوبها الأبيض الهفهاف وأقدامها الحافية فتفرد المنشفة أمامه. و تأتي الثانية إلى غرفة نومه فتفك حزامه وتنزع حذاءه، وبعدها ثالثة تحمل وعاء الماء الفاتر ليدخل قدميه بينما تحمل المنتقاة لهذه الليلة مهفة ريش تحرك هواء الغرفة الفاتر. سيفيق من غيبوبته ليسأل بوهن وهو يتمدد على فراشه واضعا المسدس الصديق تحت وسادته:

- ما حكاية الليلة؟

- كان هناك ملك جميل يسكن قصرا...

لن يسمع الحكاية حتى نهايتها، سيقاطعه هاتف الطوارئ:

- نفس الأخبار السيئة؟

يسمع التقرير وهو يتابع بطرف إصبعه الخط البني المزغب على طول بطن الفتاة المبتلة الشعر والأثداء والمرتجفة على السرير. يتسمع للتلفون بعصبية و يفرك حلمة الفتاة بين إصبعيه حين تهتز الغرفة ويمسح المدينة للحظات ضوء محمر شاحب ودوى الأنفجار:

- كسسسسسسس...

وينهض تاركا الفتاة مقطوعة بين حكاية مبتورة و لذة لم تكتمل وهلع بارد مكبلة على السرير حتى لليلة التالية.

حين لا تقاطعه المتفجرات ولا تلفون الطوارئ ينام قبل أن تصل إلى لب الحكاية:

-... ملك كل شيء، بلاد غنية واسعة، قصور بنيت من العقيق والحجر، جوار ما أجملهن، لكنه لم يسترح يوما في فراشه وهو يحدق في السماء ساعيا لأن يمتلك القمر...

تقص الحكاية حتى يدركها الصباح فتغيب ولن تعود مرة أخرى.

في أيام استراحته وبين فترات تأمله يخرج إلى بركة السباحة ليتفحص جواريه على ضوء الكشافات المسلطة، ويختار واحدة أو اثنين، حسب المزاج ويلقي البقية لحراسه حسب مراتبهم.

* * *

البداية جاهزة (صرخة، صرخة طويـــــلة...) وقد أعطاه الوزير مفتاحا مقنعا عن الفارق الواهي بين الخوف والإجلال، تمسك به وهو يقطع الشارع العريض الطويل المؤدي إلى القصر بين الدبابات القابعة في الشوارع الفرعية والحرس المحدقين به من الجانبين وهو يسير بينهم باستقامة متصلبة (رئيسكم طلبني وأنا ذاهب إليه) وكان مزمعا أن يبدأ الحديث بمقدمة قصيرة عن الرواية والسيرة وكيف سيخضع الروائي السيرة لرؤيته الخاصة:

- لا تتوقع أن أكتب سيرتك كما هي، إنما كما أراها أنا!

سيقول ذلك كبديهة وعلى القائد أن يتقبلها وقد يقول إذا أراده أن يكتب شيئا جادا يختلف عما يكتبه سيل المادحين. ولكن حالما دخل وليد البوابة تحتم عليه أن ينزع ملابسه للتفتيش وحين امتدت يد الحرس لتتلمس خصيتيه، أفلتت منه إرادته وحل المستمع محل المتكلم (علي أولا أن اعرف ما يريد)، تاه في الممرات وتاهت معه فكرته وهو يتساءل (لماذا أخذ الحرس جواربه وأعطوه بدلا منها جوارب بيضاء)؟ دقت

الساعة الثانية حين جلس على مقعد جلدي معزول في غرفة الانتظار و بدأ جوع جاف وحامض يأكل طاقته وهو غير قادر على أن يمد يده إلى جيبه ليخرج علبة سجائره ولا على الالتفات ليرى من أي باب سيدخل عليه أو يخرج. فقط يصغي لخطوات ثقيلة تقترب وتبتعد دون أن يظهر أحد ليبدد وحدته وضعفه... قبيل الثالثة بدقائق حين عضته معدته والتوت أمعاؤه، دخل الحاجب بخطوات حذرة مثل لص وانحنى عليه:

-لا وقت لديه للحديث فالوضع خطير على الجبهة! صوت الحاجب المخنوق والحشرجة التي قال بها كلمة (خطيـــر) أفقدته آخر قطرة من إرادته.

لمرات انتظره في غرفة الانتظار حتى أدمن الصبر، وشغل نفسه مع صف من الشعراء العموديين الذين كانوا ينتظرون مثله، ليقرأوا له قصيدة مديح جديدة:

- أنت من أنت؟

أنت ناي الصباح

سيف المحارب

خبز الفقير

أنت للكل كله

والمحال

ورسامون مع حقائب خشبية جاءوا ليرسموا صورته عن قرب:

- لمعة عينيه وهذا العمق الغريب في سوادهما.. سأرسم عالما كاملا، حقولا ومعامل وجيوشا جرارة معكوسا في هذه الدائرة السوداء للرجل الذي رأى كل شيء.

وبين هذا الحشد صديقه المخرج السينمائي الذي جاء ليعمل فلما عن حياته:

- ضربتي في الفلم ستكون اللحظة التي وقف فيها على التل

ورفع فيها يده ليعطي للجيش في خنادقه شارة الهجوم.. سأصوره من تحت وفوقه سماء محمرة من لون الحرائق، سا عرض هذه اللقطة بالتصوير البطيء كأنها تستغرق كل زمن العار الذي سبقه، وأقطعها من خلال فلاش باك تظهر خلالها لبوه بابلية جريحة هي الوطن، ثم أسود سومرية وبابلية تتحرك من عمق التاريخ مع إشارة يده...

منهم تعلم وليد الصبر دون حرج. وكان الجواب الدائم:

- لا وقت لديه!

من الانتظار وصل إلى الحل: ما حاجتي إليه مادامت السيرة قد اكتملت لدي؟ سينحي كراهيته ويراه مثل كل القادة التاريخيين الذين بنوا الدولة بإرادة حادة كنصل السكين. كانت القيادة موهبة طفولة هذا الذي ولد مع سنوات الجفاف حين تشققت الأرض عطشى إلى الماء وإلى نبي جديد. مع واحد من كبار أهل القرية نزل وليد إلى تلك الحقول التي لعقها لسان جارح من الرمل وبدت ذؤابات الحنطة الكاذبة. في هذه الحقول سار ذاك الشاب النحيل الطويل بدشداشته البيضاء ومشيته المائلة وقد شبك يديه على بندقية البرنو فوق كتفيه يسير ببطء خدر ليحرس الحقول من اللصوص الجياع. كان عمه يحذره دائما:

- لا تتردد! أطلق النار إذا لم يجب القادم على صرختك الثانية.

من هنا، من هذه الحقول المظلمة، ومن الحارس الواقف في وسطها متأهب الحواس، محدقا في الظلمة تعلم الرجل أن يرى في كل ما لا يرى عدوه الكامن. خاصة عندما تكون الخيانة في بيته، بل في الباب الذي يلي غرفة نومه.

لم يعرف الحب في حياته، حتى ولا حب الوالدة.. فلا أتذكر إنها قبلتني يوما. كنت في العاشرة حين أخذت تحثني على الثأر لوالدي. وقد دخلت السجن قبل أن أقبل امرأة شريفة. ثم تعرف أنت الباقي...

لم يعرف الحب، لكنه يتهجس الخيانة حتى قبل أن يسمع الوشاية. فقد تابع النقطة السوداء في عيني أقرب الناس إليه وهي تتسع يوما بعد يوم. نبرة صوته بدأت ترتفع ولم يعد يضع كفيه مضمومتين بين ركبتيه حين يجلس جانبه، وما عاد يحني رأسه وهو يستمع إليه بانتظار الأوامر، إنما يتكئ على مسند الكرسي، تماما مثله، مادا ساقيه باسترخاء، محدقا في عينيه بتلك النظرة التي تعلمها منه، يريد أن يسلب منه إرادته. لقد دخل الدور تماما وصار (أنــا). لقد صدق اللعبة وأجرى سلسلة تغييرات في حمايته دون أن يخبره، وبحجة الحماية أحاطه بحراس لا يعرف وجوههم ولا أسماءهم: حراس فوق كل التلال التي تحيط قصره، حراس لصق جدران القصر وعلى جانبي كل الأبواب التي يدخل ويخرج منها، حراس افترشوا حشيش حدائقه أو اختبئوا خلف أشجارها، حراس على سطوح القصر بما في ذلك غرفة نومه. حراس على جانبي الممر الذي يسير فيه بين غرفة النوم ومكتب العمل، حراس يحيطون بركة السباحة التي ينزل إليها عاريا حتى من مسدسه. والبارحة كان يفرك حلمة البنية على سريره حين سمع وقع حذاء ثقيل وشم رائحة سيجاره . خرج إلى الشرفة وهو عار ممسكا مسدسه ففوجئ بحارس غارق في الظلمة، بعدته الكاملة ورشاشته الجاهزة للإطلاق وراء الستارة تماما. بقي قلبه بنبض بقوه وهو يعصر الصبية بيده: غباء غباء غباء ! كيف فاته كل ذلك؟! كنت رهينته وأنا لا أدري. هو الذي يختار حراسي دون أن أسأله. يغيرهم كما يريد دون أن أدري بحراس جدد لا أعرفهم ولا أسأل عن أسمائهم . هو الذي يحدد مواعيد تحركي والطرق التي أرتادها ويختار السيارة التي سأركبها وعلى أي مقعد أجلس، ولا يترك لي فسحة للخلو مع أحد إلا وكان هو أو واحد من حراسه خلف كتفي مباشرة . هو الذي يختار طعامي وكأس الماء الذي أشرب منه والملعقة التي آكل بها، بل يختار لي غرفة نومي ممسكا مفاتيحها بسلسال بيديه. يا إلهي، كيف

فاتني أنه يمسك كل مفاتيح موتي أو حياتي هذا الحارس والشبيه!؟. فقد ضيق الحصار عليه حتى صار يرى الموت أقرب إليه من ظله.. بعين حذرة يراقب فوهات الرشاشات التي تتقدمه أو على جانبيه أو خلفه ويتوقع اللحظة التي ستنطلق منها النيران نحوه بدلا من أن تحميه.

وحين قال له بعتاب حازم:

- لماذا أخفيت كل ذلك عني؟

غمره عرق الموت البارد وهو يدري إن الأمر قد تجاوز العتاب والحلول الوسط. فقد بدأ الشك يساوره وليس بعد الشك غير الموت. لقد لمس ذلك من لمعة العينين اللتين أوشكتا أن تلمساه حين كرر:

- لم؟

إنها النهاية! قال مجيد وهو حبيس غرفته يراقب من التلفزيون احتفال القائد بعيد ميلاده.. كل الوزراء وقادة الجيش لبسوا وزوجاتهم أجمل ما لديهم ودخلوا صالة الاستقبال يحملون أكاليل الورد التي غطت جدران القاعة، الشعراء جلسوا في زاوية قرب الباب في خمسة صفوف من الكراسي، حسب العمر والأهمية، يتطلعون إلى القائد بوله ممسكين بأيد متعرقة خجلا قصائد بانتظار أن يشير لهم الوزير الجديد بإصبعه ليقرأوا:

- شمسنا أنت وخبزن، الخصوبة!

المغنون جلبوا من كل بلاد الدنيا ببدلاتهم البيضاء ووردادتهم البنفسجية مع راقصاتهم على رؤوسهن شمعدانات تحمل شموعا بعدد سنوات عمره، تحتهم الأطفال الذين تفوقوا في الدراسة حاملين زهورا تتوسطها صورة القائد.. الكل عداه هو الشبيه الذي تملي عليه اللعبة أن يكون بديله في الموت لا في المسرة.

- إنها النهاية! يدمدم مع نفسه تاركا كراهيته تصعد من أصابع قدميه حتى صدغه الذي ينبض من الغضب عبر يديه المضمومتين على كرة

من النار. نهاية واحد منهما. كلاهما عرف اللعبة حتى نهاياتها: كيف يقتل الخصوم بسم الفئران في وجبة الكباب، وبالسيارات التي أعدمت فراملها، بطعنة سكين من الخلف تسجل على أنصار الغفاري،بالسيارات الملغمة.. هذه ا لأسرار تقف الآن بينهما ولذلك ينبغي أن يقتل واحد منهما. وما دامت الأمور وصلت حد الموت لم إذن لا يكون (أنا) مادامت هذه وصيته؟! هذه الفكرة انبثقت في ذهنه من الموت الذي يلاحقه حيثما ذهب في صورة صبي بدشداشة بيضاء قصيرة يعترض موكبه حيثما ذهب:

- لم تضحك؟

لقد رأى هذا الصبي الذي يخبئ قنبلته تحت جلبابه حيثما ذهب، كأنه هو الذي قال له: لم تصر على أن تكون الظل حين يكون لحمك أصلب من لحمه. لم تصر على أن تكون إياه حين يصغي لك الجنرالات أنت العسكري المحترف ويصفق الناس لك أنت وليس للمتواري عنهم في قصره. وقد استهدفك الغفاري أنت بالذات وسيسيل دمك أنت إذا وقعت الواقعة. لم تتوارى إذن خلفه؟

الخطة بسيطة للغاية. أنت الوحيد الذي يملك مفتاح بيته وغرفة نومه والمرأة التي ستشاركه سريره، تعرف ساعة نومته وساعة يقظته والساعة التي يدخل فيها الحمام عاريا من مسدسه. والأهم أنت تعرف الحارس الذي يسير أمامه: شقيقك الصغير. ولك وحدك سيصغي هذا الحارس إذا طلبت منه أن يدير فوهته. ما تبقى هو الوقت. عليك أن تختزل الزمن لتتغدى به قبل أن يتعشى بك. فعاجلا أو آجلا سيعرف ما في دخيلتك. من رعشة عيونك حين ينظر إليك، ومن نبرة صوتك حين تتحدث إليه، ومن جملة أخفيتها عنه.. آنذاك لن يتردد لحظة واحدة. أقتل شبيهك إذن قبل أن يقتلك. وكن أنت وحدك الرجل والشبيه!

فكر بسرعة، دون أن يتوقف لحظة، لا في الليل ولا في النهار. فكر

بأن يستبدل حبوبه المنشطة بحبات زئبق، أو يدس سيارة ملغومة بين قافلة الحماية، أو أن يفتح ثغرة لواحد من الملتحين،أو يسرب سكينا مسموما للمرأة التي تنام الليلة في فراشه. يستعيد الخطة ويحاورها وينفيها من ثغرة في داخلها... حتى في نومته تتجسد الخطة وكأن ما ينبغي أن يحدث قد حدث، وأحيانا يفز من كابوس إن الوقت قد حاصره أو فاته وإن العكس قد حدث. يجلس في السرير مبللا بعرقهِ مستعجلا نهار الوضوح.. لن يقتله بنفسه مادام الشك قد ساوره. إنما سيترك الأمر للحارس الذي يفتديه من أمامه. ففي ثالث أيام الأسبوع سينتقل الحارس، وفق خطة الحماية، إلى الخلف، على مبعدة متر ونصف من ظهره. هو الذي سيناوله المنشفة حين ينزل لبركة السباحة. من الممكن إذن أن يخفى المسدس الكاتم الصوت تحتها، أو أن يطلق النار عليه في لحظة الخدر التي يغمض فيها عينيه وهو يغرف من ماء النافورة. ولا يحتاج لأن يكاشف الحارس بالفكرة، إنما ستأتيه لوحدها كما الوحي حين يذكره بمقتل شقيقه ويعطى ضمانة مكان في السلطة القادمة.

- الآن عرفت .

قالها وهو يحس ببرد من ينزل إلى هاوية، سر تلك القصص الكثيرة حول محاولات اغتياله بحبة زئبق تدس بين الحبوب المنشطة التي يقدمها الطبيب الخاص، الإبرة المسمومة في الفراش تدسها واحدة من المرشحات لسريره أو تابوت سيعترض موكبه فيقفز منه واحد من أعوان الغفاري مدجج بالعبوات الناسفة. الآن عرفت سر عربة الخضار التي انفجرت في طريق الموكب... بهذه القصص تحكم بطعامه ونسائه وطريقه.

ليس الأمر مجرد وشاية، إنما هو أمر أكيد، وحتى لو لم يكن متأكدا تماما، فإن الخطر لا يسمح بانتظار البراهين، سيضرب كالعادة، ثم يتأكد لاحقا . قبل أن تقع الواقعة بدأ يتملص من حراسه فيرسلهم في

عمليات اغتيالات لخصومه خارج البلاد أو لضباط محسوبين على اللواء محمد العباسي أو يرسلهم لجبهات الحرب لسد الثغرات هناك ويستبدل حراسه بآخرين من أقاربه يعرفهم، ومع ذلك لم يثق بمن حوله، فوضع حرسا على الحرس، يتابعون حركتهم ويتسمعون لهمساتهم ويحرسونه من حرسه.. كل ذلك قبل أن يضرب ضربته.

- ينام مغمضا عينا واحدة.

قال يعقوب لوليد، عينه الأخرى على الباب، عين تكشف البواطن وتريك الغادرين قبل أن يفكروا بالغدر. لقد تعلم ذلك من صباه حين يحرس الحقل ومن عمه وهو يوصيه: أطلق النار فورا حين لا يجيب القادم على سؤالك الثاني.

- سنكتب الرواية معا يا سيدي.. منك السيف ومني القلم، منك الأفعال ومني الكلمات...

تتبع خطاه على جبهة الحرب. لابسا خوذة جندي، منبطحا وراء أكياس رمل يراقب بالناظور تحرك العدو ثم يلتفت ليعطي توجيهاته للقادة الميدانيين (يا إلهي كم هو قريب من الموت؟!). رآه ثانية في المخيم طويلا ثابتا مثل فحل حقيقي، يرقب الجمع، عارفا أن قاتله بينهم، ومع ذلك صعد المنصة ماسحا الحشد بنظرة تجمع الوعيد والامتلاء: ها أنا!

رأى النار التي أحرقت خيام الجوع ديكورا مثاليا له حين قال: الوطن يناديكم!

حين أوشك وليد أن يكتب همس يعقوب في أذنه:

- حذار من أن تخلط بين الرجل والشبيه!

تاهت عليه الصورة وقد اختلط الاثنان فوضعه أمام المرآة. لم يكن جميلا كما تصور نفسه، بل حائرا يرتدي بدلته: أيهم أنا؟

- كيف لي أن أعرف؟
- انتظر!

* * *

كل أبناء عشيرته والعشائر المتحالفة معها.. مهربو الحبوب والأغنام إلى الخارج والتلفزيونات الملونة الدائرية إلى الداخل، سارقو مساعدات الإغاثة والمتاجرون بالمعلبات الفاسدة والسجائر الأجنبية، الذين يغرفون رمال الشاطئ بالجرافات ويبيعونها لأصحاب الحدائق، والذين يبيعون لأبناء الأغنياء دفاتر الإعفاءات من الخدمة العسكرية، الذين يغلقون أنابيب الماء ليبيعوه في قناني ممهورة بماركات أجنبية كاذبة، والذين يتعهدون صرافي السوق السوداء مقابل نسب في الأرباح ومن يساعدون التجار على تهريب أموالهم إلى الخارج مقابل عشرة بالمائة تودع في حسابهم الخاص في بنوك أجنبية.. كل هؤلاء وغيرهم جاءوا مع الإنذار حين بث التلفزيون رقصة الشمعدان لنجوى فؤاد المتفق عليها كشفرة للإنذار جيم... حملوا رشاشاتهم وتدفقوا من الأرياف والصحارى الواقعة على حوافها بسيارات فارهة مزينة بحروز ملونة و أحجبة جلدية وكف الحسد التي تتوسطها عين، واحتلوا منذ الصباح الباكر كل أرجاء هذه المدينة القحبة المليئة بالغدر: محيط القصر وكل الطرق المؤدية إليه، التلفزيون والإذاعة مجبرين المذيعين والمذيعات على الوقوف ساعات رافعين أيديهم في الاستوديوهات والممرات، الوزارات حيث وقف الوزراء مع موظفيهم مصطفين أمام الفوهات غير دارين بما حدث وما سيحدث، ولم يسمح حتى للمصابين بالسكر بأن يخرجوا من الصف ليتبولوا، سطوح البنايات العالية وقد أفرغوها من سكانها إلى السراديب، مفارق الطرق وقد منع التجول فيها ومراكز الاتصالات السلكية واللاسلكية. بدشاديشهم والعقل المقصبة، أو ببدلات مدنية لماعة، سمانا، غلاظ الشوارب، تلمع وجوههم من شحم

العافية.. وقفوا باستعداد متوتر ورشاشاتهم جاهزة للإطلاق على كل ما يتحرك في الشوارع التي منع فيها التجول وعيونهم تقدح خوفا وتخويفا لكل ما حولهم حيث العالم قتيل أو قاتل.

الشوارع خلت تماما وسكن الناس في بيوتهم يتنفسون ببطء تلتقي عيونهم صدفة في نظرات تجمع الخوف والسؤال: ماذا حدث؟

- نسيتم يا من لكم ذاكرة الأسماك؟ نحن في تموز.. لن يمر هذا الحر دون إن ينتهي ضيق الأرواح بحدث جديد...

- لقد مات كبير القوم إياه متأثرا بجراحه بعد قنبلة المخيم.

- الذي رأيتموه في التلفزيون لابسا بدلة بيضاء

هو الشبيه بعد قتل الأصل.

- لا الشبيه ولا الأصل، إنه مجرد دمية، فالذي يحكم البلد هو السير لويس براون وسادته اليهود، وهم وراء كل هذا الخراب انتقاما من السبي البابلي.

- قبل أن تحكموا اقرأوا الصفحة مائة وخمساً وعشرين من كتاب (الأحداث الجسام)! فكل ما نشهده اليوم مرسوم فيه بالتفاصيل: فالشبيه والأصل هما جوج وما جوج وقد نزلا من جبال الملح إلى الأرض وأدارا حربا طولها سبعمائة عام، غصت خلالها القبور بالجثث وانسدت مجاري الأنهار حتى فاضت دما.

- عما قريب سيظهر المهدي المنتظر فالله عطوف رحيم بعباده ولا يمكن أن يتركهم لكل هذا العذاب، لأنه يعرف حدود احتمالهم...

- لن يظهر المهدي لنا، ولا حتى لأولادنا، لأننا لم نطاوعه بالوفاء لخالقنا...

ومع التخمينات انهدت أعصاب الناس من انتظار:

- بعد قليل سنذيع عليكم بيانا هاما، بعد قليل سنذيع عليكم

بيانا هاما، بعد قليل...

وانهدت من تكرار المارش العسكري وتكرار رقصة الشمعدان دون توقف.

ومع ذلك لم يظهر المذيع منذ ليلة أول أمس ولم يصدر البيان.

في هذا الجو المشحون نزل موكب السيارات السود من تلة فوق المدينة قاطعا الشوارع مثل زوبعة هائمة وقد أطل أفراد الحماية من أبواب سيارات نصف مفتوحة مشرعين رشاشاتهم وعيونهم تبحث في الزوايا والمنعطفات غير دارين بالذي يحرسونه: الأصل أم الشبيه؟ قبل أن يترجل من سيارته قفز الحراس قبله ليقطعوا الشارع حاملين قاذفات اللهب والصواريخ المضادة للدروع بينما أسرعت مجموعة أخرى لتفتح الباب الحديدي للقصر الذي احتلت بناياته وقتل معظم حراسه وهم نيام في أسرتهم بعد أن فتح الباب الحديدي للمهاجمين وفق اتفاق مسبق.

فتح الباب الداخلي فاصطفقت الأبواب الزجاجية على الجدران واهتزت على جانبي الممر التماثيل النصفية لبناة الدولة الذين لا يعرف أسماءهم، وموظفو التشريفات الدائمون ببدلاتهم الرسمية السوداء ملتصقين بالجدران يرتجفون من الفزع، وانفتحت أبواب مهاجع الحراس الذين قتلوا على أسرتهم منذ ساعات، بينما وقف المهاجمون وقد شمروا أكمامهم قبل أن يغسلوا الدم و اصطفوا على جانبي الممر في ولاء مطلق وهم يتساءلون:

- أهو الأصل أم الشبيه؟

سار في نفس الممر الذي سار فيه عشرون قبله، بخطوات طويلة وهو يضرب الأرض المرمرية التي خطتها مساحب الدم ويلوح بنفس السيف الذي قطع به رأس السفاح:

- ها أنـــا!

فتردد الغرف والممرات أصداء صوته:

- نــا نــا نــا...

سعـادته بالنجاة من المحاولة تشع من عينيه في بريق وحشي وتأهب لأن يفعل شيئا خطيرا وقاسيا: أن يغرز أصابعه المشدودة في لحم آدمي، أن ينتزع عينين من محجريهما، أن يفتح بالسيف في يده ممرا بين زحمة من آدمية.

- خيانــــة، خيــانة

يردد بصوت يصر من بين أسنانه وقد انشدت شفتيه.

يحس تماما بجسده وهو يسير وسط طوق من حمايته، يرص خطواته على الأرض ويمد قامته فوق طوق الحماية ليرى بعيني نمر أبعد نقطة وقد أحاطت عينيه غلالة قاسية من الإحساس بالقدر لرجل نجا توا من موت محقق. مع ذلك مازال يبحث بين أكداس الجثث المتراكمة على جانبي الممر وفي الغرف التي فتحت أبوابها عن احتمال ضعيف مازال يهدده. يمط رقبته ويزدرد ريقه من العطش ويقلص أصابعه بحاجة لأن يدفئها بدم آدمي ساخن. ممسك بكل حركة من جسده وبسلطته التي تمور الآن في كل عضلة من جسده مجسدة في أفعال لها وزن الدم وليست مجرد كلمات على كتب يوقعها في مكتب الرئاسة. إنها هنا، أتباع يأمرهم فيفتحون بالنار طريقه لكي يمر وأعداء يشير بطارف سيفه فينهمر الرصاص ويسيل دمهم على طول الممرات التي يدوسها الآن بقوة سلطته:

- هــا أنــا!

اهتز على صرخته زجاج النوافذ والريح الوخمة وقطرات الدم على الزجاج والجدران، يدمدم:

- خيــانة!

وما ومن أحد حوله يجرؤ على الاستفسار عما قاله. يشد على سلطته بأسنانه و اليد الممسكة بالسيف أمامه يمزق بها ستارة الهواء المثقل بأقدار عشرين قبله دخلوا هذا القصر منتصرين على من قبلهم،

غير آبهين مثله بالدم الذي لطخ الممرات والجدران.. إنها السلطة التي توزن دائما بالدم.. نفس الممر ونفس النقر على الآلة الطابعة:

- تتك تتك تك تك تتتتتتـــ...

من نهاية الممر خرج ثلاثة من مرافقيه وقد رفعوا أكمامهم عن اذرع ملطخة بالدم ليفتحوا له باب الغرفة الأخيرة. توقف لحظات:

- هواء!

أراد أن يخفف من وطأة رائحة الدم المالحة و وخمة القاعة المختنقة برائحة الموت.. سحبت الستائر عن النافذة فانكشف في وسط القاعة الجسد المكبل على الكرسي والمائل نحو اليمين من وهن النزف والخيبة. في هذه اللحظات شعر بالضيق من حصار الحماية حوله والحركة المربكة التي أحاطوه بها:

- هدوووء!

تمعن فيه من فوقه وعلى بعد خطوتين: غير معقول! لكم تغير الخيانة شكل الناس؟ فالثياب ممزقة عند الكتف تكشف ضمادات تخثر عليها الدم. وقد مال الوجه مبتعدا عن الضوء الذي يكشف عورات المهزوم. لم يرفع رأسه حين وقف القائد أمامه تماما:

- لم فعلت ذلك؟

خرجت هذه الكلمات عسيرة خشنة كأن قائلها لم يجرب حبال صوته منذ زمن.

-...

- لم فعلت ذلك؟

قال وهو يرفع رأسه ممسكا بخصلة شعره فبانت تحت ظل ثقيل جفونه السوداء وقد تغطت بدم مازال ينزف من الحاجب. ارتعشت تعابير الوجه بجهد عسير في محاولة للتغلب على الخذلان والألم. أخرج القائد منديله ومسح خيط الدم فدار المحجران ببطء ثقيل.. آنذاك سحب القائد كرسيا وجلس عليه

واضعا السيف أفقيا على ركبتيه. حركة الحماية المتوترة وهم يوقظون المكبل من غيبوبته ضايقته، وما يزيد ضيقه هاجس مقبض، هو أن يكون الآن في موضع هذا المكبل.. كل هؤلاء الحراس سيكونون مع الآخر ضده:

- أريد أن أتحدث معه على انفراد!

قال دون أن يكمل استدارته فانسحب حراسه بتردد.

قرب كرسيه وانحنى متمعنا يريد أن يرى خلف هذا الوجه المتجهم المثقل بالألم صديق صباه الذي ينام معه قرب الناعور ويركب البغلة أمامه، أو الشاب الذي كان ينام على سرير يجاوره شابكا يديه مثله خلف رأسه وقد خطرت له نفس الفكرة في الوقت نفسه. أراد أن يخترق روح صديقه كسلك دقيق يشق اللحم بصوته القريب الهامس:

- لماذا فعلت ذلك؟

-...

بخطوات ثابتة دار مرة ثانية حوله غير آبه بسواقي الدم التي سالت من جثث الذين قتلوا خلال المواجهة أو انتحروا بعد فشلها تاركا على بلاط الغرفة الأبيض أثار خطواته بالدم.

- ما الذي كان ينقصك؟

الصاد ترددت في القاعة مع أنين خافت.

- المنصب؟...لقد سلطتك على الرؤساء وقادة الجيش وجعلتك حاكم الدولة الحقيقي...!

-....

- المال؟ أنت الوحيد الذي لا يحاسب على ما يصرف وما ينهب.. مزارع على امتداد النهر، مصانع لا تعرف حتى ماذا تنتج، سيارات، نساء... ما الذي كان ينقصك؟

- الثقة؟... لقد وثقت بك أكثر من أخ.. أنت أول من أراه كل

صباح وآخر من أراه قبل النوم وكانت مفاتيح غرفة نومي معلقة بسلسال بيديك. أنام بين يديك وآكل طعامي من يدك وجعلتك سيفي حين لا أحمل سيفا.. أعطيتك اسمي وصورتي فكنت أنـــا!

بذل المكبل جهدا صعبا ليعدل من استقامة جسده وينظر للقائد الذي بدا له رغم حدة صوته وصلابة خطواته ويده القابضة على السيف مخذولا أكثر منه هو الذي سيموت بعد دقائق.

- توهمت أني فريسة سهلة مثل الوزير، يمكن القضاء عليه بغمزة تجعل السيارة تقفز في الهواء؟

نسيت أنني علمتك كل هذه الألاعيب، لكنك كنت تلميذي الفاشل لأنك بقيت كما كنت..

يدور ويدور حوله تاركا أختام الدم على البلاط و فترة من الصمت بين سؤال وآخر. وبين آونة وأخرى يسترق نظرة لهذا المكبل وسط الدائرة يتقلص وجهه بعسر..لم تجرحه الكلمات، إنما لحظات الصمت بينها لأنها تزيد من وطأة وثقل الزمن الذي يفصله عن الموت. لأول مرة يعرف بالملموس العذاب الذي واجهه كل أولئك الذين حقق معهم تحت وطأة الألم والإعياء بينما يخطر هو واقفا بكل أناقته دائرا حولهم. يحاول أن يتمثل ضحية صلبة من ضحاياه فيؤلمه الجهد الصعب الذي يبذله لكي يبقي جسمه منتصبا. ما عادت هناك فرصة للمغفرة ولا حياة أخرى لذلك عليه أن يقضي هذه الدقائق باستقامة وثبات رجل عرف الموت مرارا: (هيا اطعني بهذا السيف إذن، فلم تبق غير الكلمات الفارغة!).

-... كنت مجرد مجازف أحمق.

أراد أن يقول له: إنك لم تعط شيئا إلا لنفسك التي ما أحببت غيرها وما كنت أنا لك إلا حارسا وشبيها تعلم بأنه يحكم صوريا نيابة عنك ويموت حقيقة بدلاً منك. ولكن قواه كانت تتلاشى ولا يربطه بالحياة

غـيـر الألم، هذا الجسـر الطويـل الموصل إلى الموت. وفـقـدت الكلمـات معـانيـهـا وصـارت جزء من المؤثرات، مـثـل صـخب الحراس وراء البـاب وطنين الذباب الذي يلعق الدم والأنين المتـقطع الصـادر من بين كـدس الجثث. حين فـتـح عـينيـه للمرة الأخيـرة جرحه الشعـاع الآتي من النافذة ورأى سـاقـي هذا الذي يدور حـوله، وسـيـفـه الذي يخط الأرض وآثار أحذية مـتـقـاطعـة مـن الدم،الجثث المكدسـة التي ينز الدم من ثقوب فـيـهـا دارت وانحلت فـي غـمـرة إبر ضـوئيـة تخزه. سـمع بوضـوح مـضـخم طنين الذباب يطغى على كل الأصوات الباقية ومنها صوت القائد:

- أعطيتك أجمل نساء البلد وأفضل ثرواته، ما الذي كان يعوزك؟

كان على وشك أن يقول: ذاتي!

لكن قطع عليـه الأصوات طنين ذبابة زرقاء انفصلت عن السـرب وجاءت إليـه محلقـة عبر فضـاء القـاعـة، فـوق الجثث، عـبـر برك الدم و مسـاحب الجثث، وحطت عند طرف عـينه اليـمنى. راحت تمسح أجنحـتـهـا من برودة الموت العـالقة وتلحس الدم الحار النازل من حاجبه.

-هل لك أن تتوج ما قدمته لي من خدمات بطلب أخير؟

انـتـفض القـائد واعـتـدل في جلسـتـه مـتـعـجلا لسـمـاع هذا الصـوت الصادر من وراء اليقين .

-...

أبعد هذه الذبابة عن عيني!

ارتفعت اليد المسكة بالسيف عـاليـا نحو السـمـاء ثم نزلت قـوية على شكل قـوس بحـيـث ضـاع السـيف عن الاثنين وخطفت لمعـتـه تحت الإنارة الساطعة الآتيـة من الشباك، ثم انكشفت الصورة عن الرأس الذي قطع السيف صرخته مستقرا على البلاط الأبيض وبقى فمه مفتوحا كمن قال: أنـــا!

سمع الناس لأول مرة صوت قائدهم الجديد وهو يقول:

- انتهى السفاح. ناموا الليلة بهدوء ولتخرجوا صباحا للفرح!

لم يكن فرحا هو نفسه، ولا فخورا بلحظة النصر هذه، إنما غادر هربا من رائحة الموت الوخمة وطنين الذباب وخيوط الدم التي طوقته. ترك القائد الغرفة مشيرا لحراسه (بحركة نازلة من رأسه (نعم!) فسحبوا أقسام بنادقهم ودخلوا الغرفة التي غادرها. كان يصعد السلالم التي صعدها قبله عشرون حين سمع الصليات، ورأى عند فسحة السلم صورة مكبرة له يحمل رأس السفاح (لكم كان يشبهني!) لم يتوقف أمامها ففي داخله كان ما يزال يخاطب شبيهه:

- أتدري يا مجيد أنني لم أعرف الحب في حياتي؟

- كنت مشغولا بالأشياء الكبيرة.

- السلطة كما رأيت اليوم لا تترك مجالا للحب، لأنها مصنوعة من بارود ودم... جثث تزيح الجثث التي قبلها.. هذا هو تأريخ السلطة.. هذا القصر الذي يحسدونني عليه ويتكالبون عليه بالخناجر والقنابل يبدو لي مثل سرداب الموت. أتجول فيه لوحدي فاسمع الدم يشخب في جدرانه وينز من مسامات حيطانه ويوسوس الموت في كل زاوية منه.

بقي مجيد فاغر الفم وقد ازدرد ريقه كمن يتعرف الحقيقة للمرة الأولى.

- أتعتقد يا مجيد أن السلطة تستحق كل هذا العناء؟

- أنت أعرف يا سيدي فما أنا إلا جندي.

لم يجد السلطة حين جلس بين العلمين والسيفين المتقاطعين وهو يصغي لتكتكة الآلة الطابعة:

- تك تك تلك تك...

بانتظار البيان الأول، بل وضع رأسه على يديه و انخرط بالبكاء.

التقط وليد تلك الدموع وهذه اللحظة العاطفية كأنها لحظة التطهير وراح يستحثه: هيا يا سيدي، أمامك فصل الختام! كن أنت المنقلب على

نفسك! إنزل إلى السراديب عبر الممر بين القصر والسجن! الحراس يفتحون لك الأبواب الحديدية التي تحمل صدأ السنين. ممرات الموت والرعب تردد بجلجلة عالية ضربات الجزمات على الأرض الإسمنتية و صليل المفاتيح وهي تفتح الأبواب تباعا، ومعها صدى صرختك التي لن تنسى:

- انتهى كل شيء!

لن يفهم مدمنو الزنازين معنى ما تقوله لأول وهله. سيلتصق هؤلاء المرتابون بالحيطان والزوايا مقلصين أجسادهم خوفا من أن تطلق النار عليهم من الخلف.. مع ذلك لا تتردد يا سيدي فهذه لحظتك! سيمسح التاريخ كل القتلى والمعذبين بجملة واحدة (في تلك السنوات الصعبة حكم البلد رجل حازم قاس مع خصومه، لكنه صنع من الفوضى والتمزق دولة مهابة من جيرانها).. من أجل هذه اللحظة التاريخية سأجمع حولك المساجين الذين لم يروا النور منذ دهر بلحاهم الطويلة وجراحهم و قملهم، أمهات القتلى بعباءاتهن السود ووجوههن الملطخة بالطين، جياع المخيمات بهياكلهم النحيلة وأسمالهم وأطفالهم الذين ماتوا قبل أن تصل عصيدة الإغاثة، المعوقون الذي فقدوا في الحروب سيقانهم وأذرعهم وعيونهم سيأتونك على كراسيهم المتحركة مالئين شوارع المدينة.. سأجلب لك كل هؤلاء من أقبية التعذيب، من المقابر، من ردهات المستشفيات،ما من أحد أجدر منهم برسم النهاية، سأجمعهم حولك أنت الواقف بسيفك المسلول فوق المنصة.. بقيودهم، بطاسات الصفيح الفارغة، بصور الأبناء الذين فقدوا في الحروب دون قبور، بالعكازات والسيقان الصناعية التي تلمع تحت شمس المنصة سيهتفون كما الرعد:

- نموت ويحيا القائد!

٢٥ كانون الثاني ٢٠٠٢

لندن

كل شيء كان واضحا في مخيلة وليد دون أن يراه: لحظات السهو التي سبقت الصرخة، ردود فعل الشخصيات حين تمزق الصرخة زجاج الليل البارد.. مع ذلك ارتعشت يده حين أحس وجع الطعنة في كتفه. التفت حوله إلى النوافذ المجاورة، لكن الظلمة أطبقت على الجميع وعلى ذاكرته أيضا فيما يشبه الغيبوبة التي لن تعود الحياة بعدها كما كانت سابقا. آخر جملة كتبها (لليوم الثالث...) مخربشا سكيتشات للرواية التي تستعصي عليه. توقف عن الكتابة حين تركت الصرخة على ورقته خطاً يشبه الجناح المقطوع. بحذر وبطء دور جسده على السرير ومد قدميه وقد توترت الأصابع كما يمدها إلى هاوية سحيقة وتلمس خطواته وقد فقد الاتجاهات.. للحظات بقي قلبه يدق بقوة وهو يحدق في ظلمة المدينة غير مقدم على أن يقول شيئا. ومرة أخرى لام نفسه على العودة لبلد يعيش على حافة القيامة.

الغلاف للفنان رياض نعمه

ISBN:2-84305-664-X
9 782843 056642